المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



مجلة العلوم العربية

مجلة علمية فصلية محكمة

العدد الثالث والعشرون
ربيع الآخر ١٤٣٣هـ
مارس ٢٠١٢م

عمادة البحث العلمي
Deanship of Academic Research

www.imamu.edu.sa
e-mail: journal@imamu.edu.sa

مجلة العلوم العربية

مجلة علمية فصلية محكمة

العدد الثالث والعشرون

ربيع الآخر ١٤٣٣هـ

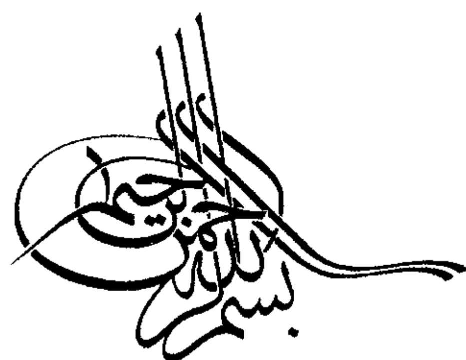
www.imamu.edu.sa

e-mail: journal@imamu.edu.sa

عمادة البحث العلمي

Deanship of Academic Research

رقم الإيداع: ٣٥٦٣ / ١٤٢٩ بتاريخ ١٩ / ٠٦ / ١٤٢٩هـ
الرقم الدولي المعياري (ردمد) ٤١٩٨ ـ ١٦٥٨


بسم الله الرحمن الرحيم

قواعد النشر

مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (العلوم العربية) دورية علمية محكمة، تصدر عن عمادة البحث العلمي بالجامعة. وتُعنى بنشر البحوث العلمية وفق الضوابط الآتية :

أولاً : يشترط في البحث ليقبل للنشر في المجلة :

١- أن يتسم بالأصالة والابتكار، والجدة العلمية والمنهجية، وسلامة الاتجاه .

٢- أن يلتزم بالمناهج والأدوات والوسائل العلمية المعتبرة في مجاله .

٣- أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج .

٤- أن يتسم بالسلامة اللغوية .

٥- ألا يكون قد سبق نشره .

٦- ألا يكون مستلاً من بحث أو رسالة أو كتاب، سواء أكان ذلك للباحث نفسه، أم لغيره .

ثانياً : يشترط عند تقديم البحث :

١- أن يقدم الباحث طلباً بنشره، مشفوعاً بسيرته الذاتية (مختصرة) وإقراراً يتضمن امتلاك الباحث لحقوق الملكية الفكرية للبحث كاملاً، والتزاماً بعدم نشر البحث إلا بعد موافقة خطية من هيئة التحرير .

٢- أن يكون البحث في حدود (٥٠) صفحة مقاس (A ٤) .

٣- أن يكون حجم المتن (١٧) Traditional Arabic، والهوامش حجم (١٤) وأن يكون تباعد المسافات بين الأسطر (مفرد) .

٤- يقدم الباحث نسخة مطبوعة من البحث، ونسخة حاسوبية مع ملخص باللغتين العربية والإنجليزية، لا تزيد كلماته عن مائتي كلمة أو صفحة واحدة .

ثالثاً: التوثيق :

١- توضع هوامش كل صفحة أسفلها على حدة .

٢- تثبت المصادر والمراجع في فهرس يلحق بآخر البحث .

٣ - توضع نماذج من صور الكتاب المخطوط المحقق في مكانها المناسب .

٤ - ترفق جميع الصور والرسومات المتعلقة بالبحث، على أن تكون واضحة جلية .

رابعاً : عند ورود أسماء الأعلام في متن البحث أو الدراسة تذكر سنة الوفاة بالتاريخ الهجري إذا كان العَلَم متوفى .

خامساً : عند ورود الأعلام الأجنبية في متن البحث أو الدراسة فإنها تكتب بحروف عربية وتوضع بين قوسين بحروف لاتينية، مع الاكتفاء بذكر الاسم كاملاً عند وروده لأول مرة .

سادساً : تُحكَّم البحوث المقدمة للنشر في المجلة من قبل اثنين من المحكمين على الأقل.

سابعاً : تُعاد البحوث معدلة، على أسطوانة مدمجة CD أو ترسل على البريد الإلكتروني للمجلة .

ثامناً: لا تعاد البحوث إلى أصحابها، عند عدم قبولها للنشر .

تاسعاً: يُعطى الباحث عشر نسخ من المجلة، وثلاثين مستلة من بحثه .

عنوان المجلة :

جميع المراسلات باسم رئيس تحرير مجلة العلوم العربية

الرياض ١١٤٣٢- ص ب ٥٧٠١

هاتف : ٢٥٨٢٠٥١ - ناسوخ (فاكس) ٢٥٩٠٢٦١

www. imamu.edu.sa

E.mail: journal@imamu.edu.sa

المحتويات

الخواص اللغوية
لأمهات الأبواب النحوية

د. صالح بن إبراهيم الفراج
قسم النحو والصرف وفقه اللغة – كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الخواص اللغوية لأمهات الأبواب النحوية

د. صالح بن إبراهيم الفراج
قسم النحو والصرف وفقه اللغة- كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

تمتاز الأم في الأبواب النحوية بخواص تنفرد بها عن أخواتها الأخريات من أجل ذلك استحقت هذه الأداة أن تكون أما لبابها، وإذا كان لكل أم خواص تتسم بها فإن هناك خواصا مشتركة بين تلك الأمهات. وهذه الدراسة تهدف إلى تسجيل وإبراز هذه الخواص الخمس. خاصة التأثير الإعرابي، وخاصة الحذف، وخاصة الربط، وخاصة التضام، وخاصة الدلالة.

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، ونصلي ونسلم على نبيه محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته وسار على نهجه، أما بعد:

فإن الدافع الأول لكتابة هذا البحث هو أنني اطلعت على دراسات ثلاث تُعنى بدراسة الأمهات في الأبواب النحوية، وتُبرز الخصائص التي تتصف بها كل "أم" منفردة عن أخواتها:

الدراسة الأولى: دراسة للباحثة أريج بنت عثمان بن إبراهيم المرشد، بعنوان: "أُمُّ الباب في النحو"، دراسة نحوية.

وهي دراسة علمية أعدتها الباحثة لنيل درجة الماجستير في النحو في قسم الدراسات العليا – فرع اللغة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وقد نوقشت هذه الرسالة في شهر صفر من عام ١٤٢٢هـ.

الدراسة الثانية: دراسة للدكتورة فائزة بنت عمر المؤيد، بعنوان: "خصائص أمهات الأبواب النحوية".

الدراسة منشورة في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في عددها الخامس والثلاثين، الصادر في شهر رجب عام ١٤٢٢هـ.

الدراسة الثالثة: دراسة للدكتور حسن أحمد العثمان، بعنوان: "الأمهات في الأبواب النحوية"، دراسة استقرائية تعليلية لأوجه أحقية الأداة بأمية بابها.

الدراسة صدرت طبعتها الأولى في كتاب عن مؤسسة الريان، بيروت – لبنان، سنة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

ومع أهمية هذه الدراسات، وفضلها بالسبق في جمع أمهات الأبواب النحوية، واستيفائها لتلك الخصائص، إلا أنها أغفلت الحديث عن الخصائص المشتركة التي تربط بين تلك الأمهات، وتبرز السمات التي تلتقي عندها هذه الأدوات، فرغبت أن أكتب بحثًا يكون مكملًا لتلك الدراسات، وهو بحث جدير بالاهتمام؛ لأنه يكشف لنا جوانب مهمة

اشتركت فيها تلك الأمهات، وانفردت عن أخواتها الأخريات مما أهّلَهَا لتكونَ أصلًا في بابها و"أمًّا" لأخواتها.

ولقد كان أمام هذا البحث طريقان:

الأولى: أن تجعل الأمهات محور الدراسة، فتدرس خواص كل "أم" على حدة، فيقال: خواص "كان"، فتستقصى خواصها واحدة تلو الأخرى، ثم خواص "إنَّ"، وخواص "ظن"، وخواص "إلا" في الاستثناء، وخواص واو العطف، وهكذا، فيكون مدار الحديث في البحث هو هذه الأمهات.

وهذه الطريقة استبعدتها؛ لأن لكل "أم" خواصًا مختلفة عن الأخريات، فلا جامع يجمع بينها، وسبب آخر -وهو الأهم-؛ وجود الدراسات المذكورة على هذا النهج.

الثانية: أن يكون محور الحديث في البحث مُنْصبًا على الخواص اللغوية:

خاصة التأثير الإعرابي، وخاصة الحذف، وخاصة الربط، وخاصة التضامّ، وخاصة الدلالة.

ثم أتحدث عن هذه الأمهات التي تشارك في هذه الخواص؛ لإبراز أهميتها وأحقيَّتها بوصفها بـ"الأم".

وبهذه الطريقة توجد نقط التقاء في هذه الخواص بين مجموعة من هذه الأمهات.

وهذه الطريقة هي التي اخترتها منهجًا لهذا البحث الذي زاوجت فيه بين الوصف تارة، وبين التحليل تارة أخرى.

* * *

تمهيد

فكرة "الأم" في الأبواب النحوية، والأمهات التي سماها النحويون:

أولًا: فكرة "الأم" في الأبواب النحوية.

يقر علم اللغة -في القديم والحديث- بأن هناك كلمات منوطًا بها -أكثر من غيرها- أداء وظائفَ مهمة في الجملة النحوية؛ لذا حرص الشعراء والبلاغيون على فكرة "الاختيار" في البناء الفني -ظهر ذلك في الشعر خاصة- حيث ركزوا على اختيار الكلمة المنوط بها تجسيد معنى جزئيٍّ يسهم في بناء المعنى الكلي للجملة ثم القصيدة.

ولقد آمن النحاة القدماء بقيمة بعض الكلمات في التراكيب النحوية، واعتقدوا - من خلال الاستعمال- أهميتها اللغوية؛ لما لها من قيمةٍ تعبيرية أو وظيفية أو دِلالية في هذه التراكيب.

وتكلم النحويون عن الأصول والفروع في النحو العربي. وقالوا إنّ هذه الأصول تحوي ما في الفروع وزيادة، خلافًا للقاعدة القائلة: "إنّ الفرعَ فيهِ ما في الأصْلِ وزيادة". والحق أنه لا تعارض بين الأمرين؛ فلكلٍّ دواعيه ووظائفه.

فالأصول لها عند النحاة قيمة لغوية -استعمالية- أكثر من الفروع التي تجري معها في سَنَن واحد، والباقي فروع لها. فالصيغة التي تؤدِّي أكثر من وظيفة، في حين تؤدي أخواتها الباقيات وظيفةً واحدة عدَّها النُّحاة أصلًا لهذهِ الصيغ الفروع، وربما جعلوها "أمًّا" لها -كما يقول النحاة-.

فـ"كان" -على سبيل المثال- هي "أم" هذه النواسخ التي تشاركها في هذا الباب؛ لأن "كان" أكثر حرية، وأكثر تصرفًا في استعمالها في التراكيب اللغوية التي تضمها؛ إذ توظف "كان" بجانب التأثير الإعرابي - كباقي أخواتها- في استعمالها زائدة، واستعمالها في الزمن المستمر، وليس ذلك إلا لها، لذا فهي على هذا النحو الثري في الاستعمال "أم" الباب.

ومن أجل هذه الخواص سميت بعض الأبواب بأسماء أبرز عناصرها وظيفةً واستعمالًا، كما في باب "كان" وأخواتها، و"إن" وأخواتها، و"ظن" وأخواتها.

وقد لا يسمى الباب النحوي باسم أحد عناصره النحوية، لكن ذلك لا يمنع من أن يكونَ أحدها أصلًا للمجموعة اللغوية المنتسبة إليه، فيكون هو الأم. مثل واو العطف التي تعد "أم" حروف العطف؛ لأنها أكثر تصرفًا من أخواتها، مما جعلها أم باب أدوات العطف، وإن كان النحويون لم يسموا الباب باسمها.

ومثل ذلك "إلا" في أدوات الاستثناء التي تتميز عن أخواتها بوظائف نحوية ليست في أخواتها الأخريات: غير، وسوى، وخلا، وعدا، وحاشا، ومع ذلك لم يسمَّ الباب باسمها.

إن التسمية بـ"الأم" لبعض العناصر اللغوية تسمية مقبولة، اقتبسها النحاة من الأسرة الحياتية، نظرًا للتصرفات المختلفة، والوظائف المتعددة التي يؤديها كلٌّ منهما.

فالأم في محيط الأسرة هي الأصل الذي يقوم عليه شأن الأسرة، في لمِّ شتاتها، ورفعة كَيانها ومكانتها، وإذا لم توجد ضاعت الأسرة وذهب ريحها، وكذا الأم في محيط الأسرة اللغوية.

وفكرة الأم في الأبواب النحوية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بفكرة القوة والضعف التي تنبع في الأصل من قضية الأصالة والفرعية.

إن فكرة الأصل والفرع قد عالجت مختلف القضايا النحوية في مختلف الاتجاهات؛ كفكرة الأصل والفرع في التصرف والجمود في بعض الأبواب النحوية، وفكرة الأصل والفرع في الإعراب والبناء، وفكرة الأم والتابع لها التي أناقشها في هذا البحث.

فالعوامل الأصلية أقوى من العوامل الفرعية، فالفعل أصل في العمل، والاسم فرع، وأقل منه في التأثير الإعرابي، كما أنه أقل من الفعل في الدلالة اللغوية.

كما أن الأفعال متفاوتة في التأثير الإعرابي؛ فالأفعال المتصرفة أقوى من الأفعال الجامدة، والفعل المتعدي أقوى من الفعل اللازم.

كذلك الأسماء، فالأسماء القريبة من الأفعال كاسم الفاعل أقوى تأثيرًا في الإعراب من الأسماء التي لا تتبعه مباشرة كالصفة المشبّهة مثلًا.

لقد ناقش النحاة القدماء مسائلَ كثيرة تتصل بفكرة الأصل والفرع وتوصّلوا إلى آراء سديدة، وكان ذلك قائمًا على نظرات ثاقبة، وفهم خاص نابع من فكر المدرسة اللغوية التي ينتمون إليها، ولم يكن ذلك مشفوعًا بدراسات لغوية مقارنة، تؤكد صحة ما توصلوا إليه، أو ترجحه، ولكن ثبت ذلك بعد أن تطورت أدوات البحث اللغوي في العصر الحديث، الذي لم يجد بدًا من الاعتراف بأغلب ما توصل إليه القدماء من النحاة.

ولا شك أن الخواص اللغوية لهذه الصيغ "الأمهات" جعلت الجملة معها أكثر حركة وحرية في البناء اللغوي التي هي أساس له.

ولا شك أن البناء اللغوي أقوى إضاءة للدلالة على ما يراد من هذا الفعل أو الأداة "الأم" من غيرها من الفروع "الأخوات"، واكتسبت بعض التراكيب –من خلالها– دلالات أخرى لا توجد في بقية أخواتها.

فطول الجملة وقصرها –الزيادة والحذف–، والزمن المتعدد، والدلالات المختلفة، يدور مع هذه الأدوات وجودًا وعدمًا، مما يمكن معه القول: إن رصد النحاة لاستعمالات هذه الأمهات ليس رصدًا عاريًا عن الفائدة، غير مرتبط بالدلالة، بل هو رصد دقيق يبرز الخواص اللغوية والدلالية لهذه الأمهات.

ثانيًا: الأمهات التي سماها النحويون:

إذا كان المتبادر إلى الذهن أن "أمهات الأبواب النحوية" كثيرة جدًا –قياسًا بالأبواب النحوية– كان لابد من بيان الأساس الذي تمّ وفقه اختيار هذه الأمهات، فأقول:

إن الأمهات التي سمى النحويون الباب باسم إحداها لا تتجاوز ثلاث أمهات، هي: "كانَ" و"إنّ" و"ظنّ"، وفي مقابل ذلك نصوا على "أمية" عدد آخر لم يسمّ باب من الأبواب النحوية بواحدة منها، وهذه هي التي سوف يشملها البحث، تاركًا ما سواها من

الأدوات التي يمكن أن تكون "أما" لبابها، ولم يذكرها النحويون خوف تعسف فرض "أم" لبعض الأبواب التي لم يحددها النحويون الأوائل.

وسوف أعرض الأدوات التي نص النحويون على أميتها مرتبة ترتيبًا هجائيًا:

١- همزة الاستفهام:

الهمزة هي أم أدوات الاستفهام على الإطلاق، وصرح سيبويه بأميتها لبابها حينما جعلها كـ"إنْ" الشرطية، حيث يقول: "وإنما أجازوا تقديم الاسم في "إنْ"؛ لأنها أم الجزاء، ولا تزول عنه، فصار ذلك فيها كما صار في ألِف الاستفهام ما لم يجز في الحروف الأخر"[١].

ويقول أيضًا: "وأما الألف فتقديم الاسم فيها قبل الفعل جائز؛ كما جاز ذلك في "هلّا"؛ وذلك لأنها حرف الاستفهام الذي لا يزول عنه إلى غيره، وليس للاستفهام في الأصل غيره"[٢].

ويقول المبرد: "الألف أحق بالاستفهام"[٣].

ويقول ابن يعيش: "فالهمزة أم هذا الباب"[٤].

ويقول ابن مالك: "واعلم أن أصل أدوات الاستفهام الهمزة؛ لأنها تأتي في الإيجاب والنفي، ويستفهم بها عن التصور وعن التصديق. ولكونها أصل أدوات الاستفهام، والاستفهام له صدر الكلام استأثرتْ عن أخواتها بتمام التصدير"[٥].

ويقول المرادي: "فالهمزة أعم، وهي أصل أدوات الاستفهام؛ ولأصالتها استأثرت بأمور"[٦].

---

(١) الكتاب ١٣٤/١.

(٢) المصدر السابق ٩٩/١.

(٣) المقتضب ٤٥/٢. وانظر: ٥٢/٢، ٧٢، ٢٨٩/٣.

(٤) شرح المفصل ١٥١/٨.

(٥) شرح التسهيل ١١٠/٤.

(٦) الجنى الداني ٩٧.

وقال ابن هشام نحوًا من ذلك: "والألف أصل أدوات الاستفهام، ولهذا خُصّت بأحكام"[1].

وقد نص على أحقيتها بأمية بابها غير من سبق ذكرهم [2].

٢- "إلا" في الاستثناء:

"إلا" عند سيبويه رأس أدوات الاستثناء، وما سواها محمول عليها، يقول: "هذا باب الاستثناء: فحرف الاستثناء "إلا"، وما جاء من الأسماء فيه معنى "إلا" فـ"غير"، و"سوى" وما جاء من الأفعال فيه معنى "إلا" فـ"لا يكون"، و"ليس"، و"عدا"، و"خلا"، وما فيه ذلك المعنى من حروف الإضافة وليس باسم فـ"حاشى"، و"وخلا" في بعض اللغات"[3].

ويقول المبرد: "و"إلا" أحق بالاستثناء"[4].

وعدّها كثيرٌ من النحويين "أم" الباب وأصل أدوات الاستثناء، من أولئك: الحريري [5]، وأبو البقاء العكبري [6]، وابن يعيش [7]، وعلي الحيدرة اليمني [8]، والسيوطي [9]، وغيرهم[10].

٣- "أنْ" الناصبة للفعل المضارع:

تعدُّ "أنْ" أم أدوات النصب، وحصر الخليل نصب الفعل المضارع بها دون أخواتها، وإن كان الأكثرون على خلافه [11].

---

(١) مغني اللبيب ١/ ٧٤.

(٢) انظر: شرح ملحة الإعراب ١٢٤، وشرح الكافية لابن جماعة ٥٠٤، وهمع الهوامع ٤/ ٣٦٠، ومقال "خصائص أمهات الأبواب النحوية" ص١٣٢، والأمهات في الأبواب النحوية ٩.

(٣) الكتاب ٢/ ٣٠٩.

(٤) المقتضب ٢/ ٤٥.

(٥) انظر: شرح ملحة الإعراب ١٢٤، ٢٠٩.

(٦) انظر: اللباب في علل البناء والإعراب.

(٧) انظر: شرح المفصل ٢/ ٨٣.

(٨) انظر: كشف المشكل ١/ ٥٠١.

(٩) انظر: الأشباه والنظائر ٣/ ١٦٦.

(١٠) انظر: مقال "خصائص أمهات الأبواب النحوية" ص١٣٨، والأمهات في الأبواب النحوية ١٩.

(١١) انظر: المقتضب ٢/ ٦، وشرح ملحة الإعراب ٣٤٠، وأسرار العربية ٢٩٢، وشرح المفصل ٧/ ١٥، ٢٠.

يقـول المبـرد: "وكـان الخليـل يقـول: "لا ينتـصب فعـلٌ ألبتـة، إلا بــ"أنْ"مـضمرة أو مظهرة""[1].

وقد جرى على تسمية "أنْ" أمًّا عدد كبير من النحويين، على أنَّ "أنْ" أمكن الحروف في نصب الأفعال، والأحق بأمية أدوات النصب؛ لأنها تعمل محذوفة لا تظهر، وظاهرة لا تضمر، ومحذوفة يجوز إظهارها وإضمارها.

وممـن عـدَّها "أمًّا" للنواصـب: المبـرد [2]، والحريـري [3]، والعكبـري [4]، وابـن يعـيش [5]، والكيـشي [6]، وابـن أبي الربيـع [7]، والمالقي [8]، والمرادي [9]، والسيوطي [10]، والفاكهي [11]، والخضري [12]، وغيرهم [13].

٤- "إنْ" الشرطية:

"إنْ" الـشرطية هي "أم" أدوات الـشرط الجازمـة عنـد الخليـل؛ يقـول سـيبويه: "وزعـم الخليـل أنَّ "إنْ" هي أم حـروف الجـزاء"[14]، وهـي كـذلك عنـد سـيبويه، يقـول: "وإنما أجـازوا تقديم الاسم في "إنْ"؛ لأنها "أم" الجزاء، ولا تزول عنه"[15].

---

(١) المقتضب ٢/ ٦، وانظر أسرار العربية ٢٩٢.

(٢) انظر: المقتضب ٢/ ٦.

(٣) انظر: شرح ملحة الإعراب ٣٤٠.

(٤) انظر: اللباب في علل البناء والإعراب ٣٤٠.

(٥) انظر: شرح المفصل ٧/ ٢٠.

(٦) انظر: الإرشاد إلى علم الإعراب ٤٤٤.

(٧) انظر: البسيط ٢٣١/١.

(٨) انظر: رصف المباني ١٩٣.

(٩) انظر: الجنى الداني ٢٣٦.

(١٠) انظر: همع الهوامع ٤/ ٨٨.

(١١) انظر: شرح الفاكهي على قطر الندى ١٥٠.

(١٢) انظر: حاشية الخضري على ابن عقيل ٢/ ١١١.

(١٣) انظر: مقال "خصائص أمهات الأبواب النحوية" ص١٣٩، والأمهات في الأبواب النحوية ٣٩.

(١٤) الكتاب ٣/ ٦٣، وانظر: معاني القرآن للأخفش ٢٤٦/١، ومشكل إعراب القرآن ٣٥٦/١ .

(١٥) الكتاب ١٣٤/١، وانظر: ٣/ ١١٢.

وعند المبرد أيضًا يقول: "إنّ "إنْ" أصل الجزاء؛ لأنك تجازي بها في كل ضرب منه"[1].

ويقول أيضًا عن أدوات الشرط: "فحروفها في الأصل "إنْ"، وهذه كلها دواخل عليها لاجتماعها. ... وسنذكر "إنْ" كيف صارت أحق بالجزاء"[2].

وعلى هذا جرى الزجاج حيث يقول: "وإنما يجوز الفصل في باب "إنْ"؛ لأن "إنْ" أم الجزاء، ولا تزول عنه إلى غيره، فأما أخواتها فلا يجوز ذلك فيها إلا في الشعر"[3].

ويصرح النحاس باستحقاق "إنْ" لأمية الباب بخصوصيتها دون أخواتها، فيقول عن إضمار الشرط بعدها: "وهذا حسن في "إنْ" وأخواتها أنها لما كانت "أمّ" حروف الشرط؛ لأنها لا تكون لغيره خُصّت بهذا!"[4].

وقد نص على أمية "إنْ" لحروف الشرط جمع من العلماء [5][6].

٥ – "إنّ" المؤكدة:

صرح الحريري بأمية "إنّ" لأخواتها بقوله: "اعلم أنّ لكل نوع من أنواع العوامل عاملًا يختص بخصائص دون نظائره، ويسمى: "أمّ" الباب، وأمّ هذه الأحرف الستة: "إنّ" بكسر الهمزة"[7].

وقد وردت تسمية الباب النحوي باسم "إنّ" وأخواتها في اللمع لابن جني [8]، وشرح ملحة الإعراب للحريري [9]، وشرح اللمع للأصفهاني [10]، وأسرار العربية لأبي البركات

---

(١) المقتضب ٢/٤٩، وانظر: ٢/٧٢.

(٢) المقتضب ٢/٤٩.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٢/٣٤٩، وانظر: ٢/٩٥.

(٤) إعراب القرآن ٢/٢٠٣.

(٥) انظر: الأصول في النحو ٢/١٥٨، وشرح اللمع لابن برهان ٢/٢٦٩، وشرح ملحة الإعراب ٢٥٨، وأسرار العربية ٢٩٨، واللباب في علل البناء والإعراب ٣٤٩، وشرح المفصل ٧/٤١، وارتشاف الضرب ٢/٥٤٧، والجنى الداني ٢٢٨، والمقاصد الشافية ٦/١٠١، وهمع الهوامع ٤/٣٣٦، والدرر ٥/٨٨.

(٦) انظر: مقال "خصائص أمهات الأبواب النحوية" ص١٤٧، والأمهات في الأبواب النحوية ٤١.

(٧) شرح ملحة الإعراب ٢٣٧.

(٨) انظر: ص٢٢.

(٩) انظر: ص٢٣٥.

(١٠) انظر: ١/٢٧٠.

الأنباري [1]، وتوضيح المقاصد للمرادي [2]، وشرح ابن عقيل [3]، وشرح التسهيل لناظر الجيش [4]، والمقاصد الشافية للشاطبي [5]، وهمع الهوامع للسيوطي [6].

وممن سمّاها باسم "إن" وأخواتها: الدينوري [7]، وابن فضال المجاشعي [8]، وأبو البركات الأنباري [9]، وابن الخباز [10]، والمرادي [11]، والشاطبي [12]، والسيوطي [13].

٦- الباء في القسم:

يكاد النحويون يجمعون على أصالة الباء في باب القسم [14] -وإن كانت الواو أكثر استعمالًا منها في القسم [15]-، يقول المبرد: "والباء هي الأصل"[16]، ويقول أبو سعيد السيرافي: "وأصل هذه الحروف الباء"[17]، وكذا قال الرماني [18]. وقال الزمخشري: "والباء

---

(١) انظر: ص١٤٧.

(٢) انظر: ٣٣٤/١.

(٣) انظر: ٣٤٥/١.

(٤) انظر: ١٠٦٧/٢.

(٥) انظر: ٣٠٥/٢.

(٦) انظر: ١٤٩/٢.

(٧) انظر: ثمار الصناعة ١٤٦، ٣٣٩.

(٨) انظر: شرح عيون الإعراب ١٢٠، ١٢١.

(٩) انظر: أسرار العربية ١٤٨.

(١٠) انظر: توجيه اللمع ١٤٧.

(١١) انظر: توضيح المقاصد ٢٩٥/١.

(١٢) انظر: المقاصد الشافية ٣٠٧/٢.

(١٣) انظر: همع الهوامع ٦٣/٢.

(١٤) انظر: المقتضب ٣١٩/٢، والأصول ٤٣٠/١، وشرح كتاب سيبويه ٢٣٧/٤، ومعاني الحروف ٣٦، وسر صناعة الإعراب ١٢١/١، واللمع ١٠٦، والتبصرة والتذكرة ٤٤٥/١، وأسرار العربية ٢٥٠، وشرح المفصل ٣٣/٨، ٩٩/٩، ١٠١، وشرح جمل الزجاجي ٥٢٤/١، وشرح الكافية الشافية ٨٦٢/٢، وشرح ألفية ابن معط ٤٢١/١.

(١٥) انظر: الكتاب ٤٩٦/٣، والأصول ٤٣٠/١، وشرح كتاب سيبويه ٢٣٧/٤.

(١٦) المقتضب ٣١٩/٢.

(١٧) شرح كتاب سيبويه ٢٣٧/٤.

(١٨) معاني الحروف ٣٦.

لأصالتها تستبد عن غيرها بثلاثة أشياء"[١]. ويقول أبو البركات الأنباري: "فإن قيل: لمَ قلتم إن الأصل في حروف القسم الباء دون الواو والتاء؟"[٢].

٧- "ظن":

وقد درج على تسمية باب الأفعال التي تنصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر باسم باب "ظن وأخواتها" عدد من العلماء، منهم: المرادي [٣]، وابن جمعة الموصلي [٤]، وابن عقيل [٥]، وناظر الجيش [٦]، والشاطبي [٧]، والسيوطي [٨].

وعبّر عدد من النحويين بـ"ظن وأخواتها"، منهم: المرادي [٩]، وابن عقيل [١٠]، والسيوطي [١١].

٨- "كان":

جرى عدد قليل من علماء النحو في مؤلفاتهم على تسمية باب الأفعال الناقصة بـ"كان وأخواتها"[١٢].

قال المبرد: "هذا بابٌ من مسائل "كان" وباب "إنّ" في الجمع والتفرقة"[١٣].

---

(١) المفصل في العربية ٣٤٦.
(٢) أسرار العربية ٢٥٠.
(٣) انظر: توضيح المقاصد ١/٣٤٧.
(٤) انظر: شرح ألفية ابن معط ١/٥٠٤.
(٥) انظر: شرح ابن عقيل ١/٤١٦.
(٦) انظر: شرح التسهيل ٣/١٠٦٧.
(٧) انظر: المقاصد النحوية ٢/٤٥٢.
(٨) انظر: همع الهوامع ٢/٢٠٩.
(٩) انظر: توضيح المقاصد ١/٢٩٥.
(١٠) انظر: شرح ابن عقيل ١/٤١٦.
(١١) انظر: همع الهوامع ٢/٦٣.
(١٢) انظر: اللمع لابن جني ٢١٩، وشرح عيون الإعراب ١٠٤، وشرح اللمع للأصفهاني ١/٣٣٣، ٣٧٠، وأسرار العربية ١٣٤، وكشف المشكل ١/٣٢٣، وشرح جمل الزجاجي لابن خروف ١/٤١٥، واللباب في علل البناء والإعراب ١٢٣، وتوجيه اللمع ١٣٤، وتوضيح المقاصد ١/٢٩٥، وشرح ابن عقيل ١/٢٦١، والمقاصد الشافية ٢/١٣٦، وشرح الأشموني ١/٢٢٥.
(١٣) المقتضب ٤/١١٥.

كما نص عدد من العلماء على أن الأصل في هذه الأفعال "كان"، وما بعدها أخواتها من هؤلاء المبرد [١]، والدينوري [٢]، وابن فضال المجاشعي [٣]، وأبو البركات الأنباري [٤]، والخوارزمي [٥]، وابن عصفور [٦]، وابن جمعة الموصلي [٧]، وأبو الفتح البعلي [٨]، والمرادي [٩]، وابن هشام [١٠]، وناظر الجيش [١١]، والسيوطي [١٢].

وورد النص على تسميتها بالأم في مصادر أخرى، منها: اللباب في علل البناء والإعراب [١٣]، وشرح المفصل [١٤]، والإرشاد إلى علم الإعراب [١٥]، وشرح ألفية ابن معطٍ [١٦]، وثمار الصناعة [١٧]، وأوضح المسالك [١٨]، والتصريح [١٩]، وحاشية الصبان على الأشموني [٢٠].

---

(١) المصدر السابق ٣/٨٧، ٨٨.
(٢) انظر: ثمار الصناعة ٣٢٧.
(٣) انظر: عيون الإعراب ١٠٥.
(٤) انظر: أسرار العربية ١٣٤.
(٥) انظر: ترشيح العلل ٩٧.
(٦) انظر: شرح جمل الزجاجي ١/٣٧٦.
(٧) انظر: شرح ألفية ابن معطٍ ٢/٨٦٤.
(٨) انظر: الفاخر في شرح جمل عبدالقاهر ٢٢٦.
(٩) انظر: توضيح المقاصد ١/٢٩٥.
(١٠) انظر: شرح شذور الذهب ١٨٤.
(١١) انظر: شرح التسهيل ٣/١٠٦٧.
(١٢) انظر: همع الهوامع ٢/٦٣.
(١٣) انظر: ص١٢٣.
(١٤) انظر: ٧/٩٧.
(١٥) انظر: ص١٥١.
(١٦) انظر: ٢/٨٦٤.
(١٧) انظر: ص٣٢٧.
(١٨) انظر: ١/٢٢٧.
(١٩) انظر: ١/٢٣٤.
(٢٠) انظر: ١/٢٢٥.

٩- "لَمْ" الجازمة:

وهي أم الحروف التي تجزم فعلًا واحدًا، وقد صرح بأميتها عدد قليلٌ من النحويين، منهم: ألب أرسلان [١]، وابن الوراق [٢]، وبعضهم يجعل الحروف الأخرى أخوات "لم"[٣].

١٠- "ما" النافية:

لم أعثر على من سماها "أمًا" لأخواتها، أو مَنْ يقول: "ما وأخواتها"، إلا ما ذكره علي الحيدرة اليمني بقوله: "وأنا مفرد ههنا بابًا أذكر فيه ما لا يُستغنى من أحكام "ما" النافية"[٤]، وأفردها عن أخواتها.

ولكن اشتهرت أصالتها في بابها وأميتها لأخواتها بأمور:

أن كثيرًا من العلماء أفردوها في باب مستقلٍّ، ولم يذكروا معها أخواتها، وأنَّ كثيرًا منهم نصوا على ضعف أخواتها، يقول ابن جمعة الموصلي عن "لا": "وهي أضعف من "ما"؛ لكونها لمطلق النفي"[٥].

وممن أفردها في باب مستقل ابن جني [٦]، وعلي الحيدرة اليمني [٧]، وابن الخباز [٨].

وبعضهم لم يفردها في باب مستقل، ولكنه صدَّرها بـ"ما" ثم أتبَعها أخواتها، وذكروا أن "ما" أقوى من أخواتها، أو أن أخواتها عملت حملًا على "ما"[٩]، كما فعل ابن عصفور

---

(١) انظر: شرح ملحة الإعراب لألب أرسلان ٤٧أ، نقلًا عن: الأمهات في الأبواب النحوية ١٨٣.

(٢) انظر: علل النحو لابن الوراق ١٩٨، نقلًا عن: الأمهات في الأبواب النحوية ١٨٣.

(٣) انظر: شرح التسهيل ٤/ ٥٧، ومُجِيب النِّدا إلى شرح قطر الندى ١/ ١٧١.

(٤) كشف المشكل ١/ ٣٤٢.

(٥) شرح ألفية ابن معطٍ ٢/ ٨٩٤، وانظر: الإرشاد إلى علم الإعراب ١٦٢.

(٦) انظر: اللمع ٢٢.

(٧) انظر: كشف المشكل ١/ ٣٤٢.

(٨) انظر: توجيه اللمع ١٤٦.

(٩) انظر: الفصول الخمسون ٢٠٩، ولباب الإعراب ٢٧٣.

الذي عقد بابًا لـ"ما" العاملة عمل "ليس". ثم قال: "وإذا كانت "إنْ" نفيًا عملت عمل "ما" في لغة الحجازيين، كقولهم: "إنْ زيد قائمًا"، بمعنى: ما زيد قائمًا"[1].

وكذا فعل العكبري؛ الذي جعل لـ"ما" بابًا مستقلًا، ثم عقد فصلًا مستقلًا عنه، ونصه: "فصل: ومن العرب من يُعمِل "لا" عمل "ما"؛ لاشتراكهما في المعنى"[2].

وكذا فعل الشلوبين[3].

١١- "مِنْ" الجارة:

"مِنْ" هي أم حروف الجر قاطبة؛ لكثرة تصرفها وتنوع استعمالها.

وقد نص الحريري على أميتها بقوله عن حروف الجر: "وأمها "مِنْ"؛ لأن كل أدوات يتفق عملها فلابد لها من "أم" تتولى عليها، مثل: "مِنْ" في حروف الجر، والهمزة في أدوات الاستفهام، و"إلا" في الاستثناء"[4].

وقال الأزهري: "وبدأ منها بـ"مِنْ"؛ لأنها أم حروف الجر، قاله صاحب درة الغواص وغيره"[5].

وذكر الأشموني أن "مِنْ" أقوى حروف الجر، يقول: "إنما بدأ بـ"مِنْ"؛ لأنها أقوى حروف الجر؛ ولذلك دخلت على ما لم يدخل عليه غيرها"[6].

١٢- "واو" العطف:

الواو هي أم أدوات العطف، يقول المبرد: "والواو أحق بالعطف"[7].

---

(١) شرح جمل الزجاجي ٢/٥٩٠.

(٢) اللباب في علل البناء والإعراب ١٣١.

(٣) انظر: شرح المقدمة الجزولية ٢/٨٩٧.

(٤) شرح ملحة الإعراب ١٢٤.

(٥) التصريح ١/٥٢٦، ٦٣٣.

(٦) شرح الأشموني ٢/٢٠٥.

(٧) المقتضب ٢/٤٥.

ويقول أبو البركات الأنباري: "فإن قيل: لمَ كان أصل حروف العطف الواو؟ قيل: لأن الواو لا تدلّ على أكثر من الاشتراك فقط، وأما غيرها من الحروف فيدل على الاشتراك وعلى معنى زائد"[1].

ويقول ابن يعيش: "فمن ذلك الواو، وهي أصل حروف العطف"[2].

وجرى على تسمية الواو أصلًا لحروف العطف، و"أمًّا" لبابها جمع من العلماء، منهم: الحريري [3]، وأبو البقاء العكبري [4]، والخوارزمي [5]، وابن جمعة الموصلي [6]، والمالقي [7]، والمرادي [8]، والسيوطي [9]، وغيرهم [10].

١٣- "يا" النداء:

يجمع النحويون على أمية "يا" في النداء، وأصالتها في بابها، وقد صرح بأميتها عدد منهم غير قليل، يقول الرماني: ""يا" وهي من حروف النداء، وهي أم حروفه"[11].

ويقول الحريري: "وحروف النداء خمسة: "يا"، و"أيا"، و"هَيَا"، والهمزة، و"أيْ"، و"يا" أم الباب"[12].

---

(١) أسرار العربية ٢٧٢.

(٢) شرح المفصل ٨/٩٠.

(٣) انظر: شرح ملحة الإعراب ٢٩٧.

(٤) انظر: اللباب في علل البناء والإعراب ٢٧٦.

(٥) انظر: التخمير ٤/٧٦.

(٦) انظر: شرح ألفية ابن معطٍ ٧٧٦/١.

(٧) انظر: رصف المباني ٤٧٣.

(٨) انظر: الجنى الداني ١٨٨.

(٩) انظر: الأشباه والنظائر ٣/٢١٤.

(١٠) انظر: مقال "خصائص أمهات الأبواب النحوية" ص١٦٤، والأمهات في الأبواب النحوية ٢٤١.

(١١) معاني الحروف ٩٢.

(١٢) شرح ملحة الإعراب ٢٥٠.

ويقول ابن يعيش: "وأصل حروف النداء "يا"؛ لأنها دائرةٌ في جميع وجوده، لأنها تستعمل للقريب والبعيد، والمستيقظ والنائم، والغافل والمقبل. ... فلما كانت تدور فيه هذا الدوران كانت لأجل ذلك أمَّ الباب، والأصل في حروف النداء"[1].

وعلى هذا جعلها جمعٌ من النحويين أعم حروف النداء وأهمها، منهم: أبو علي الشلوبين [2]، وابن الحاجب [3]، وابن جمعة الموصلي [4]، والمالقي [5]، والمرادي [6]، وابن هشام [7]، والشاطبي [8]، والأزهري [9].

* * *

---

(١) شرح المفصل ٨/ ١١٨.

(٢) انظر: التوطئة ٢٨٨.

(٣) انظر: الكافية ٢٢٨.

(٤) انظر: شرح ألفية ابن معطٍ ٢/ ١٠٣٤.

(٥) انظر: رصف المباني ٥١٣.

(٦) انظر: الجنى الداني ٣٤٩.

(٧) انظر: مغني اللبيب ٤/ ٤٤٨.

(٨) انظر: المقاصد الشافية ٥/ ٢٣٤.

(٩) انظر: التصريح ٢/ ٢٠٦.

المبحث الأوّل: خاصة التأثير الإعرابي

يقصد بالتأثير الإعرابي أثره الإيجابي والسلبي. فكما توجد الأداة ويكون لها تأثير إعرابي معين. فقد توجد ولا يكون لها أثر إعرابي. وقد يكون لها أكثر من أثر إعرابي واحد، على خلاف أخواتها. وقد يكون الأثر موجودًا بوجودها، كما يكون موجودًا وهي غير موجودة، ولا تكون هذه التنويعات الإعرابية المختلفة إلا للأصول في بابها، ولا يغيب عنا أن هذه الآثار الإعرابية المختلفة بالإيجاب والسلب ليست صلاحيات عارية عن الأهداف اللغوية، لكنها صلاحيات مؤثرة في الشكل والمضمون.

النوع الأول: التأثير بأكثر من وجه إعرابي:

ويشترك فيه: "إلا" في الاستثناء، و"أنْ" الناصبة، و"إنّ" المشددة، و"ما" النافية العاملة عمل "ليس".

١- "إلا في الاستثناء:

على الرغم من عدم تسمية الباب بها، فإنها -لاشك- هي "أم" الباب؛ لأن معظم الأحكام التركيبية المتنوعة -في باب الاستثناء ومنها الإعراب- خاص بها، فهي تنفرد بأحكام إعرابية أكثر من أخواتها، ومنها:

أ- أخذ المستثنى بعدها علاماتٍ متعددة: وذلك حسب تمام السياق ونقصانه، وحسب توافق المستثنى والمستثنى منه في النوع، وحسب موقع "إلا" في السياق، متقدمة على المستثنى أو متأخرة عنه، وليس ذلك لبقية أخواتها [١].

كما أن "إلا" هي التي يمكن أن يتكرر نظامها في السياق الواحد أكثر من مرة، وليس ذلك لغيرها، لذا فهي "أم" الباب لكل هذه الخواص اللغوية التي تنفرد بها.

إن اختلاف الإعراب على البدلية أو الاستثناء هو حكم خاص بـ"إلا" وحدها [٢]، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾ [٣]. قرئت: ﴿ امْرَأَتَكَ ﴾ [٤] بالنصب على الاستثناء، والرفع على البدلية من ﴿ أَحَدٌ ﴾ [٥].

---

(١) انظر: الكتاب ٢/ ٣٠٩ وما بعدها، ومعاني القرآن للأخفش ١/ ١١٥، والمقتضب ٢/ ٤٥.

(٢) انظر: معاني القرآن للأخفش ٢/ ٣٥٧، ومعاني القرآن وإعرابه ٣/ ٥٧، وإعراب القرآن ٢/ ٢٩٦، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤١٢.

(٣) سورة هود، من الآية (٨١).

(٤) انظر: السبعة ٣٣٨، والحجة ٣/ ٣٦٩، والكشف ١/ ٥٣٤، والحجة لابن خالويه ١٩٠، والنشر ٢/ ١١٨.

(٥) انظر: معاني القرآن ٢/ ٢٤، ومجاز القرآن ١/ ٢٩٥، ومعاني القرآن للأخفش ١/ ٣٥٧، وتفسير الطبري ١٢/ ٨٠، ومعاني القرآن وإعرابه ٣/ ٥٧، وإعراب القرآن ٢/ ٢٩٦، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤١٣، والوسيط

ومثل ذلك الحكم قوله تعالى: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾[1] برفع ﴿قَلِيلٌ﴾[2] على البدلية ونصبه على الاستثناء[3]، ولا يكون ذلك لغير "إلا".

ب- وقوعُها أداةَ حصرٍ مع حرف النفي السابق على الجملة، مثل:

١- "ما" و"إلا"، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[4].

٢- "لا" و"إلا"، كقوله تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾[5].

٣- "لن" و"إلا"، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[6].

٤- "إنْ" و"إلا"، كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[7].

٥- "لم" و"إلا"، كقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾[8].

والإعراب لما بعد "إلا" متوقف على موقعها الإعرابي في الجملة، كما في الآيات السابقة، فقد أخذ مواقع الرفع والنصب والجر.

كل ذلك من خواص "إلا" دون سواها من أخواتها، لذا فهي "أم" الباب وأصله.

٢/٣٨٤، وشرح التسهيل ٢/٢٦٦، وشرح الرضي القسم الأول ٢/٧٤٦، والجنى الداني ٤٧٦، ومغني اللبيب ٥/٢٤٠، ٦/٢٩١.

(١) سورة النساء، من الآية (٦٦).

(٢) انظر: السبعة ٢٣٥، وحجة القراءات لابن زنجلة ٢٠٦، والتيسير ٩٦، والكشف ١/٣٩٢، والعنوان ٨٤، والنشر ٢/٣١.

(٣) انظر: مجاز القرآن ١/١٣١، ومعاني القرآن وإعرابه ٢/٥٩، وإعراب القرآن ١/٤٦٨، ومشكل إعراب القرآن ١/١٩٦، وشرح الرضي القسم الأول ٢/٧٤٥، والجنى الداني ٤٧٦، ومغني اللبيب ١/٤٥٥، ٢/٤٦٠، ٦/٩٣.

(٤) سورة سبأ، من الآية (٢٨).

(٥) سورة الحشر، من الآية (٢٢).

(٦) سورة البقرة، من الآية (٨٠).

(٧) سورة إبراهيم، من الآية (١٠).

(٨) سورة يونس، من الآية (٤٥).

٢- "أنْ" الناصبة للمضارع:

الأصل في "أنْ" أن تنصب الفعل المضارع -كما هو الشأن في أخواتها- لكن نظرًا لأنها "أم" الباب، والأصل في النصب، فقد تفردت عنهن بأنها قد تؤثر تأثيرات إعرابية أخرى مثل: الجزم، أو الرفع. على خلاف أخواتها مثل: لن، إذن، كي، فلا تؤثر سوى النصب.

فمثال النصب بـ"لن"، قوله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا ﴾ [1].

ومثال "كي"، قوله تعالى: ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ [2].

ومثال "إذن"، قولك: إذن أكرمَك، في جواب من قال: أزورك.

ولـ"أنْ" مثل ذلك التأثير، كقوله تعالى: ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [3]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [4].

وهي تنفرد وحدها -دون أخواتها- بتأثير الجزم في الفعل المضارع [5]، كما في قول الشاعر:

أُحَاذِرُ أنْ تَعْلَمْ بها فتردَّها ... فَتَتْرُكَها ثِقْلًا عليَّ كما هِيا [6]

فجزم الفعل "تعلم" بـ"أنْ"، وظهرت علامته وهي السكون بدلًا من نصبه.

---

(١) سورة الحج، الآية (٣٧).

(٢) سورة الحشر (٧).

(٣) سورة البقرة، من الآية (١٨٤).

(٤) سورة البقرة، من الآية (٢٣٧).

(٥) نقله اللحياني عن بعض بني صباح من ضبة، وذكره أبو عبيدة، وبعض الكوفيين، وصرح ابن مالك أن سلمة أخبره عن الفراء عن الرؤاسي قال: «فصحاء العرب ينصبون بـ"أنْ" وأخواتها الفعل، ودونهم قوم يرفعون بها، ودونهم قوم يجزمون بها».

انظر: التسهيل ٢٢٩، وشرحه ٤/ ١٣، وتوضيح المقاصد ٤/ ١٨٥، والجنى الداني ٢٤٤، ومغني اللبيب ١/ ١٧٩.

(٦) البيت لجميل بثينة في ديوانه ٢٢٤، وشرح شواهد المغني ١/ ٩٨.

وغير منسوب في شرح التسهيل ٤/ ١٣، ومغني اللبيب ١/ ١٨٠، وهمع الهوامع ٤/ ٩١، وشرح الأشموني ٣/ ٢٨٥، ورواية الديوان: "أخاف إذا أنبأتها أن تضيعها".

ذكر ابن هشام أن تسكين الفعل بعد "أنْ" هنا ضرورة شعرية، واستدل على ذلك بمجيء الفعل المعطوف عليه "فتتركها" منصوبًا، ولو كانت جازمة لجاء الفعلان مجزومين [١].

ومن الجزم بـ"أنْ" أيضًا قول الشاعر:

إذا ما غدونا قال ولدان أهلنا تعالَوا -إلى أنْ يأتِنا الصَّيدُ- نَحْطِبُ[٢]

حيث جزم الفعل المضارع "يأتنا" بـ"أنْ".

وقد يقال إنَّ "أنْ" لم تجزم الفعل المضارع بعدها، إنما جاء منصوبًا على الأصل، وكل ما حصل هو أن الشاعر اضطر إلى حذف الحركة (الفتحة)، لدواعي الوزن فحذفها فسكن؛ لأن السكون في الأساس عدم الحركة -كما هو معلوم-، وهذا ما ذهب إليه ابن هشام في المغني.

فأقول: إن الذي يعنيني هنا أن الفعل قد يرد بعدها ساكنًا ومحذوف الحركة، أو محذوف حرف العلة -لدواعي الوزن-، وهذا ما وجدته خاصًا بـ"أنْ" دون سائر أخواتها الناصبات.

كما تنفرد بتأثير الرفع، أي أن الفعل المضارع بعدها يكون مرفوعًا [٣].

وقد يقال أيضًا: إنَّ "أنْ" لم تؤثر في الفعل بعدها الرفع؟ فأقول: إن الذي يعنيني هنا أن الفعل لم يأت بعدها منصوبًا، وذلك كما في قراءة ابن محيصن برفع ﴿ يُتِمُّ ﴾ [٤] في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمُّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [٥].

---

(١) انظر: مغني اللبيب ١٨١/١.

(٢) البيت لامرئ القيس في ديوانه ٥٣، وشرح أبيات المغني ١٢٨/١.
وغير منسوب في الجنى الداني ٢٤٤، ومغني اللبيب ١٨٠/١، وشرح الأشموني ٢٨٤/٣.
ورواية المحتسب ٢/٢٩٥: "إلى أن يأتي الصيد". ولا شاهد فيه حينئذ.

(٣) انظر: معاني القرآن للأخفش ٤٢٧/٢، مجالس ثعلب ٣٢٢/١، والخصائص ٣٩٠/١، والمفصل ٣١٤، والإنصاف ٥٥٠، وشرح المفصل ١٥/٧، وشرح الكافية الشافية ١٥٢٧/٣، وشرح الرضي القسم الثاني ٨٣٥/٢، والجنى الداني ٢٣٩، وتوضيح المقاصد ١٨٧/٤، ومغني اللبيب ١٨١/١، ١٨٤.

(٤) اشتهرت نسبة هذه القراءة لابن محيصن، وإلا فقد قرأ بها ابن عباس -رضي الله عنهما- ومجاهد.
انظر: الكشاف ٣٧٠/١، والمفصل ٤٠٧، وشرحه ١٤٣/٨، والبحر المحيط ٢١٣/٢، والدر المصون ٤٦٣/٢، ومغني اللبيب ١٨٢/١، ٩٧/٦.

(٥) سورة البقرة، من الآية (٢٣٣).

ولا يمكن أنْ يقال هنا: إنّ الضرورة هي التي جاءت بالفعل مرفوعًا بعد أن كان منصوبًا. وكما في قول الشاعر:

أيا صاحبيّ فدَتْ نفسي نفوسَكما ... وحيثُما كنتما لاقيتما رَشَدا
أنْ تقرآنِ على أسماءَ وَيْحَكُمَا ... مني السلامَ وأنْ لا تُشعِرا أحَدًا [1]

فجاء الفعل "تقرآن" مرفوعًا بعد "أنْ" ولم تنصب المضارع بعدها. وقد قال الكوفيون -خلافًا لمنهجهم-: إنّ "أنْ" هنا ليست الناصبة للمضارع، بل هي المخفّفة من الثقيلة [2]. ويرد ذلك أنها لو كانت المخفّفة من "أنّ" لوجب أن تأتي مفصولة من خبرها بفاصل من الفواصل المميّزة لها، مثل: السين، أو "سوف"، أو "قد"، أو "لو" [3].

وكان ابن هشام قد رجح رأي البصريين في أن "أنْ" في "تقرآن" قد أُهملت وجاء الفعل بعدها مرفوعًا بثبوت النون، حملًا لـ"أنْ" المصدرية على "ما" المصدرية التي لا تعمل شيئًا، بخلاف رفع المضارع بعد "أنْ" المدغمة في "لا" في قول الشاعر:

ولا تَدْفِنَنِّي في الفلاةِ فإنني ... أخافُ إذا ما مِتُّ ألا أذوقُها [4]

فـ"أنْ" في هذا البيت هي المخففة من الثقيلة؛ لأنها واقعة بعد ما يفيد العلم، وهو الفعل "أخاف"، الذي هو بمعنى اليقين [5].

---

(1) البيت مجهول قائله، انظر: الخصائص ٣٩٠/١، وسر صناعة الإعراب ٥٤٩/٢، والمفصل ٣١٥، والإنصاف ٤٥١، وشرح المفصل ١٥/٧، وشرح الرضي القسم الثاني ٨٣٥/٢، والجنى الداني ٢٢٨، والمقاصد النحوية ٣٤٥/٣.

(2) انظر: معاني القرآن ١٤٦/١، وشرح المفصل ١٤٤/٨، وشرح الرضي القسم الثاني ٨٣٥/٢، وتوضيح المقاصد ١١٧/٤، والجنى الداني ٢٣٩، والبحر المحيط ٢١٣/٢، ومغني اللبيب ١٨٣/١، وشرح شواهد المغني ١٠١/١.

(3) انظر: الكتاب ١٦٥/٣-١٦٧، وشرح التسهيل ٤٢/٢، وتوضيح المقاصد ٣٥٤/١، وشرح ابن عقيل ٣٨٦/١، وهمع الهوامع ١٨٦/٢.

(4) البيت لأبي محجن الثقفي في معاني القرآن ٢٦٥/١، والأمالي الشجرية ٢٥٣/١، والمقاصد النحوية ٣٤٦/٣، وهمع الهوامع ٨٩/٤، وشرح شواهد المغني ١٠١/١، وشرح أبيات المغني ١٣٩/١.
وغير منسوب في مغني اللبيب ١٨٤/١، وشرح الأشموني ٢٨٣/٣.

(5) انظر: مغني اللبيب ١٨٤/١.

والحق: أنه لا داعي لصرف النص عن ظاهره وهو أن تكون "أنْ" بطل تأثيرها.

٣- "إنْ" الشرطية:

وتجزم فعلين -كبقية أخواتها-. تقول: إنْ تذاكرْ تفزْ بالنجاح. وتختص بأنها قد يرتفع الجزاء بعدها؛ مما يعني أنها لم تعمل فيه شيئًا. وحتى لو قيل إن المعنى على التقديم والتأخير -كما هو رأي سيبويه- فإنها لم تعمل فيه شيئًا.

يقول سيبويه: "وقد تقول: إنْ أتيتني آتيك، أي: آتيك إن أتيتني".

وإنْ أتاهُ خليلٌ يومَ مسألةٍ ... يقولُ لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ [1]

ولا يحسُن: إن تأتني آتيك، من قبل أنّ "إنْ" هي العاملة. وقد جاء في الشعر. قال جرير بن عبدالله البجلي:

يا أقْرَعُ بنَ حابسٍ يا أقرعُ ... إنّكَ إنْ يُصْرعْ أخوكَ تُصْرعُ [2]

أي: إنك تصرع إن يصرع أخوك [3].

وهذا وإن كان وروده في الشعر الذي هو محل الضرورات التي تخالف القاعدة العامة، إلا أن هذه الضرورة جاءت مع "إنْ" دون غيرها.

وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [4]. في قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي [5]: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ بتشديد الراء وضمها، على أنها جواب الشرط مرفوع [6].

---

(١) البيت لزهير في ديوانه ٨٢. والكتاب ٣/ ٦٦. والمقتضب ٢/ ٦٨. وإعراب القرآن ٢/ ٥. والإنصاف ٤٩٧. وشرح المفصل ٨/ ١٥٧. ورصف المباني ١٨٧. ومغني اللبيب ٥/ ٢١٧. والمقاصد النحوية ٣/ ٣٩١.

(٢) انظر: الكتاب ٣/ ٦٧. والمقتضب ٢/ ٧٠. وإعراب القرآن ١/ ٤٠٤، ٢/ ٥. والإنصاف ٤٩٦. ومغني اللبيب ٦/ ٩٨. والمقاصد النحوية ٣/ ٣٩٣. وشرح شواهد المغني ٢/ ٨٩٧.

(٣) الكتاب ٣/ ٦٦، ٦٧. وانظر: إعراب القرآن ١/ ٤٠٤. وشرح التسهيل ٤/ ٧٨. ومغني اللبيب ٩٧. وشرح الأشموني ٤/ ١٧.

(٤) سورة آل عمران، من الآية (١٢٠).

(٥) وقراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو: ﴿يضِرْكم﴾، من ضار يضير. انظر: السبعة ٢١٥. والحجة ٣/ ٧٤. والكشف ١/ ٣٥٥. وحجة القراءات ١٧١. والعنوان ٨٠. والنشر ٢/ ٢٤٢.

(٦) انظر: معاني القرآن ١/ ٢٣٢. وإعراب القرآن ١/ ٤٠٤. ومشكل إعراب القرآن ١/ ١٥٥. والبيان ١/ ٢١٧. والتبيان ١/ ٢٨٩. ومغني اللبيب ٦/ ٩٧.

ومهما يكن، فسواء أكانت "إنْ" غير عاملة في الجواب، أم أنها عملت فيه الرفع، أو أنه ارتفع لما كان على تقدير تقدمه على "إنْ" فإن جوابها جاء مرفوعًا.

وقد تهمل فلا تعمل في الشرط، وشاهد ذلك قوله ﷺ: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإنك إنْ لا تراه فإنه يراك)[1]، حيث أُهملت "إنْ" ولم تَجزم المضارع "تراه" [2].

٤- "إنَّ" المؤكدة المشدَّدة:

تنصب "إنَّ" المبتدأ اسمًا لها، وترفع الخبر خبرًا لها -كبقية أخواتها-، وهذا هو المشهور في استعمالها، ولكن توجد نصوصٌ كثيرة تعدد فيها أثرها الإعرابي، منها:

أ- رفع المبتدأ والخبر بعدها [3]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا ﴾[4] في قراءة ابن عامر ونافع وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بتشديد النون: ﴿ إِنَّ ﴾ و﴿ هَٰذَٰنِ ﴾ بالألف، وقراءة حفص عن عاصم وابن كثير: ﴿ إِنْ ﴾ بتخفيف النون، و﴿ هَٰذَٰنِ ﴾ بالألف [5]، وهذه لا إشكال فيها، فغالبًا ما تُهمل "إنْ" المكسورة الهمزة المخفَّفة، ويرفع بعدها المبتدأ والخبر، خاصة إذا جاءت اللام في خبرها، كما في هذه الآية.

ورفع المبتدأ والخبر بعد "إنَّ" المشددة جرت عليه مناقشات كثيرة في مسوّغ وجه رفع الاسم والخبر بعدها، فقيل:

١- إنها لغة لبعض قبائل العرب في إلزام المثنى الألف دائمًا، ومن هذه الأحياء: بنو الحارث بن كعب، وكنانة، وخثعم، وزبيد، وما جاورها من قبائل اليمن، وبعض بطون

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان (١)، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله (٢)، برقم (٩٧)، ٣٠/١.

(٢) انظر شرح التسهيل ٨٢/٤.

(٣) انظر: المقتضب ٣٦١/٢، ومعاني القرآن وإعرابه ٢٩٤/٣، وإعراب القرآن ٤٣/٣.

(٤) سورة طه، من الآية (٦٣).

(٥) انظر: السبعة ٤١٩، والغاية ٣٢٢، وحجة القراءات ٤٥٤، والكشف ٩٩/٢، والعنوان ١٢٩، والنشر ٣٢/٣.

ربيعة، وغيرهم كثير، يجعلون المثنى بالألف دائمًا رفعًا ونصبًا وجرًا، يقولون: أتاني الزيدان ورأيت الزيدان ومررت بالزيدان [1]، ومن الشواهد على هذه اللغة قول الشاعر:

إن أبَاهَا وأبَا أبَاهَا ... قَدْ بَلَغَا فِي المَجْدِ غَايَتَاهَا [2]

وقول الآخر:

تَزوّدَ منا بين أذْناه ضَرْبَةً ... دَعتْهُ إلى هابي التراب عَقيمُ [3]

وحكى الفراء عنهم: "هذا خطُّ يدا أخي بعينه"[4]، وحكى الزجاج: "من يشتري مني الخفان"[5].

٢- إنها حرف جواب بمعنى "نعم"، وفي الكتاب [6]: "وأما قول العرب في الجواب: "إنه" فهو بمنزلة أجل، وإذا وصلت قلت: إنّ يا فتى، وهي التي بمنزلة أجل".

---

(١) انظر: معاني القرآن ٢/١٨٤، ومعاني القرآن للأخفش ١/١١٣، ١٠٨، ومعاني القرآن وإعرابه ٣/٢٩٥، وإعراب القرآن ٣/٤٥، ومشكل إعراب القرآن ٢/٦٨، والإنصاف ٢٩، والتبيان ٢/٨٩٥، وشرح المفصل ٣/١٢٨، ١٣٠، وشرح الكافية الشافية ١/١٨٨، وشرح التسهيل ١/٦٢، ورصف المباني ١١٧، ٣١١.

(٢) البيت لرؤبة في ملحق ديوانه ١٦٨، ولأبي النجم العجلي في ديوانه ٢٢٧، ومنسوب إليهما في المقاصد النحوية ١/٨٠.

وغير منسوب في سر صناعة الإعراب ٢/٧٠٤، وشرح المفصل ٣/١٢٩، وشرح الألفية لابن الناظم ٣٩، وتوضيح المقاصد ١/٧٥.

(٣) البيت منسوب إلى هوبر الحارثي في لسان العرب مادة "صرع" ٨/١٩٧، ومادة "شظي" ١٤/٤٣٤، ومادة "هبا" ١٥/٣٥١.

وغير منسوب في سر صناعة الإعراب ٢/٧٠٤، وشرح المفصل ٣/١٢٨، وشرح التسهيل ١/٦٣، وشذور الذهب ٤٧، وهمع الهوامع ١/١٣٤.

والهباء: هو التراب الذي تطيره الريح، فتراه على وجوه الناس وجلودهم وثيابهم يلزق لزوقًا، انظر مادة "هبا" في لسان العرب ١٥/٣٥١.

(٤) انظر: معاني القرآن ٢/١٨٤، وتفسير الطبري ١٦/١٨٠.

(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه ٣/٢٩٥.

(٦) انظر: ٣/١٥١، ٤/١٦٢، ومعاني القرآن وإعرابه ٣/٢٩٥، وإعراب القرآن ٣/٤٤، ومشكل إعراب القرآن ٢/٧٠.

ومن ذلك قول الشاعر:

بَكَرَ العواذلُ في الصَّبو ... ح يَلُمْنَنِي وأَلُومُهُنَّهْ
ويقُلْنَ: شَيْبٌ قد علا ... كَ وقد كَبِرتَ، فقلتُ: إنَّهْ [١]

٣- إن الألف في "هذان" هي الألف في "هذا". وحذفت ألف الاثنين لالتقاء الساكنين، فبقيت على حال واحدة في الرفع والنصب والجر، ولو بقيت لانقلبت إلى ياء نصبًا وجرًا [٢].

٤- ما ذكره الفراء من أن الألف من "هذا" دعامة، وليست بلام الفعل، وعند التثنية زيدت عليها النون، وتركت الألف ثابتة على أصلها، كما فعلوا في "الذي" زيدت نون على الياء لتدل على الجمع، فقيل "الذين" في الرفع والنصب والجر، وكذلك "هذان" [٣].

٥- إن "هذان" صيغة مرتَجَلة مستعملة للمثنى، مبنية كالمفرد والجمع [٤].

وهذه الأقوال الكثيرة المختلفة تحاول جاهدة تعليل رفع الاسم بعد "إنّ"، والأمر أهون من ذلك، فإن الأخذ بالقول إنها لغة لمن يلزم المثنى الألف قد يكون كافيًا شافيًا، وقد جعله الزجاج راجحًا على ما سواه من الأقوال المتقدمة [٥].

لكن يبقى سؤال: لماذا "إنّ"؟ ولماذا هي دون سائر أخواتها؟ والجواب سهل ميسور، لأنها "أمُّ" الباب وأصله، ويجري فيها من التصرفات ما لا يجري في أخواتها الأخريات.

---

(١) البيت لعبدالله بن قيس الرقيات في ديوانه ٦٦، وإعراب القرآن ٣/ ٤٥، والأمالي الشجرية ١/ ٣٢٢، وخزانة الأدب ١٠/ ٢١٣، ٢١٦.

وغير منسوب في الكتاب ٣/ ١٥١، ٤/ ١٦٢، ومعاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٩٥، والبيان ٢/ ١٤٥، وشرح المفصل ٣/ ١٣٠، ٨/ ٦، ١٢٥، والجنى الداني ٣٨٤.

(٢) انظر: مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٠، وشذور الذهب ٤٩، والتصريح ١/ ١٤٣.

(٣) انظر: معاني القرآن ٢/ ١٨٤، وتفسير الطبري ١٦/ ١٨٠، ١٨١، وإعراب القرآن ٣/ ٤٥، وحجة القراءات ٤٥٦، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٠، والمحرر الوجيز ٦/ ١٠٨، والبيان ٢/ ١٤٦.

(٤) انظر: أمالي ابن الحاجب ١/ ٦٢، والتصريح ١/ ١٤٣.

(٥) عنده أن أجود الأقوال أن تكون "إنّ" بمعنى "نعم"، يلي ذلك أن تكون جاءت على لغة كنانة وبعض أحياء العرب.

انظر: معاني القرآن وإعرابه ٢/ ٢٩٦، وإعراب القرآن ٣/ ٤٦.

ب – نصب المبتدأ والخبر معًا بعدها: ورد في لغات بعض العرب نصب المبتدأ والخبر بـ"إنّ"[1]، وعلى ذلك الأثر: (إن قعرَ جهنمَ لَسبعين خريفًا)[2]. وقول الشاعر:

إذا اسْوَدَّ جُنحُ الليلِ فلتأتِ ولتَكُنْ ... خُطَاكَ خِفَافًا إنَّ حُرَّاسَنا أُسْدا[3]

وقول الآخر:

إن العَجـوزَ خِبَّـةً جَـروزا ... تأكـلُ فـي مَقْعَـدِها قَفِيـزا[4]

---

(1) انظر: التسهيل ٦١، وشرحه ٢/٩، والجنى الداني ٣٧٩، وهمع الهوامع ١/١٣، وشرح الأشموني ١/١٦٩، والدرر ١/١١٢، ونسب للفراء نصب "ليت" للجزءين، واستشهد على ذلك بقول العجاج في ملحقات ديوانه ٨٢، والدرر ٢/١٧٠:

يـا ليـت أيـام الـصبا رواجعـا ... .

وأجاز بعض الكوفيين نصبَ الأحرف الخمسة الجزءين، ونص كثير من العلماء على أنها لغة قوم من العرب، وعلى هذا فلا يكون لـ"إنّ" هذه الخاصة.

انظر: شرح التسهيل ٢/١٠، والجنى الداني ٣٧٩، وخزانة الأدب ١٠/٢٣٤–٢٤٥.

(٢) هذا الأثر من كلام أبي هريرة ﷺ، وهو مدرج في آخر حديث نبوي طويل، وقد جاء بلفظين: بالرفع "لسبعون"، وهو في بعض نسخ صحيح مسلم، كتاب الإيمان (١)، باب أدنى أهل الجنة منزلة (٨٣)، ١/١٣٠، وبالنصب "لسبعين"، وقد أحاله إلى مسلم بلفظ "لسبعين" جمعٌ من العلماء، منهم: أبو نُعيم في المستخرج برقم (٤٨٥)، ١/٢٧٠، والحميدي في الجمع بين الصحيحين برقم (٤٢٠)، ١/١٦٩، ورقم (٢٣٨٨)، ٣/١٤٤، والمنذري في الترغيب والترهيب برقم (٥٤٩٣)، ورقم (٥٣٠٨)، وابن الأثير في جامع الأصول برقم (٨٠١٧)، ١٠/٤٨٥، وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم ٣/٧٠–٧٢: «ووقع في معظم الأصول والروايات "لسبعين"».

وكذا في كتب النحو، انظر: شرح التسهيل ٢/٩، ومغني اللبيب ١/٢٢٨، وخزانة الأدب ١٠/٢٤٢.

(٣) البيت منسوب إلى عمر بن أبي ربيعة في الجنى الداني ٣٨٠، وشرح شواهد المغني (١/١٢٢)، ولم أعثر عليه في ديوانه.

وهو غير منسوب في النوادر في اللغة ١٧٢، وشرح التسهيل ٢/٩، ومغني اللبيب ١/٢٨٨، وهمع الهوامع ٢/١٥٦، وشرح الأشموني ١/٢٦٩، وخزانة الأدب ٤/١٦٧، ١٠/٢٤٢.

(٤) البيت لم أعثر على قائله، وهو في النوادر في اللغة ١٧٢، وشرح التسهيل ٢/٩، وهمع الهوامع ٢/١٥٦، والدرر ١/١٦٧.

والخبة: الخداعة، والجروز: كثيرة الأكل، انظر: مادة "خدع" و"جرز" في لسان العرب.

نصبت "إنّ" اسمها وخبرها في الشواهد السابقة.

فإذا كان يمكن تسويغ البيت الشعري الأول بضرورة القافية المنتهية بالألف فإن ذلك غير وارد في البيت الثاني، كما أن الأثر الوارد عن أبي هريرة ﷺ لا يحتاج إلى مسوّغ غير القول: إنها خاصة "إنّ" التي يأتي بعدها اسمها وخبرها على وجوه متعددة؛ لأنها الأصل، و"أم" الباب.

د – "ما" النافية:

ويكثر تصرفها في العمل، فتعمل في المعرفة مثل قوله تعالى: ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ﴾[2]، وتعمل في النكرة كقولك: ما في المدرسة كتاب، وما عندك ضيف، وتعمل –على الأرجح– مع تقدم خبرها على اسمها في الشعر كما عملت في النثر، ومن ذلك قول الفرزدق:

فأصْبَحُوا قد أعادَ اللهُ نِعْمَتَهم ... إذْ هم قريشٌ وإذْ ما مثلَهُم بَشَرُ[3]

ولذا أجمع النحويون على إعمالها عمل "ليس" في لغة الحجاز؛ كما في الآيات السابقة وبيت الفرزدق المتقدم، بخلاف بقية أخواتها فمختلف في إعمالها هذا العمل[4]، كما أنه لا يتقدم خبرها على اسمها مطلقًا.

٦ – "لم" الجازمة:

الأصل أنها حرف جزم كبقية أخواتها، ولكن قد يطرأ عليها أن يرتفع الفعل المضارع بعدها[1]، كما في قول الشاعر:

---

(١) سورة يوسف، من الآية (٣١).

(٢) سورة المجادلة، من الآية (٢).

(٣) البيت للفرزدق في ديوانه ١/١٨٥، والكتاب ١/٦٠، والمقتضب ٤/١٩١، وشرح التسهيل ١/٣٧٣، ورصف المباني ٣٧٩، والمقاصد النحوية ١/٥٤١، وخزانة الأدب ٤/١٣٣.

وغير منسوب في أسرار العربية ١٤٥، وشرح الأشموني ١/٢٤٨.

(٤) انظر: الكتاب ١/٥٧، ٥٩، ومعاني القرآن ٢/٤٢، والمقتضب ٤/١٩٠، ومعاني القرآن وإعرابه ٣/٨٧، ٥/١٠٦، وإعراب القرآن ٢/٣٢٧، ٤/٣٧٢، ومشكل إعراب القرآن ٢/٣٦٢، وشرح المفصل ١/١٠٨، وشرح التسهيل ١/٣٧٣، ٣٧٥–٣٧٩، وارتشاف الضرب ٢/١٠٣–١١٣.

ألــــم يأتِيــــكَ والأنبــــاءُ تَنْمِــــي   بمـــا لاقَـــتْ لَبُـــونُ بنـــي زيـــادِ [٢]

قال الفراء: "فأثبت في "يأتيك" الياء، وهي في موضع جزم لسكونها فجاز ذلك" [٣].

ومثله قول الآخر:

هَجَـوْتَ زبَّـانَ ثـم جِئْـتَ مُعْتـذِرًا   مِنْ سَبِّ زبَّانَ لم تهجو ولم تدع [٤]

حيث رفع الفعل المضارع "تهجو" ولم تؤثر فيه "لم"، وهذه خاصة لـ"لم" دون أخواتها مما يؤهلها لتكون "أمًا" لأخواتها.

ولو قيل إن الفعل جُزم بـ"لم" على الأصل فصار "تهج"، ثم اضطر الشاعر فأشبع الحركة (الضمة) فصارت واوًا "تهجو" على حد "الدراهيم" و"الصيارف" في قول الشاعر:

تَنْفِي يَدَاهَا الحصى في كلِّ هَاجِرةٍ   نفـي الـدراهيمِ تنقـادَ الـصياريفِ [٥]

لكان ذلك صوابًا، ولكن المهم هنا أن "لم" لم تؤثر الجزم في الظاهر كبقية أخواتها حروف الجزم.

٧- "مِنْ" الجارَّة:

تنفرد "مِنْ" الجارة -دون سائر أخواتها- بجر ظروف لا تتصرف، وهي: قبل وبعد وعند ولدى ولدن ومع. ويحكم عليها بعدم التصرف مع أنّ "مِنْ" دخلت عليها [٦]، إذ لم

---

(١) انظر: الكتاب ٣١٦/٣، ومعاني القرآن ١٦١/١، ١٨٧/٢، وإعراب القرآن ٥١/٣، وشرح التسهيل ٥٦/١.

(٢) البيت لقيس بن زهير في معاني القرآن ١٦١/١، ١٨٨/٢، ٢٣٣، وإعراب القرآن ٥١/٣، ٢٩٧/٤، والأمالي الشجرية ٨٥/١، والإنصاف ٢٢، وشرح المفصل ٢٤/٨، ١٠٤/١٠، وشرح التسهيل ٥٦/١.

وغير منسوب في الكتاب ٣١٦/٣، والإنصاف ٢٢.

(٣) معاني القرآن ١٨٨/٢، وانظر: الأمالي الشجرية ٨٥/١، والإنصاف ٢٢.

(٤) البيت غير منسوب في معاني القرآن ١٦٢/١، ١٨٨/٢، وإعراب القرآن ٥١/٣، والأمالي الشجرية ٨٥/١، والإنصاف ١٩، وشرح المفصل ١٠٤/١٠، وشرح التسهيل ٥٦/١، وشرح الرضي القسم الثاني ٨٢٢/٢.

(٥) البيت للفرزدق في الكتاب ٢٨/١، والتصريح ٦٩٨/٢، وخزانة الأدب ٤٢٤/٢، ٤٢٦، ولم أعثر عليه في ديوانه.

وغير منسوب في المقتضب ٢٥٦/٢، وشرح ابن عقيل ١٠٢/٢، وشرح الأشموني ٢٨٩/٢.

(٦) انظر: التسهيل ١٤٤، وشرحه ١٤٠/٣، وأوضح المسالك ٢١٠/٢، والمساعد ٢٥١/٢، وتمهيد القواعد ٢٩٠٦/٦، والتصريح ٥٢٦/١.

تخرج هذه الظروف إلا إلى حالة شبيهة بها؛ لأن الظرف والجار والمجرور من قبيل شبه الجملة. فهما أخوان في التوسع فيهما والتعلق بالاستقرار إذا وقعا خبرًا أو صفة أو صلة[1]، فإن جر شيء من الظروف بغير "مِنْ" كان متصرفًا[2].

ومن ذلك دخولها على بعض أخواتها -حروف الجر-، فتدخل على "عن" وعلى "على" فتكونا اسمين[3]، قال سيبويه: "أما الحروف التي تكون ظرفًا فنحو خلف وأمام ... و"على"؛ لأنك تقول: مِنْ عليك، كما تقول: من فوقك ... و"عن" أيضًا ظرف بمنزلة ذات اليمين والناحية، ألا ترى أنك تقول: من عن يمينك، كما تقول: من ناحية كذا وكذا"[4].

ويقول عن "على": "وهو اسم، ولا يكون إلا ظرفًا، ويدلك على أنه اسمٌ قول العرب: نهض من عليه، قال الشاعر:

غَدَتْ مِنْ عَلَيْهِ بَعْدَ مَا تَمَّ ظِمْؤُهَا ... تَصِلُّ وَعَنْ قَيْضٍ بِبَيْدَاءَ مَجْهَلِ[5]"[6]

هذا التميز بالتأثير أهّلها -أكثر من غيرها من حروف الجر- لتكون "أمًّا" لأخواتها الجارات.

ومن دخول "مِنْ" على "عَنْ" قول الشاعر:

ولقد أراني للرِّمَاح دَرِيئةً ... مِنْ عَنْ يميني مرةً وأمامي[7]

---

(1) انظر: أوضح المسالك ٢/ ٢١١، والتصريح ١/ ٥٢٧.

(2) انظر: التصريح ١/ ٥٢٧.

(3) انظر: الكتاب ١/ ٤٢٠، ٤/ ٢٣٠، ٢٣١، وحروف المعاني ٢٣، ٧٦، وشرح اللمع لابن برهان ١/ ١٦٦، والتسهيل ١٤٤، وشرحه ٣/ ١٤٠، وشرح الكافية الشافية ٢/ ٨١٠، ومغني اللبيب ٢/ ٤٠٥، وتمهيد القواعد ٦/ ٢٩٠٧.

(4) الكتاب ١/ ٤٢٠.

(5) البيت لمزاحم بن الحارث العقيلي في شرح المفصل ٨/ ٣٩، والتصريح ١/ ٦٦٠، وخزانة الأدب ١٠/ ١٤٧، ١٥٠. وغير منسوب في الكتاب ٤/ ٢٣١، وشرح اللمع لابن برهان ١/ ١٦٦، وشرح التسهيل ٣/ ١٤٠، والجنى الداني ٤٤١، ومغني اللبيب ٢/ ٣٨٥، والمساعد ٢/ ٢٥٢.

(6) الكتاب ٤/ ٢٣١.

(7) البيت لقطري بن الفجاءة في ديوانه ١٧١، وشرح اللمع لابن برهان ١/ ١٦٦، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٢٢٩، والتصريح ١/ ٦٦٠، وخزانة الأدب ١٠/ ١٥٨، ١٦٠، والدرر ٢/ ٢٧٠، ٤/ ١٨٥.

أي: من جانب شمالي.

النوع الثاني: بقاء التأثير الإعرابي مع حذف الأداة أو جزء منها [1]:

قد تحذف الأداة ويبقى عملها مثل "أنْ" الناصبة للمضارع، و"رب"، وقد تحذف هي أو جزء منها ويبقى عملها مثل "كان".

ولا يرد على ذلك مراعاة ذلك المحذوف أو المضمر في الدلالة والشكل لذلك المضمر، ووجود دليل عليه في الجملة؛ لأن المقصود: أن هذه الأداة قد أدت عملها الإعرابي، وأثرت فيما بعدها وهي غير موجودة في الجملة أو السياق، وهذا اللون خاص بهذه الأدوات دون سائر أخواتها؛ مما يدل على أحقيتهن بأمية الباب.

١- "أنْ" المصدرية:

وتعد "أم" الباب؛ لأن أثرها الإعرابي لا يتوقف على وجودها قبل الفعل المضارع، بل تعمل وهي محذوفة أيضًا، وجوبًا أو جوازًا، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ [2]، فتقدر "أنْ" المصدرية بعد الفاء ناصبة للفعل المضارع "أفوز"، ولا يكون ذلك إلا لها، وهذا أحد آثار خصوصيتها في الكلام، ولونٌ من التعبير لا يوجد في أخواتها [3].

٢- "كان":

تحذف ويبقى أثرها الإعرابي في السياق، كما في قولهم: "أما أنت منطلقًا انطلقت" [4]، والأصل: أنْ كنت منطلقًا انطلقت: حذفت "كان" فانفصل الضمير -التاء اسمها- فصار: أنْ أنت منطلقًا انطلقت، ثم زيدت "ما" تعويضًا عن "كان" المحذوفة، ثم أدغمت النون من "أنْ" في "ما" خطا كما أدغمت نطقًا فصارت: أما أنت منطلقًا انطلقت.

وغير منسوب في شرح التسهيل ٣/١٤٠، ومغني اللبيب ٢/٤٠٥.

(١) سيأتي الحديث مفصلًا عن قضية الحذف مع بقاء العمل في الخاصة الثانية وهي خاصة الحذف.

(٢) سورة النساء، من الآية (٧٣).

(٣) انظر: الكتاب ٣/٥-٨، ١٧، ٢٨-٥٢، ومعاني القرآن للأخفش ١/٥٨، ٦٦.

(٤) انظر: الكتاب ١/٢٩٣، ٢/١٢٩، ٣/٧، و١٤٩، ١٥٠، والخصائص ٢/٣٨٠، والإنصاف ٦٦، وشرح التسهيل ١/٣٦٥، وتوضيح المقاصد ١/٣١٠.

وقد تُحذف النون من "كان" ويبقى عملها، ولا يؤثر في اسمها وخبرها [1]. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [2]. وقوله تعالى: ﴿ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [3]. وقد ورد حذف النون من مضارع كان كثيرًا في القرآن الكريم.

النوع الثالث: إهمال التأثير الإعرابي:

قد لا يفيد الفعل أو الأداة أثرًا إعرابيًا، ويكون ضمه في الجملة لإفادة وظيفة زمنية أو غيرها مما يكتسبه من السياق، ويدعو إليه غير وظيفة الإعراب. ويجري ذلك في مجيء بعض الأمهات زائدة.

١- زيادة "كان":

تزاد بين النعت والمنعوت كقولك: جاء رجل -كان- طويل، وبين "نعم" ومرفوعها، مثل: نعم -كان- القائد زيد [4].

ومثل ذلك زيادة "كان" بين الضميمتين المتلازمتين؛ كالمبتدأ والخبر، وحينئذ لا تطلب "كان" من معمولاتها ما كانت تطلبه لو لم تكن زائدة؛ مثل زيادتها بين "ما" وفعل التعجب، أو بين المبتدأ والخبر، أو بين الصفة والموصوف، مثل: ما -كان- أحسن زيدًا في تقواه وبره، وزيد -كان- مسافر، وجاء رجل -كان- طويل، كما تزاد بين الفعل والفاعل أو نائب الفاعل مثل قولهم: لم يوجد -كان- أفضل منهم، أو بين الجار والمجرور، كما في قول الشاعر:

سَرَاةُ بني أبي بكرٍ تَسامى   على -كان- المُسَوَّمَةِ العِرابِ [5]

---

(١) انظر: الكتاب ١/٢٥، ٢٦٦، والمقتضب ٣/١٦٧، ومعاني القرآن وإعرابه ٢/٤٢، ٣/١٨١، وشرح التسهيل ١/٣٦٦، وتوضيح المقاصد ١/٣١١.

(٢) سورة الأنفال، من الآية (٥٣).

(٣) سورة التوبة، من الآية (٧٤).

(٤) انظر: الكتاب ٢/١٥٣، والمقتضب ٤/١١٦، ١١٧، وسر صناعة الإعراب ١/٢٩٨، وشرح المفصل ٧/٩٨، وشرح التسهيل ١/٣٦٠-٣٦٢.

(٥) البيت غير منسوب في سر صناعة الإعراب ١/٢٩٨، وأسرار العربية ١٣٧، وشرح المفصل ٧/٩٨، ورصف المباني ٢١٨، ٢٩٢، وارتشاف الضرب ٢/٩٦، وأوضح المسالك ١/٢٢٧، والمقاصد النحوية ١/٤٢٠، وشرح الأشموني ١/١٩٨.

٢- زيادة "إلا" في الاستثناء:

وكذا الأمر في زيادة "إلا" لغير توكيد [١]. كما في قول الشاعر:

حَـراجِيجُ مـا تنفـك إلا مُناخَـةً   على الخَسْف أو تَرْمِي بها بَلَدًا قَفْرا[٢]

قالوا: التقدير: ما تنفك مناخة، و"إلا" زائدة؛ لأن ما زال وأخواتها لا تدخل "إلا" على خبرها، لأن نفيها إيجاب؛ فلا وجه لدخول "إلا" [٣].

٣- زيادة "مِنْ" الجارة:

لإفادة توكيد الاستغراق، وهي الداخلة على الأسماء الدالة على العموم من النكرات المختصة بالنفي، مثل: ما قام من أحد، ومن قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [٤]، وزيادتها لقصد التوكيد، وإلا فدخولها كخروجها، وقد تكون لمجرد نفي الجنس لا استغراقه، مثل: ما جاءني من رجلٍ[٥].

ويجري الإهمال في أمهات أخرى [٦].

* * *

---

(١) انظر: معاني القرآن ٣/ ٢٨١، والمحتسب ١/ ٣٢٩، ومغني اللبيب ١/ ٤٧٥، وشرحه للدماميني ٣٠٤.

(٢) البيت لذي الرمة في ديوانه ٢٤٠، وفي الكتاب ٣/ ٤٨، ومعاني القرآن ٣/ ٢٨١، والمحتسب ١/ ٣٢٩، وشرح التسهيل ١/ ٣٥٧.

وغير منسوب في أسرار العربية ١٤٢، والإنصاف ١٣٦، والجنى الداني ٤٨٠، ومغني اللبيب ١/ ٤٧٥.

والحراجيج: جمع مفرده حرجوج وهي الناقة السمينة الطويلة، والمعنى أنها لا تنفك عن السير إلا في حال إناختها، وفي معاني القرآن: قلائص مكان حراجيج. انظر: اللسان مادة "حرج".

(٣) انظر: معاني القرآن ٣/ ٢٨١، وأسرار العربية ١٤٢، والإنصاف ١٣٥، وشرح التسهيل ١/ ٣٥٧، والجنى الداني ٤٨١، والبحر المحيط ١/ ٤٨٣، ومغني اللبيب ١/ ٤٧٥-٤٨٠، وشرح الأشموني ١/ ٢٤٦.

(٤) سورة المائدة، من الآية (٧٣).

(٥) انظر: شرح المفصل ٨/ ١٣، وشرح الشافية الكافية ٢/ ٧٩٧، ورصف المباني ٣٨٩، والجنى الداني ٣٢٠، وأوضح المسالك ٣/ ٢١.

(٦) سيأتي الحديث عنها في المبحث الرابع.

المبحث الثاني: خاصة الحذف

تعمل بعض الأدوات النحوية -الفعلية والحرفية- وهي محذوفة، ولا حذف في السياق النحوي إلا مع وجود دليل يدل على المحذوف، وإلا كان رجمًا بالغيب، وإهدارًا للقاعدة، وضياعًا للغة، وإذا وجد ما يدل على هذا المحذوف كان ما يحذف من الأدوات مع وجود معناه، وتأثيره الإعرابي أولى وأكثر أصالة مما لا يمكن حذفه.

وإذا خص ذلك ببعض الأدوات دون سائر أخواتها دل على أصالتها، وكونها "أمًّا" لأخواتها في الباب، ومن ذلك:

١- حذف "أنْ" الناصبة للفعل المضارع:

لا يسمح بالقول بالحذف للأداة الناصبة للفعل لغير "أنْ"، وهي ما أسماه النحاة البصريون: مواضع إضمار "أنْ" المصدرية وجوبًا أو جوازًا، وحلول أداة غيرها محلها عوضًا عنها، ودليلًا عليها [١].

وإذا كان النحاة الكوفيون -انطلاقًا من منهجهم الوصفي- قد آثروا أن يجعلوا النصب للمضارع بالحروف السابقة على الفعل؛ لا بـ"أنْ" المضمرة [٢]، فإن ذلك لا يمنع من احترام وجهة النظر البصرية أيضًا، مادام البناء اللغوي سيأخذ -عند افتراض إضمارها- مسارًا آخر، وهو التحول إلى المركب الأصلي الاسمي، وهو ما أسموه: عطف المصدر المتوهَّم على المصدر المتخيَّل، ومعناه أن النحويين البصريين يحولون "أنْ" والجملة الفعلية بعدها إلى مصدر معطوف على مصدر متصيَّد من الكلام السابق على "أنْ" والجملة الفعلية بعدها، ويكون من باب عطف المصدر على المصدر، أو عطف الاسم على

---

(١) انظر: الكتاب ٣/٦-٥٢، والمقتضب ٢/٦، ٧، ١٣، ٢٧، والأصول ٢/١٥٣، والمقتصد في شرح الإيضاح ١٠٥٨-١٠٨٩، وارتشاف الضرب ٢/٤٠٧، وتوضيح المقاصد ٣/٢٠٨، والجنى الداني ١٢٩، ١٨٧، والمساعد ٣/٨٤، وهمع الهوامع ٤/١٣٠، ١١٧.

(٢) انظر: الإنصاف ٥٤٤، وارتشاف الضرب ٢/٤٠٧، وتوضيح المقاصد ٤/ ٢٠٨، والجنى الداني ١٢٩، ١٨٧، والمساعد ٣/ ٨٤، وهمع الهوامع ٤/١١٧، ١٣٠.

الاسم[1]، ففي قوله تعالى: ﴿ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾[2]، وتقدير المصدرين على النحو التالي: ليكن منكم قتال ثم فيء منهم.

والذي دفع نحاة البصرة إلى هذا التكوين اللغوي هو جعل ما بعدها موافقًا لما قبلها، ولما كانت "أنْ" مصدرية –أي: تحوّل الجملة الفعلية إلى مصدر–، كان لابد من تخيل أو توهم مصدر سابق؛ لأن الحروف التي تنوب عنها وتدل عليها –وهي الواو، والفاء، وأو، وثمّ– هي في الأصل حروف عطف، ولما كان التوحد في الصيغة بين المتعاطفين مطلوبًا، أدى ذلك إلى تقدير مصدر سابق على تركيب "أنْ" وجملتها اللغوية [3].

وقد يضطر النحاة إلى تخريج إعرابي على وجه سائغ فيقدرون حذف "أنْ" مع بقاء عملها النصب في الفعل المضارع، كما في قول الشاعر:

فلَـمْ أرَ مثلهـا خُبَاسَـةَ واحـدٍ ... ونَهْنَهْتُ نفسي بعدما كِدْتُ أفْعَلَهَ[4]

أي: كِدتُ أنْ أفعله.

قال سيبويه: "فحملوه على "أنْ"؛ لأن الشعراء قد يستعملون "أنْ" ههنا مضطرين كثيرًا [5]، أي في خبر "كاد". ولا تدخل "أنْ" في خبرها إلا ضرورة"[6].

وإذا جاز النصب بـ"أنْ" وهي محذوفة، فإنه يجوز الرفع بها وهي محذوفة أيضًا، وجعل سيبويه من ذلك رفع ﴿ أَعۡبُدُ ﴾ من قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴾[7]، على أنّ التقدير: تأمرونِ أن أعبد، وقال الشاعر:

---

(1) انظر: الكتاب ٣/ ٦، ٧، ١٥٢.

(2) سورة الحجرات، من الآية (٩).

(3) انظر: الكتاب ٣/ ٦، ١٣، ١٦٢، ٢٨، ٤٦، ٥٢.

(4) البيت منسوب لعامر بن جوين الطائي في الكتاب ١/ ٣٠٧، ومعاني القرآن للأخفش ١/ ٢٠٨، وشرح شواهد المغني ٢/ ٩٣١، ومنسوب لعامر بن الطفيل في الإنصاف ٤٤٩، ولعامر الهذلي في التصريح ٢/ ٣٩٢، وغير منسوب في شرح جمل الزجاجي لابن عصفور ١/ ١٣٢، وشرح التسهيل ٤/ ٥٠، وشرح الألفية لابن الناظم ٦٨٨، ورصف المباني ١٩٥.

(5) الكتاب ١/ ٣٠٧.

(6) انظر: الكتاب ٣/ ١٢.

(7) سورة الزمر، الآية (٦٤).

ألا أيُّهذا الزاجري أحضُرَ الوغى وأنْ أشهدَ اللذاتِ هل أنتَ مُخْلِدي [1][2]

على تقدير: أن أحضر.

وقد يبقى النصب مع الحذف من غير دليل –وإن كان يعد شذوذًا عند النحويين–، كما في قول بعض العرب: "مره يحفرَها"[3]، "وتسمعَ بالمعيدي خير من أن تراه"[4].

هذه الأوجه والتحولات في "أنْ" خاصةٌ بها –دون سائر أخواتها– مما يدلُّ على أحقيتها بأمية بابها.

٢– الحذف مع "إنْ" الشرطية:

اختُصّت "إنْ" الشرطية –دون سائر أخواتها– بأنها تعمل وهي محذوفة [5]، ولها أحوال:

أ– حذفها مع شرطها، قال سيبويه: "هذا باب من الجزاء ينجزم فيه الفعل إذا كان جوابًا لأمر، أو نهي، أو استفهام، أو تمنٍّ، أو عَرْض"[6].

فالأمر مثل: ائتني آتك، المعنى: إن تأتني آتك، ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾[7].

والنهي مثل: لا تقترب من الأسد تسلم، والمعنى: إن لا تقترب من الأسد تسلم.

---

(١) البيت لطرفة بن العبد في ديوانه ٢٥، والكتاب ٣/ ٩٩، معاني القرآن للأخفش ١٢٦/١، والمقتضب ٢/ ٨٣، ومعاني القرآن وإعرابه ١/ ١٦٥، وسر صناعة الإعراب ١/ ٢٨٥، والإنصاف ٤٤٨، وخزانة الأدب ١/ ١١٩، ٨/ ٥٧٩، والدرر ١/ ٧، ٣/ ٢٨.

وغير منسوب في شرح المفصل ٢/ ٧، وشذور الذهب ١٥٣، وهمع الهوامع ٢/ ١٧.

(٢) انظر: الكتاب ٣/ ٩٩، ١٠٠، والمقتضب ٢/ ٨٢، ٨٣.

(٣) انظر: الكتاب ٣/ ٩٩.

(٤) انظر: البيان ١/ ١٠١، والنحاس ١/ ٣١٦، والأشموني ٣/ ٢٨٧، والبحر المحيط ٢/ ٢١٣، والإنصاف ٢/ ٥٥٩.

(٥) انظر: الكتاب ٣/ ٦٣، والمقتضب ٢/ ٨٠.

(٦) الكتاب ٣/ ٩٣.

(٧) سورة الأعراف، من الآية (٧٣)، وسورة هود، من الآية (٦٤).

والاستفهام مثل: ألا تأتيني أحدثك؟ والمعنى: إن يكن منك إتيان أحدثك. ومنه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ ... يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[1].

والتمني مثل: ليته عندنا يحدّثنا، المعنى: إن يكن عندنا يحدثنا.

العرض مثل: ألا تنزل تُصبْ خيراً، المعنى: إن تنزلْ تُصِبْ خيراً[2].

وقال سيبويه: "إن هذه الأوائل كلها فيها معنى "إن""[3].

ب- حذف الجزاء وحده، كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٖ ﴾[4]، المعنى: فإن استطعت أن تبتغي نفقاً ... فافعل[5]، وإذا اجتمع شرطٌ وقسمٌ أغنى عن جواب الشرط جواب قسم متقدم[6]، كقوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾[7].

وكذا إذا تقدم الجزاء على "إن"[8]، مثل: أنت ظالم إنْ فعلتَ.

ج- حذف شرطها وحده: يحذف فعل الشرط بعد "إن"[9]، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٞ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾[10]، التقدير: وإن استجارك أحدٌ فأجره.

ومنه قول الشاعر:

لا تَجْزَعِي إن مُنْفِساً أهْلَكْتُهُ ... فإذا هَلَكْتُ فعندَ ذلك فاجْزَعِي[11]

---

(1) سورة الصف، من الآيتين (١٠-١٢).
(2) انظر: الكتاب ٣/٩٣، والمقتضب ٢/٨٠.
(3) الكتاب ٣/٩٣.
(4) سورة الأنعام، من الآية (٣٥).
(5) انظر: معاني القرآن ١/٣٣١، ومعاني القرآن وإعرابه ٢/١٩٧.
(6) انظر: معاني القرآن ٢/١٣٠.
(7) سورة الإسراء، من الآية (٨٨).
(8) انظر: المقتضب ٢/٦٦.
(9) انظر: الكتاب ١/١٣٤، ٣/١١٢، ومعاني القرآن وإعرابه ٢/٣٤٨، وإعراب القرآن ٢/٢٠٣، ومشكل إعراب القرآن ١/٣٥٦.
(10) سورة التوبة، من الآية (٦).
(11) البيت للنمر بن تولب في الكتاب ١/١٣٤، وإعراب القرآن ٢/٢٠٣، وشرح المفصل ٢/٣٨، وخزانة الأدب ١/٣١٤، ٣/٣٢، ١١/٣٦.

وغير منسوب في معاني القرآن للأخفش ٢/٣٢٧، والمقتضب ٢/٧٤، وشرح ابن عقيل ١/٥٢١.

التقدير: إن أهلكتُ مُنفِسًا، وقول الآخر:

فَطَلِّقْهــا فلَســتَ لهــا بِكُــفءٍ ... وإلا يَعْــلُ مَفْرِقَــكَ الحُــسَامُ[1]

التقدير: وإن لا تطلقها يعلُ.

قــال ســيبويه: "وإنمــا جــاز هــذا فــي "إنْ"؛ لأنهــا أصــلُ الجــزاءِ ولا تفارقــه"[2]، وقــال الفراء: "وذلك سهل في "إنْ" خاصةً دون حروف الجزاء؛ لأنها شرط وليست باسم"[3].

د- حذف الشرط والجزاء معًا: وقد يحذف الشرط والجزاء بعدها إذا دل عليهما دليلٌ؛ تقول: لا آتي الأمير؛ لأنه جائر، فيقال: ايته وإنْ، أي: ايته، وإنْ كان جائرًا فأته [4].

وخصه الرضي بالضرورة، كما في قول الشاعر:

قالَــتْ بنــاتُ العــمِّ يــا ســلمى وإنْ ... كــان فقيــرًا مُعْــدِمًا قالــتْ: وإنْ [5]

٣- الحذف في "إنَّ":

"إنّ" هي "أمّ" الباب وأصله، لذا سمي الباب باسمها، فقيل: باب إنَّ وأخواتها، وذلك لأسباب لغوية كثيرة، منها:

أ- حذف خبرها كثيرًا: وضع إمام النحاة -سيبويه- في حذف خبر "إنّ" بابًا، وجعل لـه تـسمية هـي قولـه: "هـذا بـاب مـا يحـسن عليـه الـسكوت فـي هـذه الأحـرف الخمـسة؛

---

(١) البيت للأحوص في ديوانه ١٩٠، والمقاصد النحوية ٣٩٧/٣، وشرح شواهد المغني ٧٦٧/٢.
وغير منسوب في الإنصاف ٦٨، وشرح التسهيل ٨٠/٤، وشرح الألفية لابن الناظم ٧٠٥، ٤١٠/٢، وارتشاف الضرب ٥٦١/٢، وتوضيح المقاصد ٢٥٦/٤، ومغني اللبيب ٥٢٢/٦، وشرح الأشموني ٢٥/٤، وهمع الهوامع ٣٢٦/٤.

(٢) الكتاب ١١٢/٣، وانظر: ١٣٤/١، ومعاني القرآن للأخفش ٣٢٧/٢.

(٣) معاني القرآن ٤٢٢/١.

(٤) انظر: شرح الرضي القسم الثاني ٩٠٣/٢، وشرح الألفية لابن الناظم ٧٠٧، ومغني اللبيب ٥٣٣/٦.

(٥) البيت لرؤبة بن العجاج في ديوانه ١٨٦، وشرح الرضي القسم الثاني ٩٠٣/٢، والمقاصد النحوية ٦١/١، والتصريح ٣٠/١، وشرح شواهد المغني ٩٣٦/٢، وخزانة الأدب ٩/١٤، ٢١٦/١١، والدرر ٨٨/٥.
وغير منسوب في شرح الألفية لابن الناظم ٧٠٧، ورصف المباني ١٨٩، وتوضيح المقاصد ٣٠/١، ومغني اللبيب ٥٣٣/٦، وهمع الهوامع ٣٢٦/٤.

لإضمارك ما يكون مستقرًا لها وموضعًا لو أظهرته ... وذلك: إنَّ مالًا، وإنَّ ولدًا، وإنَّ عددًا أي: إنَّ لهم مالًا. فالذي أضمرت هو "لهم". ويقول الرجل للرجل: "هل لكم أحد؟ إنَّ الناس ألْبٌ عليكم". فتقول: إنَّ زيدًا، وإنَّ عمرًا، أي: إنَّ لنا. وقال الأعشى:

إنَّ مَحَلًّا وإنَّ مُرْتَحَلَا ... وإنَّ في السَّفْرِ إذ مَضَوا مهَلَا [1]

ويقول: "إنَّ غيرها إبلًا وشاءً". كأنه قال: "إنَّ لنا غيرها إبلًا وشاءً". أو عندنا غيرها إبلًا وشاء"[2].

ويقلْنَ: شَيْبٌ قَدْ عَلَا ... كَ وقد كَبِرْتَ، فقلتُ: إنَّهْ [3]

على جعل الهاء في "إنه" اسم "إن". وليست للسكت.

فحذف خبر "إن" في الأمثلة السابقة. قال عبدالقاهر الجرجاني: "وقد ترى حسن الكلام وصحته مع حذفه وترك النطق به. ثم إنك إن عمدت إلى "إنَّ" فأسقطتها وجدت الذي كان حسن من حذف الخبر لا يحسن أو يسوغ. فلو قلت: مال، وعدد، ومحل، ومرتحل، وغيرها إبلًا وشاءً لم يكن شيئًا؛ وذلك أن "إنَّ" كانت السبب في أنْ حَسُنَ حَذْفُ الذي حُذف من الخبر، وأنها حاضنته، والمترجم عنه، والمتكفل بشأنه"[4].

والذي ذكره سيبويه، والجرجاني في "الدلائل" هو الفيصل في أن "إنَّ" هي أصل الباب؛ لما لها من الحرية الحركية، والثراء في التعبير.

---

(1) البيت للأعشى في ديوانه ١٧١، وفي الكتاب ٢/ ١٤١، والمقتضب ٤/ ١٣٠، والأصول ١/ ٢٤٧، والخصائص ٢/ ٣٧٣، وشرح السيرافي ٢/ ٤٦٩، والأمالي الشجرية ١/ ٣٢٢، ومغني اللبيب ٢/ ٢٢، وخزانة الأدب ١٠/ ٤٥٢.

(2) الكتاب ٢/ ١٤١.

(3) البيت سبق تخريجه.

(4) دلائل الإعجاز ٣١٨.

وعلى الرغم من أن عنوان الباب ليس خاصًا بـ"إنَّ" بل هو معنون لها ولإخواتها؛ فإن سيبويه، والجرجاني لم يذكرا أمثلة لأخواتها، مما يعني أنه إن جاز ذلك الحذف من أخواتها فهو أكثر استعمالًا معها [1].

ب- حذف اسمها: لا يفضل النحاة حذف اسم "إنَّ"؛ لأنه هو الأصل في الجملة الاسمية، وهو الذي يُؤتى بالخبر من أجله، فهو عماد الجملة، ويجيزون حذفه إن كان ضمير الشأن، وربما خصوا حذفه في الشعر، كقول الأخطل:

إنَّ مَن يَدخُلُ الكنيسةَ يومًا ... يَلْقَ فيها جآذِرًا وظِبَاءَ [2]

والتقدير: إنه من يدخل الكنيسة.

٤- حذف باء القسم:

اختصت بجواز حذفها -دون أخواتها- كقول الشاعر:

فَقُلْتُ: يَمينُ اللهِ أبْرَحُ قَاعِدًا ... ولَوْ قَطَعُوا رأسِي لديكِ وأوصالي [3]

أي: يمين بالله، وخصه بعضهم بالضرورة أو الشذوذ، والحاصل: أن الباء قد حذفت وهي مرادة.

٥- الحذف في "كان":

إذا كان الحذف ظاهرة عامة يقع في أنواع الكلمة دون استثناء؛ فإن الحذف في "كان" يعد ظاهرة خاصة بها دون أخواتها [4].

---

(١) انظر: الكتاب، ١٤١/٢ والخصائص ٣٧٣/٢، وشرح السيرافي ٤٧٠/٢، ودلائل الإعجاز ٣١٨.

(٢) البيت المنسوب للأخطل في الحلل في شرح أبيات الجمل ٢٨٧، وخزانة الأدب ٤٥٧/١، ٤٢٠/٥، ١٥٥/٩، ٤٤٨/١١، والدرر ١٧٩/٢.

وغير منسوب في الجمل ٢١٥، والأمالي الشجرية ٢٩٥/١، وشرح المفصل ١١٥/٣، والكناش ١٩٦، والتذييل والتكميل ٢٧١/٢، وارتشاف الضرب ٤٨٦/١، ومغني اللبيب ٢٣٢/١، ٢٥٤/٦، وهمع الهوامع ١٦٤/٢، ولم أعثر عليه في ديوان الأخطل.

(٣) البيت لامرئ القيس في ديوانه ١٤١، والكتاب ٥٠٤/٣، والمقتضب ٣٢٥/٢، وأصول النحو ٤٣٤/١، والمفصل ٤٥٧، وأورده الفراء في معانيه ٥٤/٢ شاهدًا على حذف "لا" النافية من الفعل "أبرح" على تقدير: لا أبرح.

(٤) سبق الحديث عن حذف "كان"، أو حذف نونها مع بقاء التأثير الإعرابي لها في المبحث الأول: خاصة التأثير الإعرابي ص٢٥، وهنا تفصيل ذلك الحذف، وأنه سمة خاصة بها دون أخواتها.

فـ"كان" تتميز عن سائر أخواتها بأنه يجوز حذف جزء منها، أو حذفها كلها، أو حذفها مع اسمها، أو حذفها مع خبرها، أو حذفها مع اسمها وخبرها، ولا يصلح لذلك - في الباب - إلا "كان".

أ- حذف جزء منها وهو النون: يجوز أن تحذف النون من "كان" إذا جاءت بصيغة المضارع، مسبوقة بجازم، ولم يقع بعدها حرف ساكن [1]، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ [3].

وحذفها هو نوع من التسهيل والتخفيف؛ لكثرة الاستعمال، وتحقيق قانون بذل أقل جهد عضلي عند النطق [4]، فإنه -غالبًا- ما يقع إدغام أو إخفاء عند التقاء صوت النون الساكن مع الأصوات الأخرى اللاحقة له، أو يحتاج إلى قلب هذه النون إلى ميم، فيعفينا هذا الحذف من ارتكاب هذه المنطوقات التي تحتاج إلى مجهود عضلي من أعضاء النطق.

إن هذه التحولات الصوتية -الظواهر الصوتية- يغنينا عنها حذف هذه النون، فمثلًا قوله تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠)﴾ في نطق النون الساكنة في آخر الفعل المضارع سيجعلها ملتقية مع حرف الباء في "بغيا"، وهذا يقتضي منا قلب هذه النون إلى ميم؛ مما يغير النسق الصوتي إلى نسق صوتي آخر، وحذف النون يغنينا عن هذا التحول الصوتي.

والأمر كذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤)﴾، فإن نطق النون آخر المضارع سيجعل النون الساكنة في "نكن" ملتقية مع الميم في "مِن" مما يلزم معه إدغامها في الميم بعدها؛ باعتبارهما صوتين شبه متماثلين، وكذلك الأمر في ﴿نَكُ نُطْعِمُ﴾؛ إذ يلزم عن إظهار النون تقابلها مع النون التي تليها مما يلزم عنه

---

(١) انظر: الكتاب ١/٢٥، ٢٦٦، ٤/١٨٤، وشرح التسهيل ١/٣٦٦، وهمع الهوامع ٢/١٠٧.

(٢) سورة مريم، من الآية (٢٠).

(٣) سورة المدثر، الآيتان (٤٣، ٤٤).

(٤) انظر: المقتضب ٢/٣٦١، ٣/٦٦، ١٦٧، ومعاني القرآن وإعرابه ٢/٤٢، ٣/١٨١، ١٨٢، وشرح الألفية لابن الناظم ١٤٣، وتوضيح المقاصد ١/٣١١، وهمع الهوامع ٢/١٠٧.

إدغام المتماثلين معًا. وكل ذلك لا يلزم عندما تحذف النون من الفعل "تكن". وكذا لو ولي هذه النون حرف يقتضي النسق الصوتي أن تخفى بإدخالها فيما بعدها وهو قريب من الإدغام. كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَإِن رَجُلًا أَن فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾[2]. وقد يقتضي السياق -لو بقيت- إظهار النون من "يكن". كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾[3].

والحالات التي يبقى فيها صوت النون هي حالات يعسر بها نطق الكلمتين المتجاورتين، فيحتاج إلى بذل مجهود أكبر. ولا يرد على ذلك أن الأصل في نون مضارع "كان" أن تبقى. وأن الغرض من الحذف هو التخفيف الصوتي في السياق [4]. وليس ضربًا من العبث. وليست الشروط الواجب توافرها في "كان" لحذف نونها نوعًا من التعسف؛ ولكن سنن الكلام. وتناغم الصوت قد يقتضي ذلك. والأمثلة الواردة خير شاهد على ذلك.

ولذلك السبب -وهو تناغم الصوت في السياق- منع النحويون -إلا يونس- حذف النون إذا وليها حرف ساكن [5]. كما في قول الشاعر:

فإن لم تَكُ المِرآةُ أبدتْ وَسامَةً   فقد أبْدتِ المِرآةُ جَبْهةَ ضَيْغَمِ [6]

---

(١) سورة هود. من الآية (١٧).

(٢) سورة غافر. من الآية (٢٨).

(٣) سورة النساء. من الآية (٤٠).

(٤) انظر: المقتضب ٣٦١/٢. وتوضيح المقاصد ٣١١/١.

(٥) انظر: الكتاب ١٨٤/٤. وشرح الكافية الشافية ٤٢٣/١. وتوضيح المقاصد ٣١١/١. وهمع الهوامع ١٠٨/٢.

(٦) البيت لخنجر الأسدي في سر صناعة الإعراب ٥٤٢/٢. والمقاصد النحوية ٤٣٢/١. وخزانة الأدب ٣٠٤/٩ والدرر ٩٦/٢.

وغير منسوب في شرح التسهيل ٣٦٧/١. وشرح الكافية الشافية ٤٢٣/١. وشرح الألفية لابن الناظم ١٤٤. وتوضيح المقاصد ٣١١/١. وهمع الهوامع ١٠٨/٢.

وقول الآخر:

إذا لم تكُ الحاجاتُ من هِمَّةِ الفتى فليْسَ بمغْنٍ عنهُ عَقْدُ التَّمائمِ [1]

إن الحذف هنا لحاجة النسق الوزني في البحر العَروضي. وهو أمر يثبت أيضًا صلاحية "كان" عند حذف نونها لاستعمالات لغوية يحتاج إليها السياق. هذا مع التنبيه إلى وجود الأثر الإعرابي لـ"كان" بعد الحذف، مما يؤكد أصالتها وأحقيتها بأمية بابها.

ب- حذفها [2] وحدها مع بقاء أثرها الإعرابي. يقول ابن مالك:

وبعد "أنْ" تعويض "ما" عنها ارتُكِبْ كمثل: "أمَّا أنت برًّا فاقتربْ" [3]

فحذف "كان" وجاء بـ"ما" عوضًا عنها، واسمها الضمير "أنت" الذي انفصل بعد حذف "كان" وخبرها "برًّا" [4].

وقول الشاعر:

أبا خُراشَةَ أمَّا أنْتَ ذا نَفَرٍ فإن قَوميَ لم تأكلْهمُ الضَّبُعُ [5]

فحذف "كان" وعوض عنها "ما"، وانفصل اسمها "أنت"، وجاء خبرها "ذا نفر" منصوبًا. وليس ذلك إلا لـ"كان" فلم يحذف أحد أخواتها.

---

(1) البيت غير منسوب في شرح التسهيل ٣٦٧/١، والمساعد ٢٧٦/١، وتعليق الفرائد ٢٣٦/٣، وهمع الهوامع ١٠٨/١، والدرر ٩٦/٢.

وفي شرح التسهيل: "عقد الرتائم".

(2) سبقت الإشارة إلى حذف "كان" عند الحديث عن بقاء التأثير الإعرابي مع حذف الأداة أو جزء منها ص٢٨.

(3) ألفية ابن مالك ٣١.

(4) انظر: الكتاب ٢٩٣/١، ٣/٧، ٩، ١٤٩، والخصائص ٣٨٠/٢، وشرح التسهيل ٣٦٥/١.

(5) البيت لعباس بن مرداس في ديوانه ١٢٨، وفي الكتاب ٢٩٣/١، والخصائص ٣٨١/٢، والإنصاف ٦٦، وشرح التسهيل ٣٦٥/١، ورصف المباني ٩٩، ومغني اللبيب ٣٧٥/١، والمقاصد النحوية ٤٢٧/١، وشرح الأشموني ٢٤٤/١.

والتعبير بحذف "كان" يؤدي معنى دلاليًا مختلفًا؛ لأنه صورة الأسلوب المؤكّد، وهو مستفاد من الصيغة "أما". فيكون حذف "كان"، وتعويض "ما" تطريزًا لغويًا يؤدي إلى إلقاء الجملة بصورة مؤكّدة. وهذا هو المستفاد من حذف "كان" [1].

ج- حذفها مع اسمها أو خبرها: تحذف كان مع اسمها ويبقى خبرها. وذلك إذا وقعت بعد "إنْ" أو "لو" الشرطيتين [2]. فمثال حذفها بعد "إنْ" قول الشاعر:

قد قيل ما قِيلَ إن صِدقًا وإن كذبًا ... فما اعتذارُكَ من قولٍ إذا قِيلا [3]

حذف "كان" مع اسمها وأبقى الخبر في الموضعين، والتقدير: إن كان المقولُ صدقًا، وإن كانَ المقولُ كذبًا.

ومثال حذفها بعد "لو" قول النبي ﷺ: (الْتَمِسْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ)[4]، وقول الشاعر:

لا يَأمَنُ الدهرَ ذو بغيٍ ولو مَلِكًا ... جُنُودُهُ ضَاقَ عنها السَّهْلُ والجبلُ [5]

فحذف "كان" مع اسمها وأبقى الخبر. وهو "مَلِكًا". والتقدير: ولو كان الباغي ملكًا.

وقول الآخَر:

لا تَقْرَبَنَّ -الدهرَ- آلَ مُطَرِّفٍ ... إنْ ظالِمًا أبدًا وإنْ مظلومًا [6]

---

(١) انظر: الكتاب ٢٩٣/١، والخصائص ٣٨١/٢، وشرح التسهيل ٣٦٥/١، وارتشاف الضرب ٩٩/٢، ومغني اللبيب ٣٧٥/١، ٢٩٥/٥.

(٢) انظر: الكتاب ٢٥٨/١.

(٣) البيت منسوب للنعمان بن المنذر. في الكتاب ٢٦٠/١، وشرح أبيات سيبويه ٣٥٢/١، وشرح شواهد المغني ١٨٨/١، وخزانة الأدب ١٠/٤، ٥٥٢/٩.

وغير منسوب في الأمالي الشجرية ٢٤١/١، ٢٤٧/٢، وشرح المفصل ٩٧/٢، وهمع الهوامع ١٢١/١.

(٤) رواه البخاري في صحيحه كتاب النكاح (٦٧)، باب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح (٣٢)، برقم: (٥١٢١)، ١٢٩/٦، وباب السلطان ولي بقول النبي ﷺ: (زَوَّجْنَاكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرآنِ)، برقم (٥١٣٥)، ١٣٥/٦.

(٥) البيت غير منسوب في شرح التسهيل ٣٦٣/١، وشرح الألفية لابن الناظم ١٤١، وارتشاف الضرب ٩٧/٢، وشرح المرادي ٣٠٨/١، وأوضح المسالك ٢٥٥/١، وشرح شواهد المغني ٦٥٨/٢، وهمع الهوامع ١٠٣/٢، وشرح الأشموني ١١٩/١.

(٦) البيت منسوب لليلى الأخيلية في الكتاب ٢٦١/١، والمقاصد النحوية ٤٢٣/١.

وغير منسوب في شرح الكافية الشافية ٤١٦/١، وارتشاف الضرب ٩٧/٢، والأمالي الشجرية ٢٤١/١، ٢٤٧/٢، وهمع الهوامع ٤٢١/١.

فحذف "كان" مع اسمها، وأبقى خبرها منصوبًا وهو "ظالمًا". والتقدير: إن كنت ظالمًا وإن كنت مظلومًا.

ومثاله أيضًا عند سيبويه قولهم: "الناس مجزيون بأعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر". والتقدير: إن كان عملُهم خيرًا وإن كان عملُهم شرًا.

ويجوز -عند سيبويه- أن يكون المحذوف "كان" مع خبرها، وبقيَ اسمها، على أن اللفظ: إن خير فخير، والتقدير: إن كان في عملهم خيرٌ وإن كان في عملهم شرٌّ [1].

وكذا مع "لو". قال سيبويه: "ومما ينتصب على إضمار الفعل المستعمل إظهاره قولُك: "ألا طعام ولو تمرًا". كأنك قلت: ولو كان تمرًا ... وإن شئت قلت: ألا طعام ولو تمر، كأنك قلت: ولو يكون عندنا تمر" [2].

وقد تُحذف "كان" دون أن تسبق بـ"لو" أو "إن" [3]، كما في قول الشاعر:

مِنْ لَدُ شولًا فإلى إتلائها [4]

أي: من لد أنْ كانت شولًا [5].

وكذا قول الشاعر:

أزْمانَ قومي والجماعةَ كالذي ... لزم الرّحالةَ أنْ تميلَ مُمِيلا [6]

---

(1) انظر: الكتاب ١/٢٥٨، ٢٦٩، ٢٧٠.

(٢) المصدر السابق ١/٢٦٩.

(٣) وعدّه بعض النحويين قليلًا أو شاذًا.

انظر: أوضح المسالك ١/٢٥٦، وشرح ابن عقيل ١/٢٩٥، والمقاصد النحوية ١/٤٢٧، خلافًا لسيبويه الذي عده من الكثير، يدل على ذلك تعليقه في الكتاب ١/٣٠٥ على بيت الراعي النميري الآتي بقوله: «كأنه قال: أزمان كان قومي والجماعة، فحملوه على "كان"، لأنها تقع في هذا الموضع كثيرًا».

(٤) البيت منسوب للعجاج في إعراب القرآن للنحاس ١/٣٥٧، وهو غير موجود في ديوانه.

وغير منسوب في الكتاب ١/٢٦٤، ومعاني القرآن وإعرابه ١/٣٥٧، وشرح التسهيل ١/٣٦٥، وارتشاف الضرب ٢/٩٩، والمقاصد النحوية ١/٤٢٥.

(٥) انظر: الكتاب ١/٢٦٤، وارتشاف الضرب ٢/٩٩.

(٦) البيت للراعي النميري في ديوانه ٢٣٤، والكتاب ١/٣٠٥، والمقاصد النحوية ١/٤٣٠، والدرر ١/٢٣٤، ٢/٣٠٥، وخزانة الأدب ٣/١٤٥، ١٤٨، والتصريح ١/١٥٨.

التقدير: أزمان كان قومي.

من أجل هذه التنويعات التركيبية في جملة "كان"، وعدم مجيءِ تلك التركيبات مع أخواتها، عُدَّت "كان" "أمّ" الباب وأصله.

٧- حذف "يا" في النداء:

انفردت "يا" النداء بالحذف دون سائر أخواتها، يدل على ذلك أن النحويين لم يُقدِّروا حرفًا محذوفًا في النداء غيرها[١]، كما في قوله تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾[٢]. أي: يا يوسف. وقد تُحذف "يا" النداء، ويعوض عنها الهاء والميم، وذلك مع اسم الجلالة خاصة، نحو قولك: اللهم انصرنا على من عادانا، ولا يجمع بينهما إلا ضرورةً[٣]، كما في قول الشاعر:

إنّي إذا ما حَدَثٌ ألَمّا ... أقولُ يا اللهُمَّ يا اللهُمَّ[٤]

كما انفردت بجواز حذف المنادى بها إذا دخلت على "ليت"، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[٦]، وكذا إذا دخلت على حبذا، كما في قول الشاعر:

يا حَبّذا جَبَلُ الريّانِ من جَبَلٍ ... وحبّذا ساكِنُ الريّانِ مَنْ كانا[٧]

وغير منسوب في شرح التسهيل ١/٣٦٥، ٢/٣، ٢٥٩/٢٥٢، وارتشاف الضرب ٢/٩٩، وأوضح المسالك ١/٢٥٨، وهمع الهوامع ١/١٢٢، ٢/١٥٦.

(١) انظر: الكتاب ٢/٢٣٠، ٢٣١، والمقتضب ٤/٢٣٣، ٢٣٤، ٢٥٨، ومعاني القرآن وإعرابه ٣/٩٢.

(٢) سورة يوسف، من الآية (٤٦).

(٣) انظر: الكتاب ١/٢٥، ومعاني القرآن وإعرابه ١/٢٣١، ٣٣٢.

(٤) البيت منسوب لأبي خراش الهذلي في النوادر في اللغة ١٦٥، وهو في ملحق أشعار الهذليين ١٣٤٦، وذكر البغدادي في الخزانة ٢/٢٩٥: أن البيت لا يعرف قائله، وأن العيني زعم أنه لأبي خراش الهذلي.
وغير منسوب في المقتضب ٤/٢٤٢، واللمع ١٩٧، والإنصاف ٢٩١، وشرح المفصل ٢/١٦، وشرح التسهيل ٣/٤٠١، وشرح الرضي القسم الأول ١/٤٥٨، ورصف المباني ٣٧٣.
وهو في النوادر: "لمَمّ ألمّا".

(٥) سورة يس، من الآية (٢٦).

(٦) سورة النساء، من الآية (٧٣).

(٧) البيت لجرير في ديوانه ٤٩٣، والدرر ٥/٢٢٠.

أو دخلت على "رُبَّ"، كما تقول: يا رُبَّ صائم حظُّه من صيامه الجوع والعطش. أو دخلت على فعلٍ كما في قراءةِ من خفَّف ﴿ أَلَا ﴾[1] في قوله تعالى: ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾[2]، وقول الشاعر:

أَلا يا اسْقِياني قَبْلَ غارَةِ سِنْجالِ ... وقَبْلَ مَنايا قد حَضَرْنَ وآجالِ [3]

ومهما قيل في "يا" هذه: أهي حرف نداء والمنادى محذوفٌ -كما يقول الكوفيون[4]، والتقدير: يا هؤلاء، أم هي حرفُ تنبيهٍ جاء بصورة نداء -كما يقول البصريون[5]-، والمحصلة في الأمرين واحدة: أنها انفردت عن أخواتها، ودخلت على شيء لا يصلح للنداء؛ كالحرف "ليت" والحرف "رُبَّ"، أو دخلت على الفعل "حبذا".

* * *

وغير منسوب في أسرار العربية ١١٨، وشرح المفصل ٧/ ١٤٠، والجنى الداني ٣٥٠، وهمع الهوامع ٥/ ٤٥، وخزانة الأدب ١١/ ١٩٩.

(١) قرأ الكسائي، وأبو جعفر، ورويس، وعبدالرحمن السلمي، والحسن، وحميد الأعرج بتخفيف اللام في ﴿ أَلَا ﴾ و﴿ اسْجُدُوا ﴾ فعل أمر، وقرأ الباقون بتشديد اللام ﴿ أَلَّا ﴾ و﴿ يَسْجُدُوا ﴾ فعل مضارع.
انظر: السبعة ٤٨٠، والغاية ٣٤٧، ٣٤٨، وحجة القراءات ٥٢٦، والكشف ٢/ ١٥٦، والعنوان ١٤٤، والنشر ٣/ ٢٢٦، واتحاف فضلاء البشر ٣٣٦.

(٢) سورة النمل، من الآية (٢٥).

(٣) البيت للشماخ في ديوانه ٤٥٦، والكتاب ٤/ ٢٢٤، وشرح المفصل ٨/ ١١٥، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٣٢٩، وشرح شواهد المغني ٢/ ٧٩٦.
وغير منسوب في البحر المحيط ٧/ ٦٨، والجنى الداني ٣٥٠، ومغني اللبيب ٤/ ٤٤٩.

(٤) انظر: معاني القرآن ٢/ ٢٩٠، وإعراب القرآن ٣/ ٢٠٦، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ١٤٧، والمفصل ٤٨، ٥٥، وشرحه ٢/ ٢٤، والبيان ٢/ ٢٢١، والتبيان ٢/ ١٠٠٧، وشرح التسهيل ٣/ ٣٨٨-٣٩٠، والجنى الداني ٣٤٩، ٣٥٠.

(٥) انظر: الكتاب ٤/ ٢٢٤، ومعاني القرآن وإعرابه ٤/ ٢١٤، ومغني اللبيب ٤/ ٤٤٩، وخزانة الأدب ١١/ ١٩٩.

المبحث الثالث: خاصة الربط

الربط وظيفة من وظائف التماسك السياقي، ولا يكون السياق إلا حيث تترابط مفرداته، ويأخذ بعضها برقاب بعض، بل لا تكون اللغة إلا حيث يكون الربط بين ضمائمها، والربط وسائله كثيرة ومختلفة، فمنها الربط بـ"إنّ" المؤكدة، والربط بحروف العطف: الواو، والفاء، وثم، وغيرها، والربط بأدوات الشرط.

١- الربط بـ"إنّ":

لـ"إنّ" الناسخة وظيفةٌ أخرى -غير ما يعرف من معناها وهو التوكيد [١]- هي الربط بين أجزاء جملتها؛ فتؤدي وظيفة جديدة في السياق اللغوي وهي ربط الجملة بما قبلها، وتغني عن أي رابط آخر في موقعها، في الوقت الذي لا يغني شيء من الروابط الأخرى عنها، ولا يقوم مقامها، وهذا يؤكد أصالتها في بابها، وكونها "أمّاً" لأخواتها؛ لثرائها اللغوي.

يصدِّر عبدالقاهر الجرجاني حديثه عن الربط بـ"إنّ" من خلال قول الشاعر:

بكِّرا صاحبيَّ قبلَ الهَجيرِ ... إنَّ ذاكَ النجاحَ في التَّبْكِيرِ [٢]

فيذكر أن من شأن "إنّ" إذا جاءت على هذا الوجه أن تغني غناء الفاء العاطفة، وأن تفيد ربط الجملة بما قبلها، فأنت ترى الكلام بها مستأنفا غير مستأنف، ومقطوعًا موصولًا معًا، ولو لم تستعمل "إنّ" لم تر الكلام يلتئم، ولرأيت الجملة الثانية لا تتصل بالأولى، ولا تكون منها بسبيل حتى تجيء بالفاء، أو "إنّ"، فلو قيل في قول الشاعر:

بكِّرا صاحبيَّ قبلَ الهَجيرِ ... ذاكَ النجاحَ في التَّبْكِيرِ

لم يكن الكلام على الوجه حتى تأتي بـ"إنّ"، كما في البيت إذ أصله:

بكِّرا صاحبيَّ قبلَ الهَجيرِ ... إنَّ ذاكَ النجاحَ في التَّبْكِيرِ

---

(١) انظر: الكتاب ٤/ ٢٣٢.

(٢) البيت لبشار بن برد في ديوانه ٣/ ٢٠٢، ودلائل الإعجاز ٢٧٦، ٣١٣، والفصل والوصل ٦٦.

أو حتى تأتي بالفاء، لكن تضام "إنّ" أمثل من تضام الفاء. ومثله قول الشاعر:

فَغَنِّها وَهْيَ لَكَ الفداء   إنَّ غناءَ الإبلِ الحُداءُ[1]

فتضام "إنّ" في الشطر الثاني جعله متلائمًا مع الأول، وحسن تشبثه به، وحسن تعطف الكلام الأول عليه[2].

فإذا أسقطت "إنّ" رأيت الجملة بعدها قد نبَتْ عن الأولى السابقة عليها، وتجافى المعنيان، وصار الكلام مقطوعًا؛ ليس بسبيل من بعضه. فإذا ضممت الفاء أو "إنّ" وجدت الكلام مع الفاء على نحو من الاتصال والربط. لكنه ليس كما لو ضممتَ "إنّ" وربطت بها بين الشطرين أو الكلامين.

فالفاء لا تعيد الجملتين إلى ما هما عليه من الألفة كما هما مع "إنّ" ولا ترد على السامع الذي كان موجودًا مع الربط بـ"إنّ". وهذا كثيرٌ في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[3][4]، وقوله تعالى عن لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[5][6]، وقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[7][8]، ومن أبين ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[9][10].

---

(١) البيت منسوب إلى بعض العرب في دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجاني ٢٧٧، ولم أعثر عليه إلا في مصادر قليلة –فيما اطلعت عليه– منها: البارع في اللغة لأبي علي القالي ٤١٩.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز ٢٧٧، ٣١٣، وعلم المعاني ٢/١٦٣، والفصل والوصل ٦٦.

(٣) سورة الحج، الآية (١).

(٤) انظر: القطع والائتناف ٢/٤٣٨، ودلائل الإعجاز ٣١٣، وروح المعاني ٩/٥٤٧، والتحرير والتنوير ١٧/١٨٦.

(٥) سورة لقمان، الآية (١٧).

(٦) انظر: دلائل الإعجاز ٣١٣، والتحرير والتنوير ١١/٥د١، ١٦٥.

(٧) سورة التوبة، الآية (١٠٣).

(٨) انظر: دلائل الإعجاز ٣١٣، والتحرير والتنوير ١١/٢٢، ١٨/٤٥.

(٩) سورة هود، من الآية (٣٧)، وسورة المؤمنون، من الآية (٢٧).

(١٠) انظر: دلائل الإعجاز ٣١٤، والتحرير والتنوير ١٢/٦٧، ٢/٥٨٤.

وقد يتكرر الربط بـ"إنّ" في الآية الواحدة كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ ﴾[1][2]، ولا يكون ذلك لأخواتها؛ لأنها "أم" الباب وأصله.

ولا تقوم الفاء بوظيفة "إنّ" في كل موضع، بل قد تحل في موضع ولا تحل في آخر – رغم كثرتها وشهرتها في الربط –، فقد تتضام "إنّ" لتفيد الربط في الجملة التي لا تصلح لها الفاء، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[3]، وذلك أن قبل هاتين الآيتين قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾[4]، ومعلومٌ أنه لو قلت: ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾، فالمتقون في جناتٍ وعيون، لم يكن كلامًا فصيحًا[5].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[6]؛ لأنه لو قيل: ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾، فـ ﴿ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾، لم تجد لإدخال الفاء فيه وجهًا.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[7]، فـ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ اسم ﴿ إِنَّ ﴾، وما بعده معطوفٌ عليه، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾: "جملة في موضع الخبر، ودخول الفاء فيها محال؛ لأن الخبر لا يعطف على المبتدأ"[8].

---

(١) سورة يوسف، الآية (٥٢).

(٢) انظر: دلائل الإعجاز ٣١٤، وروح المعاني ٧/٣٦١، ٣٦٢، والتحرير والتنوير ١٣/٥، وعلم المعاني ١٦٢.

(٣) سورة الدخان، الآيتان (٥١–٥٢).

(٤) سورة الدخان، الآية (٥٠).

(٥) انظر: دلائل الإعجاز ٣١٩، والتحرير والتنوير ٢٥/٣١٦.

(٦) سورة الأنبياء (١٠١).

(٧) سورة الحج، الآية (١٣).

(٨) دلائل الإعجاز ٣١٩، وانظر تفصيل ذلك في معاني القرآن ٢/٢١٨، ومعاني القرآن وإعرابه ٣/٣٣٩، وإعراب القرآن ٣/٩٠، ومشكل إعراب القرآن ٢/٩٣، والتبيان ٢/٩٣٦.

ومثله سواء قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [1]. فاقتضاء الكلام -لذلك كله- تضام "إنّ" إنما يكون إذا أريد بها تصحيح الكلام السابق عليها والاحتجاج له، وتبين وجه الفائدة فيه، فالغرض من قوله:

بكّرا صاحبيّ قبل الهَجير إنّ ذاكَ النجاحَ في التّبْكِير [2]

أن يبين لصاحبيه المعنى في قوله: "بكرا" ويحتج لنفسه في الأمر بالتبكير، ويظهر وجه الفائدة فيه [3].

وكذا الحكم في قوله: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [4]، هو بيان لمعنى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾ ، وتعليل لأمرهم بأن يتقوا الله.

وكذا الحال في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [5]. بيان للمعنى في أمر النبي ﷺ بالصلاة عليهم، أي: بالدعاء لهم [6].

٢- الربط بـ"واو" العطف:

الواو العاطفة هي أشهر أدوات العطف، لأن لها وظائف متعددة [7]، منها الربط بين المفردات في الجملة، أو الربط بين الجمل، وهو ما يسمى -في البلاغة- الوصل، ولا يكون ذلك إلا للواو.

والعطف بالواو أعم من العطف بغيرها، فلا يقتصر معناها على معنى خاص؛ كما تفيد الفاء الترتيب والتعقيب، وكما تفيد "ثم" الترتيبَ والتراخي، أو كما تفيد "أو" التخيير،

---

(١) سورة الكهف، الآية (٣٠).

(٢) البيت سبق تخريجه .

(٣) انظر: دلائل الإعجاز ٣١٩.

(٤) سورة الحج، من الآية (١).

(٥) سورة التوبة، من الآية (١٠٣).

(٦) انظر: دلائل الإعجاز ٣١٣-٣٢١٠

(٧) سيأتي الحديث عن وظائف الواو في المبحث الرابع (خاصة التضام).

وهكذا. وإنما تفيد الواو مطلق الجمع، فلا تفيد ترتيبًا ولا تعقيبًا أو تراخيًا، أو تمييزًا إلى غير ذلك من معاني أدوات العطف [1].

لكنَّ هناك أمرًا مهمًا، وهو وظيفة بين الجمل بوساطة الواو دون غيرها من حروف العطف، وهو -عندي- أهم من الوظائف النحوية التي يذكرها النحويون؛ الأمر الذي جعله العلماء حدًا للبلاغة حين قرروا: أن البلاغة هي معرفة مواضع الفصل والوصل؛ وذلك لغموضه ودقة مسلكه، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة [2]. وقد أغنى عبدالقاهر الجرجاني هذا الفصل بحثًا حينما ذكر [3] أن المقصود من العطف ليس مجرد إشراك الجملة الثانية في إعراب الجملة الأولى؛ فقد لا يكون للجملة الأولى موقعٌ من الإعراب؛ حتى يقال: إن الواو أشركت الثانية مع الأولى في هذا الإعراب، بل المقصود أمرٌ أخص من ذلك، وهو أمر -أيضًا- ليس موجودًا في حروف العطف الأخرى.

إن الواو توضح أن الجملة الثانية -على نحو ما- بسبب من الجملة الأولى، وأنه لا بد أن يوجد تناسب بين الجملتين حتى يتعاطفا معًا، ولذا عيب قول الشاعر:

لا والذي هو عَالِمٌ أنَّ النَّوى صَبِرٌ وأنَّ أبا الحسينِ كريمُ [4]

إذ لا مناسبة بين كرم أبي الحسين، ومرارة النوى، ولا تعلُّقَ لإحداهما بالآخر، كما أنه لا علاقة بين جملة: زيد طويل القامة، وجملة: عمرو شاعر، إذ لا مناسبة لعطف إحداهما على الأخرى، لكنه يجوز العطف بين هاتين الجملتين: زيد كاتب وعمرو شاعر، وزيد طويل وعمرو قصير.

---

(1) انظر: الكتاب ١/٣٩٩.

(2) انظر: البيان والتبيين ١/٨٨، ودلائل الإعجاز ٢٢٢، والإيضاح ٢/٥٦، والفصل والوصل ٥٧، ٦٥، وعلم المعاني ١٣١.

(3) انظر تفصيل ذلك في دلائل الإعجاز ٢٢٢-٢٣٦.

(4) البيت لأبي تمام في ديوانه ١٧٩، ودلائل الإعجاز ٢٢٤، والإيضاح ٢/٥٧، ومختصر السعد ٢١٩، وشروح التلخيص (مواهب الفتاح) ٣/١١.

وجملة القول: أنها لا تتضام حتى يكون المعنى لفقًا لمعنى في الجملة الأخرى، ومضامًا له، وحال الجملة الثانية مضامًا في النفس مع حال الجملة الأولى [1].

وإذا كان لا بد من جامع بين الجملتين فلا يشترط أن يكون الأمر على سبيل التوافق، بل قد يكون على سبيل التضاد؛ ذلك لأن التضاد هو الذي سَيَبِينُ عن حال الملابسة لأيٍّ من الجملتين للأخرى، كقول الشاعر:

لا تَطْمَعُوا أن تُهِينُونَا ونُكْرِمَكم وأن نَكُفَّ الأذَى عنكُمْ وتُؤذُونا [2]

ولا تعطف الجملة على نفسها، كقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [3]، فإنه لم تتضام الواو قبل ﴿ يُخَـٰدِعُونَ ﴾؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، مع أن الجملة الثانية تفسيرٌ للأولى؛ فالمخادعة ليست شيئًا غير قولهم: ﴿ ءَامَنَّا ﴾، من غير أن يكونوا مؤمنين، فهو -إذن- كلامٌ أُكِّد به كلامٌ آخر في معناه، وليس شيئًا سواه [4]، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [5]، فلم يُعطف ما بعدها، وهو قولهم: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

إنَّ ترك الواو قبل قولهم: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾؛ لأنهما جملتان في معنًى واحدٍ، والثانية تفسير للأولى، وذلك لأن معنى قولهم: ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾: أنهم لم يؤمنوا بالنبي

---

(1) انظر: دلائل الإعجاز ٢٣٤، ومختصر السعد ٢٣٤، ٢٣٧، وشروح التلخيص (مواهب الفتاح) ٣/ ٨٦، والفصل والوصل ٦٦، وعلم المعاني ٢/ ١٤٢، ١٤٣.

(2) البيت منسوب إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي ﷺ في عيون الأخبار ١/ ٢١٣، وإلى الفضل بن العباس في الكامل ٤/ ٤٦، وشرح الحماسة ١/ ١٢١.

وغير منسوب في العقد الفريد ٢/ ٣٢٨، ودلائل الإعجاز ٢٣٦.

(3) سورة البقرة، من الآيتين (٨-٩).

(4) انظر: مشكل إعراب القرآن ١/ ٢٣، ودلائل الإعجاز ٢٣٧، ٢٤٠، والإيضاح ٢/ ٥٧، والفصل والوصل ٥٩.

(5) سورة البقرة، من الآية (١٤).

ﷺ. وقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ خبر يفيد ما أفاده المعنى السابق من أنهم لم يؤمنوا[1].

يقول الفراء: "وقوله ههنا: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾. وفي موضع آخر: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾[2] بغير واو. وفي موضع آخر: ﴿عَلَىٰ﴾[3] بغير واو. فمعنى الواو أنهم يمسهم العذاب غير التذبيح. كأنه قال: يعذبونكم بغير الذبح وبالذبح. ومعنى إطراح الواو كأنه تفسير لصفات العذاب. وإذا كان الخبر من العذاب أو الثواب مجملًا في كلمة ثم فسَّرْتَهُ فاجعله بغير الواو. وإذا كان أوله غير آخره فبالواو"[4].

إن هذا المعنى المستفاد من النصوص المتقدمة في مسألة الوصل بالواو أو الفصل بتركها لا يكون بغيرها من أدوات الربط. كالفاء، و"ثم"، وغيرهما. لذا فهي الأصل في بابها، وهي "أم" أخواتها.

* * *

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز ٢٣٩، والإيضاح ٢/٦٣، والفصل والوصل ٩٨، وعلم المعاني ٢/١٤٧.

(٢) من قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾. سورة البقرة، من الآية (٤٩).

(٣) من قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ فَضَّلَكُمْ عَلَىٰٓ أَبْنَآءَكُمْ﴾. سورة الأعراف، من الآية (١٤١).

(٤) معاني القرآن ٢/٦٨، ٦٩. وانظر: الكشاف ٢/٣٦٨.

المبحث الرابع: خاصة التضام

التضامُ من أبرز خواص التركيب اللغوي، وأصل مهم من أصول تشكيله، ولا يسمى الكلام المنطوق أو المكتوب كلامًا إلا إذا كان هناك تضام بين الكلمات على شكل مخصوص، فلا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها البعض، ويُبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك؛ بأن يعمد إلى الأسماء والأفعال فيجعل الاسم فاعلًا للفعل، أو مفعولًا له، وإلى الاسمين، فيجعل أحدهما خبرًا عن الآخر، أو يكون الثاني تابعًا للأول على أنه صفة، أو توكيد، أو بدل، وحينما يضم الاسم بعد تمام المعنى الأصلي للجملة يكون ذلك الاسم حالًا، أو تمييزًا، أو تتضام الأدوات الموضوعة للنفي، أو الاستفهام، أو الشرط، أو التوكيد –إلى غير ذلك من المعاني– مع الأفعال والأسماء.

ومعنى التضام في هذا البحث أن الضميمة المعينة –التي هي "أم" الباب– تتضام مع ضمائم أخرى، أو تجيء في جملة لا يمكن لغيرها من أخواتها في الباب أن تجيء على هذا النحو؛ سواءً أكان على سبيل الإيجاب أم على سبيل السلب؛ لأن التضام: إما إيجاب؛ فيكون بذكر الضمائم التي تكوّن التراكيب، وإما سلب؛ فيكون بحذف ضمائم من التركيب، أو بحذف التركيب كله.

والتضام الإيجابي قد يكون واجبًا، كما في التضام بين جزأي الجملة الأصليين؛ المبتدأ والخبر، والفعل والفاعل أو نائبه، وقد يكون جائزًا، كما في تضام الضمائم المكمِّلة للمعنى الأصلي؛ كالمفعولات والحال والتمييز ونحو ذلك، وقد تكون الضميمة زائدةً لإفادة معنى التوكيد للعناصر –الضمائم– الموجودة في التركيب، ولا تأتي بمعنى جديد؛ ولكنها نوع خاص من أنواع الضمائم.

وسوف أبدأ بالحديث عن الضمائم غير الزائدة.

النوع الأول: الضمائم غير الزائدة:

١– تضام همزة الاستفهام:

اختصت همزة الاستفهام بالتوسع في استعمالها دون سائر أخواتها. فتدخل في جميع مواضع الاستفهام [1] -بخلاف أخواتها-: فتدخل على الاسم. كما في قوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ [2]، وتدخل على الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ [3]، وتدخل على الحرف، كما في قوله تعالى ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ﴾ [4]، وتدخل على العاقل -كما سبق-، وتدخل على ما لا يعقل، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ [5]، وكما تدخل على المثبَت تدخل على المنفي بالفعل، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [6]، وعلى المنفي بالحرف، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾ [7].

وتتضام قبل الفاء العاطفة كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ [8]، وقبل واو العطف، كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [9]، وقبل "ثم" كقوله تعالى: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ﴾ [10]، كما تتضام مع "إذا" الظرفية، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ ﴾ [11][12].

---

(1) انظر: الكتاب ١/٩٩-١٠٩، والمقتضب ٢/٥٢، ٣/٢٨٩، ومعاني الحروف ٣٢، والمفصل ٣١٩، وشرحه ٨/١٥١، وشرح التسهيل ٤/١١٠، ورصف المباني ١٣٥، والجنى الداني ٩٧.

(٢) سورة النازعات، من الآية (٢٧).

(٣) سورة البقرة، من الآية (١٣).

(٤) سورة يونس، من الآية (٥١).

(٥) سورة الأنعام، من الآية (١٤٣).

(٦) سورة الأحقاف، من الآية (٣٤).

(٧) سورة الشرح، الآية (١).

(٨) سورة فاطر، من الآية (٨).

(٩) سورة الروم، من الآية (٩)، وسورة فاطر، من الآية (٤٤)، وسورة غافر، من الآية (٢١).

(١٠) سورة يونس، من الآية (٥١).

(١١) سورة مريم، الآية (٦٦).

(١٢) انظر: معاني القرآن للأخفش ١/٢٢٠، ٢/٣٠٥، ٣٠٧، ٣٧٠، ٤٤٠، والمقتضب ٣/٢٩١، ٣٠٧، والمفصل ٣١٩، وشرح التسهيل ٤/١١٠، ومغني اللبيب ١/٧٢.

يقول الرضي: "ومن خصائص الهمزة أن تدخل على الفاء والواو و"ثم" ... ولا تدخل "هل" عليها؛ لأنها فرع الهمزة فلا تتصرف تصرفها"[1].

كما اختصت همزة الاستفهام -دون أخواتها- بأنه يصح أن يقع بعدها اسم بعده فعل، كما تقول: أزيداً ضربت أم عمراً، ولا يصح أن تقول: هل زيدٌ قام، وأين زيد ضربته، ويصح في الشعر، ويجب فيه النصب بخلاف الهمزة فيجوز فيها الرفع والنصب [2].

ذلك كله أهّلها لأن تكون "أم" الباب.

٢- تضام "إلا":

أ- تضامها مع أدوات النفي: تتميز "إلا" عن أخواتها الأخريات في أنها تتضام مع أدوات النفي: ما، لا، لن، لم، إنْ؛ لتفيد طريقة من طريقتي القصر.

مثال تضامها مع "ما" قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [3]. وقول الشاعر:

ومَا الفَضْلُ إلا أنْ تَجُودَ بِنائِلٍ ... وإلا لقاءُ الخِلِّ ذي الخُلُقِ العَالي

ومثال "لا" قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾[4]. وقول الشاعر:

لا يَمْنَحُ الفَضْلَ ما تَرْجُوهُ مِنْ أرَبٍ ... إلا الطُّمُوحُ وإلا الجِدُّ والعَمَلُ

ومثال "لن" قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [5]. وقوله تعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ [6].

ومثال "لم" قوله تعالى: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ﴾ [7].

---

(١) شرح الرضي القسم الثاني ٢/١٣٩٤.
(٢) انظر: الكتاب ١/١٠١، والمقتضب ٢/٧٢.
(٣) سورة يس، من الآية (١٥).
(٤) سورة الأحزاب، من الآية (٣٩).
(٥) سورة البقرة، من الآية (٨٠).
(٦) سورة آل عمران، من الآية (١١١).
(٧) سورة النحل، من الآية (٧).

ومثال "إنْ" قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ ﴾[2].

ب- تضامها في تراكيب لغوية مختلفة: ومما يؤكد أصالة "إلا" في باب الاستثناء وأنها "أم" الباب تضامها في صياغات جميلة مختلفة نحو قولهم: ناشدتك اللهَ إلا نصرت المظلوم، وحلفت بربي إلا عاونت الضعيف، وقول الشاعر:

بـــالله رَبِّـــكِ إلا قُلْـــتِ صَـــادِقةً هَلْ في لِقَائِكِ للمَشْغُوفِ مِنْ طَمَعِ[3]

وهذه صيغ جميلة تفيد مدلول القسم، فالقسم إما صريح، نحو: والله، وبالله، وتالله، وأقسم، وما شابه ذلك من كل نص صريح في القسم، أو القسم الضمني، نحو: ناشدتك الله، وسألتك الله.

وقد جاءت "إلا" متضامة مع كل من القسم الصريح، والقسم الضمني، وفي كل منهما لا تتضام غير "إلا" من أدوات الاستثناء، وليس ذلك إلا لها وحدها، مما يدل على أصالتها في بابها، وأميتها لأخواتها أدوات الاستثناء.

ويظهر من أمثلة القسم هذه، وأمثلة القصر السابقة أنهما يُكوّنان مضمونًا أو وظيفةً واحدة، هي وظيفة القصر، وقد اختصت بها "إلا" دون أخواتها، ومن هذه الخاصة حُكِمَ بأمومة "إلا" لباب الاستثناء، وكونها أصلًا في أدائه[4].

ج- تضامها قبل جملة الحال: ومن ورودها في سياقات أخرى مختلفة -لا توجد في أخواتها- تضامها قبل جملة الحال، كما في مثل قولهم: "ما تكلم إلا قال حقًا". فـ"إلا قال حقًا" جملة حالية من فاعل الفعل المنفي "ما تكلم"، ولا يمنع من ذلك كون الجملة أيضًا

---

(١) سورة فاطر، الآية (٢٣).

(٢) سورة الملك، من الآية (٢٠).

(٣) البيت لا يُعرف قائله. انظر: همع الهوامع ٤/ ٢٤٦، والدرر ٤/ ٢٢٢، ولم أعثر عليه في غير هذين المصدرين.

(٤) انظر: دلائل الإعجاز ٣٤٣، ومختصر السعد ٢/ ١٧٥-١٩٢.

صادقة على القصر بـ"ما" و"إلا"، ذلك لأن المثال من الناحية الدلالية نص في الحصر والقصر، ومن الناحية الإعرابية صادق على إعراب ما بعدها جملة حالية.

وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾[4]. فما بعد "إلا" في هذه الآيات وما يشبهها في محل نصب حال مما قبلها[5].

٣- تضام "أنْ" المصدرية:

تضام "أنْ" مع الفعل المضارع هو الأصل في تضامها في التراكيب المختلفة، لأنها تعمل في النصب في الفعل المضارع -دون غيره من الأفعال- ولكن "أنْ" لا يقف تضامها على الفعل المضارع، بل يتعداه إلى الفعل الماضي، وفعل الأمر. وليس ذلك لأخواتها، التي لا تتضام -في حالة التأثير الإعرابي- إلا مع الفعل المضارع.

أ- تضامها مع الفعل الماضي[6]: وذلك كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾[8].

---

(١) سورة الأعراف، الآية (٩٤).
(٢) سورة الشعراء، الآية (٢٠٨).
(٣) سورة سبأ، الآية (٣٤).
(٤) سورة الزخرف، الآية (٢٣).
(٥) انظر: البحر المحيط ٣٤٧/٤، ٤٥/٧، وغرائب القرآن ٢٨٦/٥، والدر المصون ٣٨٤/٥، ٥٥٩/٨، ١٩٢/٩، وفتح القدير ٢٨٤/٢، ١٤٨/٤، ٤٠٨.
(٦) انظر: الكتاب ١٥٤/٣، والمقتضب ٢٩/٢، ومعاني الحروف ٧٢، وشرح المفصل ٢٠/٧، وشرح التسهيل ٩/٤، والبسيط ٢٨٩/٢، ومغني اللبيب ١٦٩/١.
(٧) سورة الإسراء، الآية (٧٤).
(٨) سورة القصص، من الآية (٨٢).

ويلحظ في الآيتين تضام ﴿ لَوْلَآ ﴾ قبلها مفيدة لمعنى الشرط، ولا يكون ذلك إلا لـ"أنْ" دون غيرها من أخواتها.

وجعل سيبويه من تضامها مع الماضي قوله تعالى: ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[1].

والتقدير: ألِأن كان ذا مالٍ وبنينَ[2]، وقول الشاعر:

أأنْ رأتْ رَجُلًا أعْشى أضَرَّ به ... رَيْبُ المنونِ ودَهْرٌ مُفْسدٌ خَبِلُ[3]

ب- تضامها مع فعل الأمر، ذكر ذلك سيبويه بقوله:"وأما قوله: كتبت إليه أن افعل، وأمرته أن قم، فيكون ذلك على وجهين: على أن تكون "أنْ" التي تنصب الأفعال ووصلتها بحرف الأمر والنهي ... فوصلت "أنْ" بـ"قم"؛ لأنه في موضع أمر"[4].

ولا يخفى تحول الجملة مع "أنْ" إلى المصدر، فيتحول التركيب من الفعلية إلى الاسمية.

كما لا يخفى من تضام "أنْ" مع الفعلين الآخرَين –الماضي والأمر– استفادة التركيب اللغوي من هذا التضام، وتجاور "أنْ" مع الماضي والأمر من اكتساب دلالة زمنية مختلفة عنها مع الفعل المضارع، وهذا يزيد من تنوع التراكيب مع "أنْ" وتنوع الدلالات الزمنية، فإثراء التراكيب بالدلالات الزمنية المتنوعة، وتحول صيغ التركيب من مركبات فعلية إلى مركبات اسمية يفيد الاستمرار الزمني، أو الثبات الدلالي، حصل كله بفضل تضام "أنْ" مع الفعلين الماضي والأمر، وليس ذلك لإحدى أخواتها أدوات النصب.

ج- تضامها مع جملة الخبر في تركيبات أفعال المقاربة والرجاء: تختصُّ "أنْ" الناصبة بتضامها في الجملة الفعلية المضارعة، التي تقع خبرًا لأفعال المقاربة والرجاء –

---

(١) سورة القلم، الآية (١٤).

(٢) انظر: الكتاب ٣/ ١٥٤.

(٣) البيت للأعشى في ديوانه ١٤٦، والكتاب ٣/ ١٥٤، والمقتضب ١/ ٢٩٢، والأصول ٢/ ٤٠٥، والإنصاف ٥٨٧، وشرح المفصل ٣/ ٨٣.

(٤) الكتاب ٣/ ١٦٢، وانظر: شرح التسهيل ٤/ ٧، وتوضيح المقاصد ٤/ ١٨٥، والجنى الداني ٢٣٥، ومغني اللبيب ١/ ١٧٠، ١٧٢.

على تفاوتٍ في هذا- فهي واجبة مع حرى واخلولق، مثل: حرى العلمُ أن ينفع الأمة، واخلولقت السماء أن تمطر.

وتتضام كثيرًا مع خبر عسى وأوشك ومضارعها واسم فاعلها، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [1]، وَمُوشِكَةٌ أرضُنَا أنْ تَعُودَ، وأوشك زيدٌ أن يحضر، ويوشك الحجاج أن يرحلوا.

وتتضام قليلًا مع كاد وكرب، مثل: كاد زيدٌ أن يهلك، وقول الشاعر:

سَقَاهَا ذَوُو الأحلام سَجْلًا على الظما   وَقَدْ كَرَبَتْ أعناقُها أن تقطَّعا

لم يرد خبر "عسى" في القرآن الكريم إلا مقترنًا بـ"أنْ"، كما لم يرد خبر "كاد" إلا مجردًا منها [2].

د- تضامها مع "ظن" فتغني عن مفعوليها، كما تقول: ظننت أن يصل المسافر [3]، يقول سيبويه: "فأما ظننت وحسبت وخلت ورأيت فإن "أنْ" تكون فيها على وجهين: إما أن تكون "أنْ" التي تنصب الفعل المضارع، أو تكون الثقيلة" [4].

هـ- تضامها مع الشرط لإلغائها وتسليط الشرط عليه، كقولك: أردت أنْ إنْ تنجح أكافئك [5].

٤- تضام "إنَّ" الناسخة:

لـ"إنَّ" سمة خاصة تتميز بها عن بقية أخواتها، وهي تضامها مع أدوات لا تتضام معها أخواتها.

---

(١) سورة الإسراء، من الآية (٨).

(٢) انظر: الكتاب ٣/ ١٢، ٩٩، ١٥٧-١٦٦، وشرح جمل الزجاجي لابن عصفور ٢/ ٨٣٥، وشرح التسهيل ١/ ٣٩٠، والبسيط ٢/ ٦٧١، وتوضيح المقاصد ١/ ٣٢٦، ومغني اللبيب ١/ ١٦٦.

(٣) انظر: شرح جمل الزجاجي لابن عصفور ١/ ٣١٧، ٣١٨، وشرح الكافية الشافية ٢/ ٥٥٣، ٥٥٤.

(٤) الكتاب ٣/ ١٦٦.

(٥) انظر: ارتشاف الضرب ٢/ ٣٨٩.

أ- تضامها مع اللام في تركيباتها اللغوية المختلفة: تفيد "إنّ" الناسخة -مع الأثر الإعرابي- أثرًا دلاليًا واحدًا هو التوكيد [1]. فإذا كانت حال المخاطب هي الشك كان توكيد الكلام بمؤكّدٍ واحدٍ ليس كافيًا، بل ينبغي أن يتضام في الكلام أكثر من مؤكد؛ استجابة للحالة اللغوية التي تستدعي ذلك، فتضام اللام مع "إنّ"، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [3].

وقد قرر ابن مالك اختصاصَ "إنّ" المكسورة بخاصة تضام لام الابتداء -التوكيد- معها، وهذا مفهومٌ من قوله في الألفية:

وبعد ذاتِ الكَسْرِ تَصْحَبُ الخَبَرْ	لامُ ابتداءٍ نَحْوُ إنِّي لَوَزَرْ
وتَصْحَبُ الوَاسِطَ مَعْمُولَ الخَبَرَ	والفَصْلَ واسْمًا حَلَّ قَبْلَهُ الخَبَرْ [4]

مما يفيد أنّ دخول هذه اللام من اختصاصها دونَ المفتوحة ودون أخواتها [5].

وتضامها مع "إنّ" في أربع صور:

الصورة الأولى: تضامها مع الاسم: وحينئذ يجب تأخيره عن الخبر؛ حتى لا تجتمع "إنّ" واللام متواليتين، لأن كلًا منهما يفيد التوكيد، فلا يجمع مؤكّدان في صدر الكلام، وهذا ما تسمح به طبيعة التركيب اللغوي [6].

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [7]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [8].

---

(١) انظر: الكتاب ٤/ ٢٣٢، ومعاني القرآن للأخفش ١/ ١٠٨، والمقتضب ٢/ ٣٤٣، ٣٤٧، وشرح الكافية الشافية ١/ ٤٧١، وشرح التسهيل ٢/ ٦٢.

(٢) سورة النازعات، الآية (٢٦).

(٣) سورة التوبة، من الآية (٤٩).

(٤) ألفية ابن مالك ٣٤.

(٥) انظر: الكتاب ٣/ ١٤٧، والمقتضب ٤/ ١٠٤، وشرح الكافية الشافية ١/ ٤٩٠، ٤٩٢.

(٦) انظر: الكتاب ٢/ ١٣٤، ومعاني القرآن للأخفش ١/ ١٠٨.

(٧) سورة ق، من الآية (٣٧).

(٨) سورة الأعراف، من الآية (١١٣).

الصورة الثانية: تضامها مع الخبر: وإذا زيدت لام الابتداء في خبر "إنّ" لزمت الرتبة الأصلية، بأن يقع الخبر موقعه بعد الاسم [1]، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [3]، وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ [4]، دخلت لام الابتداء على الخبر المفرد، والجار والمجرور، والفعل المضارع -كما سبق-، أو كان فعلًا ماضيًا مصدَّرًا بـ"قد". مثل: إن الخليفة لقد قام في مصلحة الرعية، أو كان خبرها فعلًا ماضيًا جامدًا، مثل: إن الصدق لنعم الخلة، وإن الكذب لبئس الخليقة [5].

الصورة الثالثة: تضامها مع ضمير الفصل: كما تزاد قبل ضمير الفصل، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [6]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [7]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [8]. ويشترط له أن يتوسط بين اسم "إنّ" وخبرها [9].

الصورة الرابعة: تضامها مع معمول الخبر: كذلك تدخل لام الابتداء في سياق جملة "إنّ" على معمول خبرها. مثل قولك: إن زيدًا لعمرًا مكرم، فيجب حينئذ تقدمه على الخبر [10].

---

(١) انظر: شرح التسهيل ٢/ ٢٦، وتوضيح المقاصد ١/ ٣٤٥، وأوضح المسالك ١/ ٣٣٣.

(٢) سورة الأنعام، من الآية (١٤٦).

(٣) سورة الانفطار، الآيتان (١٣-١٤).

(٤) سورة العلق، الآية (٦).

(٥) انظر: الكتاب ١/ ١٤، ٢/ ١٣٢، ١٣٤، ٣/ ١٠٩، وشرح الكافية الشافية ١/ ٤٩٠، وتوضيح المقاصد ١/ ٣٤٤.

(٦) سورة آل عمران، من الآية (٦٢).

(٧) سورة الصافات، الآيتان (١٦٥-١٦٦).

(٨) سورة هود، من الآية (٨٧).

(٩) انظر: شرح الكافية الشافية ١/ ٤٩١، وشرح التسهيل ٢/ ٢٧، وتوضيح المقاصد ١/ ٣٥٦، وأوضح المسالك ١/ ١٣٨.

(١٠) انظر: شرح الكافية الشافية ١/ ٤٩١، وشرح التسهيل ٢/ ٢٧، وتوضيح المقاصد ١/ ٣٤٦، وأوضح المسالك ١/ ٣٣٧.

وقد منع النحاة تضام أي من أخوات "إنّ" مع اللام المؤكدة -لام الابتداء-. وعدوا ما خالف ذلك ضرورة شعرية. كقول الشاعر:

يَلُومُونَنِي فِي حُبِّ لَيْلَى عَوَاذِلِي ... ولَكِنَّنِي مِنْ حُبِّهَا لَعَمِيدُ [1]

حيث جاء خبر "لكن" "لعميد"، متصلًا بلام الابتداء، وعدوا ذلك ضرورة شعرية؛ لأن الغرضين متنافيان؛ فلا تحتاج "لكن" إلى توكيد؛ لأنها لا تقع مواقع الشك والإنكار حتى تحتاج إلى توكيد. فحكم بزيادة اللام، وعدم إفادتها التوكيد في مثل هذا السياق.

وذهب الفراء إلى أن اللام لحقت خبر "لكن"؛ لأن أصلها "إنّ". قال: "وإنما نصبت العرب بها إذا شددت نونها؛ لأن أصلها: إنّ عبدالله قائم؛ فزيدت على "إنّ" لام وكاف؛ فصارتا حرفًا واحدًا؛ ألا ترى أن الشاعر قال:

.... ولَكِنَّنِي مِنْ حُبِّهَا لَعَمِيدُ

فلم تدخل اللام؛ إلا أن معناها "إنّ""[2].

ب- تضامها مع النكرة وتهيئتها للابتداء بها. ذكر عبدالقاهر الجرجاني [3] أنّ من وظائف "إنّ" في الكلام أن تهيئ النكرة وتصلحها لأن يكون لها حكم المبتدأ فتكون محدثًا عنها بحديث من بعدها -أي: محكومًا عليها-[4]. كما في قول الشاعر:

إنّ شِوَاءً ونَشْوَةً ... وخَبَبَ البَازِلِ الأَمُونِ
مِنْ لَذَّةِ العَيشِ والفتى ... للدَّهرِ والدَّهرُ ذو فنونِ [5]

---

(١) البيت لا يعرف قائله. انظر: سر صناعة الإعراب ١/ ٣٨٠، وشرح المفصل ٨/ ٦٢، ٦٤، ورصف المباني ٢٣٥، والجنى الداني ١٢٣، ٦١٨، وتخليص الشواهد ٣٥٧، وشرح شواهد المغني ٢/ ٦٠٥، وخزانة الأدب ١/ ١٦، ١٠/ ٣٦١، ٣٦٣، والدرر ٢/ ١٨٥.

(٢) معاني القرآن ١/ ٤٦٥.

(٣) انظر: دلائل الإعجاز ٣١٦.

(٤) انظر: معاني القرآن للأخفش ٢/ ٢٨٧، والبحر المحيط ٤/ ٤٤٦.

(٥) البيت منسوب لسلمي بن ربيعة في شرح الحماسة للتبريزي ٢/ ٨٣، والسمط للبكري ١/ ٢٦٧، وشرح حواشي شرح الحماسة للمرزوقي ٢/ ٥٤٦.

فـ"إنّ" أضفت على السياق حسنًا، وصحة المعنى، ولو حذفت فقيل: "شواءٌ ونشوةٌ" لم يكن كلامًا.

فإن كانت النكرة موصوفة صالحة للابتداء بها؛ فإنها مع "إنّ" أحسن، والمعنى أولى وأوضح وأمكن، كما في قول الشاعر:

إنّ دَهْرًا يَلُفُّ شَمْلي بِسُعْدَى ... لَزَمانٌ يَهُمُّ بالإحْسانِ [1]

فليس يخفى –وإن كان يستقيم أن يقول: دَهرٌ يلفُّ شملي بسُعدى دهرٌ صالحٌ– أنْ ليس الحالان على سواء، وكذلك لا يخفى أن لو عمدت إلى قول الشاعر:

إنّ أمرًا فادِحًا ... عنْ جَوابي شَغَلَكْ [2]

فأسقطتَ "إنّ" لعدمت منه الحسن والطلاوة والتمكن الذي أنت واجده الآن، ووجدت ضعفًا وفتورًا.

وقد ورد دخول "إنّ" على النكرات الموصوفة كثيرًا في القرآن الكريم [3]، وعلى النكرات غير الموصوفة قليلًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [4].

والبازل من الإبل: الذي استكمل السنة الثامنة وطعن في التاسعة وفطر نابه. انظر: اللسان "بزل" ١١/ ٥٢.

والأمون: من النوق وثيقة الخلق، أمنت العثار والإعياء. انظر: اللسان "أمن" ١٣/ ٢٥.

(١) البيت غير منسوب في أمالي المرتضى ٢/ د ١٤، ودلائل الإعجاز ٣١٧.

(٢) البيت منسوب لأم السليك بن السلكة في شرح الحماسة للتبريزي ٢/ ١٩١، ١٩٢، وشرح الحماسة للمرزوقي ٢/ ٩١٤.

وغير منسوب في دلائل الإعجاز ٣١٧.

(٣) من ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [التوبة: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج: ٤٧].

(٤) سورة الأنعام، من الآية (١١٩).

وسهل هذا طول الكلام؛ فدل بعضه على بعض، وأضفى دخول "إنّ"، على المعنى توكيدًا، وتمكنًا في النفس، لم يكن ليوجد لولا وقوع "إنّ" في أول الجملة [1].

ج- تضامُّها مع ضمير الشأن: من خصائص "إنّ" أنها إذا تضامت مع ضمير الشأن يكون لها في السياق من الحسن واللطف ما لا يُرى إذا هي لم تدخل عليه، بل قد لا يصلح إلا بها [2]، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ [3]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [4]. وسواء أكانت الهاء المتضامة مع "إنّ" ضمير الشأن، أم كانت مفسرة لما بعده فلا بد فيه من "إنّ"، ولا سبيل إلى إسقاطها؛ لأنها إن سقطت أفضى ذلك إلى شيء شنيع [5]. يقول سيبويه: "ومما يضمر لأنه يفسره ما بعده ولا يكون في موضعه مظهر، قول العرب: إنه كرام قومك، وإنه ذاهبة أمتك. فالهاء إضمار الحديث الذي ذكرت بعد الهاء، كأنه في التقدير -وإن كان لا يتكلم به- قال: إن الأمر ذاهبة أمتك، وفاعلة فلانة، فصار هذا الكلام كله خبرًا للأمر، فكذلك ما بعد هذا في موضع خبره" [6].

٥- تضام باء القسم:

اختصت باء القسم بأنها تتضام مع الاسم مطلقًا -دون سائر حروف القسم- [7] ظاهرًا كان نحو: بالله لأفعلن الخير، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ [8]، أو مضمرًا، نحو: أقسمت بك عليك يا رب إلا نصرت المسلمين، ومنه قول الشاعر:

---

(١) انظر: معاني القرآن للأخفش ٢/٢٨٧، والبحر المحيط ٤/٤٤٦، والدر المصون ٥/٥٤٣.

(٢) انظر: الكتاب ١/٦٩، ٧٠، ٣/٧١، ٧٢، ومعاني القرآن ٢/٢٢٨، ومعاني القرآن وإعرابه ٤/١٥١، وإعراب القرآن ٢/٢٤٤، ودلائل الإعجاز ١٦١، ٣١٤-٣١٦.

(٣) سورة يوسف، من الآية (٩٠).

(٤) سورة الحج، من الآية (٤٦).

(٥) انظر: دلائل الإعجاز ٣١٦.

(٦) الكتاب ٢/١٧٦.

(٧) انظر: الكتاب ٣/٤٩٦، واللمع ١٠٦، والتبصرة والتذكرة ١/٤٤٥، وشرح المفصل ٩/١٠١، وشرح جمل الزجاجي ١/٥٢٣.

(٨) سورة النساء، من الآية (٦٢).

أَلَــا نَــادَتْ أُمامَــةُ باحْتِمَــالِ لِتَحْزُنَنــي فــلا بِــكِ مــا أُبــالِي [1]

وأما أخواتها: فالواو تختص بالاسم الظاهر، والتاء تختص باسم الجلالة [2]. فمثال الواو قوله تعالى عن الكفار يوم الحساب: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [3]. ومثال التاء قوله تعالى عن إبراهيم ﷺ: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ﴾ [4].

ومثل ذلك اللام ولا تكون إلا في سياق التعجب، كقولهم: لله دره فارسًا [5]، وكذا "ايمن" و"ايم" لا تكون إلا مع لفظ الجلالة [6]، كقوله ﷺ: (وايم الله لو أن فاطمة سرقت لقطعت يدها)[7].

ويصح مع باء القسم إظهار فعل القسم معها -دون سائر أخواتها- ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ [8]، فتقول: أحلف بالله، وأقسم بالله العظيم، ولا يكون ذلك مع غيرها [9].

---

(١) البيت لغوية بن سلمى بن ربيعة في لسان العرب ٥/ ٤٤٣ "با".
وغير منسوب في الخصائص ٢/ ١٩، واللمع ١٠٦، وسر صناعة الإعراب ١/ ١٠٤، ١٤٤، والتبصرة والتذكرة ١/ ٤٤٥، والمفصل ٣٤٦، وشرحه ٨/ ٣٤، وشرح جمل الزجاجي ١/ ٥٢٣، ورصف المباني ٢٢٤.

(٢) انظر: الكتاب ٣/ ٤٩٦، ٤٩٨، والمقتضب ٢/ ٣١٩، والأصول ١/ ٤٣٠، وشرح كتاب سيبويه ٤/ ٢٣٧، واللمع ١٠٧، والتبصرة والتذكرة ١/ ٤٤٥، وأسرار العربية ٢٥٠، وشرح المفصل ٨/ ٣٣، وشرح جمل الزجاجي ١/ ٥٢٤.

(٣) سورة الأنعام، من الآية (٢٣).

(٤) سورة الأنبياء، من الآية (٥٧).

(٥) انظر: الكتاب ٣/ ٤٩٧، والأصول ١/ ٤٣٠، وشرح كتاب سيبويه ٤/ ٢٣٨، والتبصرة والتذكرة ١/ ٤٤٥، وشرح المفصل ٩/ ٩٨، ٩٩.

(٦) انظر: الكتاب ٣/ ٥٠٢، ٥٠٣.

(٧) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود (٨٦)، باب كراهية الشفاعة في الحد (١٢)، ٨/ ١٦، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود (٢٩)، باب قطع السارق والشريف وغيره (٢)، برقم (١٦٨٨)، ٥/ ١١٤.

(٨) سورة الأنعام، من الآية (١٠٩)، وسورة النحل، من الآية (٣٨)، وسورة النور، من الآية (٥٣)، وسورة فاطر، من الآية (٤٢).

(٩) انظر: الكتاب ٣/ ٤٩٧، والمقتضب ٢/ ٣١٧، والأصول في النحو١/ ٤٣١، وشرح كتاب سيبويه ٤/ ٤٩٧.

كما اختصت الباء بكونها جارة في القسم وغيره، ولا تخرج عن ذلك؛ بخلاف أخواتها، فإنها تستعمل في مواقع كثيرة، كاستعمال الواو للعطف، واللام للتعليل، والتاء للإشارة. وورود "باء" القسم في هذه المواضع يعطيها القدر الأكبر من التصرف المرتبط بالدلالة، وهذا ما يميزها عن أخواتها حروف القسم، ويؤذن بأصالتها وأحقيتها بأمّية بابها، على الرغم من أن الواو أكثر استعمالًا منها [1].

٦- تضام "لم":

"لم" تعمل الجزم في الفعل المضارع وتحيله إلى الماضي المطلق [2]، كقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ [3]، وأما أخواتها فإنها تعمل الجزم في الفعل المضارع بقيد؛ فـ"لما" قيدها أن يكون الزمان الماضي قريبًا من الحال، كقوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ ﴾ [4]، وقد اجتمع المعنيان في قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [5].

ولا تعمل "لا" الجزم إلا في المضارع الواقع طلبًا، نهيًا كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ [6]، أو دعاءً، كقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [7].

---

(١) انظر: الكتاب ٣/٤٩٦، والأصول في النحو ١/٤٣٠، وشرح كتاب سيبويه ٤/٢٣٧، وشرح المفصل ٩/٩٩، وشرح جمل الزجاجي ١/٥٢٥.

(٢) انظر: الكتاب ١/١٣٦، ٤/٢٢٠، ومعاني الحروف ١٠٠، وشرح ملحة الإعراب ٣٥١، والمفصل ٣٠٩، وأسرار العربية ٢٩٧، وشرح المفصل ٧/٤١، وشرح التسهيل ٤/٥٨، ٥٩، وشرح الرضي القسم الثاني ٢/٨٩٥.

(٣) سورة الإسراء، من الآية (١١١).

(٤) سورة عبس، الآية (٢٣).

(٥) سورة الحجرات، من الآية (١٤).

(٦) سورة النساء، الآية (١٧١).

(٧) سورة الأعراف، من الآية (٤٧).

ولا تعمل اللام الجزم في المضارع إلا إذا كان طلبًا، أمرًا كقوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ١٨٦﴾ [1]، أو دعاء، كقوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ٧٧﴾ [2][3].

كما اختصت "لم" بأنها تتضام مع المضارع المقصود به التكلم، نحو: لم أسافر، أو المخاطب، نحو: لم تسافر، أو الغائب، نحو: لم يسافر سعيد، بخلاف أخواتها، فـ"اللام" تعمل الجزم في الفعل المضارع للفاعل المخاطب على الصحيح، كما في قراءة بعضهم بالتاء قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [4].

ويقل دخولها على ما يدل على المتكلم كقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ [5]، وقوله ﷺ: (قوموا فلأصلِّ لكم)[6].

وأما "لا" فتختص المخاطب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ [7].

والغائب، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [8].

وقلَّ كونه للمتكلم، كقول الشاعر:

---

(١) سورة البقرة، من الآية (١٨٦).

(٢) سورة الزخرف، من الآية (٧٧).

(٣) انظر: المفصل ٣٠٧، وشرح ملحة الإعراب ٣٥١، ٣٥٢، وشرح الرضي القسم الثاني ٨٩٨/٢، والجنى الداني ١٥٢.

(٤) سورة يونس، من الآية (٥٨)، وهي قراءة ابن عامر في رواية عنه، ورواية الكسائي، وهي قراءة جمع من الصحابة، منهم: زيد بن ثابت، وعثمان بن عفان، وأبي بن كعب ﷺ، وقراءة عدد من التابعين، منهم: أبو عبدالرحمن السلمي، وقتادة، ومحمد بن سيرين وغيرهم.

انظر: معاني القرآن للأخفش ٣٤٥/١، وتفسير الطبري ١٢٦/١١، والمحتسب ٣١٣/١، وإعراب القرآن ٢٥٩/٢، والحجة في القراءات ١٨٢، والنشر ٢٨٥/٢.

(٥) سورة العنكبوت، من الآية (١٢).

(٦) رواه البخاري بلفظ "فلأصلي لكم" في كتاب الصلاة (٨)، باب الصلاة على الحصير (٢٠)، برقم (٣٨٠)، ١٠١/١، وفي فتح الباري ٤٩٠/١: "حكى ابن قرقول عن بعض الروايات "فلنصل"، بالنون وكسر اللام والجزم".

(٧) سورة النساء، من الآية (٢).

(٨) سورة الحجرات، من الآية (١١).

لا أعْـرِفَنْ رَبْرَبًـا حُـوراً مَـدامِعُها　　　كـأنَّ أبكارَهـا نعـاجُ دُوَّارِ [1][2]

٧- تضام الواو العاطفة:

تتميز الواو العاطفة بأنها تتضام مع أدوات لا تتضام معها أخواتها الأخريات من حروف العطف [3]، وذلك على النحو التالي:

أ- تضامها مع "لكنْ": مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ٱللَّهُ ﴾ [4].

فالحرف "لكن" -وهو من حروف العطف- لا يتضام مع غير الواو، فإذا تضامت مع الواو فإنها تتمحض لمعنى الاستدراك، ويخلص العطف للواو [5].

ب- تضامها مع الحرف "إما" سابقة له بشرط سبقها بـ"إما" أخرى متقدمة عليها [6]، كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا

---

(١) البيت للنابغة في ديوانه ١٢٣، والكتاب ٣/٥١١، والتصريح ٢/٣٩٢، وشرح شواهد المغني ٢/٦٢٥.
وغير منسوب في شرح الألفية لابن الناظم ٦٩٢، وتوضيح المقاصد ٤/٢٢٦، ومغني اللبيب ٣/٢٢١، وأوضح المسالك ٤/١٨٠، وشرح الأشموني ٤/٣.
والربرب: القطيع من البقر الوحشي. انظر: اللسان مادة "ربب".
والحور: جمع حوراء وهو شدة بياض العين مع شدة سوادها. انظر: اللسان مادة "حور".
والنعاج: إناث البقر الوحشي. والدوار: كثبان الرمل المستدير تدور الوحش حوله.

(٢) انظر: شرح المفصل ٧/٤١، وشرح الألفية لابن الناظم ٦٩٠، وشرح الرضي القسم الثاني ٢/٨٩٨، وتوضيح المقاصد ٤/٢٢٥، ومغني اللبيب ٣/٢٢٠، والمقاصد النحوية ٣/٤٠٤، والتصريح ٢/٣٩٣.

(٣) انظر: الكتاب ١/٣٩٩، وإعراب القرآن ٢/٢٥٦.

(٤) سورة الأحزاب، من الآية (٤٠).

(٥) انظر: رصف المباني ٣٤٥، والجنى الداني ٣٢٣-٣٢٦، ومغني اللبيب ٣/٣٤٨-٣٥٢، ٤/٣٥٨، والتصريح ٢/١٦٠.

(٦) الكتاب ١/٢٦٧، ٢٦٨، ومعاني الحروف للرماني ١٣٠، ورصف المباني ١٨٣، ١٨٤، والجنى الداني ٤٨٧، ومغني اللبيب ٤/٣٥٥، والتصريح ٢/١٥٩.

﴿ مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾[1]، فقد تقدمت الواو "إما" الثانية، المسبوقة بـ"إما" الأولى، ولا يكون ذلك لغير الواو من حروف العطف.

ج- تضامها بين النّيف والعَقد: إذا أُريد عطف العقد، مثل عشرين، أو ثلاثين، أو أربعين ... الخ، على النّيف السابق على حرف العطف "الواو" كان العاطف هو الواو[2]، نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾[3]، فكل عطف على نيف يكون بالواو خاصة دون غيرها من حروف العطف.

د- تضامها مع "لا" النافية مسبوقة بأحد الأشياء التالية:

١- بالنهي بـ"لا"، نحو قولك: لا تصدّق الحلاف، ولا النمام، ولا الحاسد.

٢- النفي بـ"لا"، نحو قولك: لا زيد في الدار ولا عمرو، ومررت برجل لا فارس ولا شجاع.

٣- النفي بـ"ما"، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾[4][5].

هـ- عطفها العام على الخاص وعكسه: تختص الواو بعطف العام على الخاص، كقوله تعالى: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾[6].

وعطف الخاص على العام، كقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾[7][8].

---

(١) سورة محمد، من الآية (٤).

(٢) انظر: مغني اللبيب ٤/ ٣٥٩.

(٣) سورة ص، من الآية (٢٣).

(٤) سورة فاطر، الآيات (١٩-٢٢).

(٥) انظر: الكتاب ٢/ ٢٨٥، ٢٨٦، ٣٠٠، ٣٠٥-٣٠٩، ومغني اللبيب ٤/ ٣٥٥، والتصريح ٢/ ١٥٩.

(٦) سورة نوح، من الآية (٢٨).

(٧) سورة البقرة، الآية (٩٨).

(٨) انظر: مغني اللبيب ٤/ ٣٦٢، والتصريح ٢/ ١٥٩.

و- تضامها في أسلوب الإغراء والتحذير، حيث تتضام بين الأمرين؛ المغرى بهما، نحو: الرفقَ والملاينةَ، الصداقةَ والوفاءَ، أو المحذَّر منهما، نحو: الكذبَ والغرورَ، الفتنةَ والنميمةَ، ولا يكون ذلك بغير الواو [1].

ز- تضامها بين المعطوفات المفردة التي كان حقها أن تجيء مُثنّاة، أو مجموعة [2]. بدلًا من مجيئها مفردات معطوف بعضها على بعض، مثل قول الشاعر:

إنَّ الرزيَّةَ -لا رَزِيَّةَ بَعْدَهَا- فقدانُ مثلِ محمدٍ ومحمدِ [3]

وقول الآخَر:

أقمْنَا بها يومًا ويومًا وثالثًا ويومًا له يومُ التَّرحُّلِ خامِسُ [4]

ح- عطفها الصفات المفرقة مع توحد موصوفها [5]، كقول الشاعر:

بَكيْتُ وما بُكا رجلٍ حزينٍ على رَبْعَينِ: مسلوبٍ وبالِ [6]

ط- انفرادها بجواز عطفها الصفة على الموصوف، قال سيبويه: "وإذا أردت بالكلام أن تجريه على الاسم كما تجري النعت لم يجز أن تدخل الفاء؛ لأنك لو قلت: "مررت بزيد أخيك وصاحبك"، كان حسنًا، ولو قلت: "مررت بزيد أخيك فصاحبك"، والصاحب زيد؛

---

(١) انظر: الكتاب ٢٧٤/١، والتصريح ١٥٩/٢.

(٢) انظر: الكتاب ٣٤١/١، ومغني اللبيب ٣٦٠/٤، والتصريح ١٥٩/٢.

(٣) البيت للفرزدق في ديوانه ١٦١/١، ومغني اللبيب ٣٦٠/٤، والتصريح ١٥٩/٢، وهمع الهوامع ٢٢٦/٥، وشرح شواهد المغني ٧٧٥/٢، وشرح أبيات المغني ٨٠/٦.

(٤) البيت لأبي نواس في ديوانه ٣٧، والأمالي الشجرية ١١/١، ومغني اللبيب ٣٦٠/٤، وهمع الهوامع ٢٢٧/٥، وخزانة الأدب ٤٦٢/٧.

وغير منسوب في شرح جمل الزجاجي ١٤٦/١، وارتشاف الضرب ٣٢٩/٣.

(٥) انظر: الكتاب ٤٣١/١، والإغفال ٤٩، ومغني اللبيب ٣٥٩/٤، والتصريح ١٥٩/٢، وشرح أبيات المغني ٧٨/٦.

(٦) البيت منسوب لرجلٍ من باهلة في الكتاب ٤٣١/١.

وغير منسوب في المقتضب ٢٩١/٤، ومغني اللبيب ٣٥٩/٤، والتصريح ١١٩/٢، ١٥٩.

ومنسوب لابن ميادة في ديوانه ٢١٤، وفي شرح أبيات سيبويه ٦٠٣/١، وشرح شواهد المغني ٧٧٤/٢.

لم يجز. وكذلك لو قلت: "زيد أخوك فصاحبك ذاهب". لم يجز. ولو قلتها بالواو حسنت. كما أنشد كثير من العرب لأمية بن أبي عائذ:

ويأوي إلى نسوةٍ عُطَّلٍ وشُعثٍ مراضيعَ مثلِ السَّعالي [1]

ولو قلت: "فشعثٍ". قبح"[2].

وجعل الفراء من ذلك قوله تعالى: ﴿ الٓمٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [3]. على أن ﴿ وَٱلَّذِيٓ ﴾ صفة لـ﴿ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ مع وجود الواو، كما في قول الشاعر:

إلى الملكِ القَرْمِ وابنِ الهُمامِ وليثِ الكتيبةِ في المُزدَحَمْ [4]

قال الفراء: "فعطف بالواو وهو يريد واحدًا، ومثله: "أتانا عن أبي حفص والفاروق". وأنت تريد: عمر بن الخطاب ﷺ"[5].

ي- انفرادها بعطف المجرور بالمجاورة [6]، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ ﴾ [7]، في قراءة ابن كثير وحمزة وأبي عمرو بجر ﴿ وَأَرۡجُلَكُمۡ ﴾ [8]، وكما في قراءة الجر لـ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ عند حمزة والكسائي [9] من قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٍ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ ﴾ [10].

---

(1) البيت في الكتاب ١/٣٩٩، ٢/٦٦، وشرح أشعار الهذليين ٢/٥٠٧، وخزانة الأدب ٢/٤٢٦. وغير منسوب في معاني القرآن ٣/٢١٦، والإغفال ٢/٤٩، وشرح الأشموني ٣/٦٩.
(2) الكتاب ١/٣٩٩، وانظر: ٢/٦٦.
(3) سورة الرعد، من الآية (1).
(4) البيت غير منسوب في معاني القرآن ١/١٠٥، ٢/٥٧، ٨٥، والإنصاف ٣٧٦، وخزانة الأدب ١/٤٥١.
(5) معاني القرآن ٢/٨٥، وانظر: ٣/٢١٦.
(6) انظر: معاني القرآن ٣/١٢٣، ومجاز القرآن ١/٥٥١، ومعاني القرآن للأخفش ١/٥٥٢، ومعاني القرآن وإعرابه ٢/١٢٣، وإعراب القرآن ٢/٩، ومشكل إعراب القرآن ١/٢٢١، ومغني اللبيب ٤/٣٦٨.
(7) سورة المائدة، من الآية (6).
(8) وقراءة غيرهم بالنصب. انظر: السبعة ٢٤٢، والحجة ٣/٢١٤، والكشف ١/٤٠٦، والعنوان ٨٧، والنشر ٢/٢٥٤.
(9) وقراءة غيرهما بالرفع. انظر: السبعة ٦٢٢، وإعراب القراءات ٦٩٤، والتيسير ٢٠٧، والنشر ٢/٣٨٢.
(10) سورة الواقعة، الآيات (٢٠-٢٢).

وهذا الوجه -وإن أنكره جمع من العلماء منهم: الزجاج [1]، وأبو جعفر النحاس [2]، وابن خالويه [3]، ومكي بن أبي طالب [4]، وأبو حيان [5]، وغيرهم- يجب احترام وجهة نظر القائلين به، لأن له نظائر في العربية، وورد في التنزيل نصوص -ليست قليلة- يمكن أن تحمل على هذا الوجه [6].

وقال به عدد من العلماء منهم: أبو عبيدة [7]، والأخفش [8]، وابن زنجلة [9]، والزمخشري [10]، والعكبري [11]، وابن هشام [12]، وابن عقيل [13]، قالوا: إنه قد يعطف الاسم على الاسم ومعناهما مختلف، وأن الشيء يعطى حكم الشيء إذا جاوره، وهو أولى من تمحل التأويل وتكلف التخريج، كما أن فيه احتراماً لظاهر النصِّ القرآني [14]. قال أبو البقاء

---

(1) انظر: معاني القرآن وإعرابه ٢/ ١٥٣.

(2) انظر: إعراب القرآن ٢/ ٩.

(3) انظر: إعراب القراءات السبع ١/ ١٤٣.

(4) انظر: مشكل إعراب القرآن ١/ ٢٢١.

(5) انظر: البحر المحيط ٣/ ٤٣٧، ٨/ ١٧٤.

(6) منها قراءة الحسن: ﴿وَرَسُولِهِ﴾ بالجر من قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٣]. انظر: إعراب القراءات الشواذ ١/ ٣١٦، والكشاف ٢/ ١٧٣، والبحر المحيط ٥/ ٦، والجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٤، ٨/ ٧٠.

وفي قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ [الرحمن: ٣٥]. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ونحاسٍ﴾ ونحاسٍ بالجر، وقراءة الباقين ﴿ونحاسٌ﴾ بالرفع.

انظر: السبعة ٦٢١، والحجة ٦/ ٢٤٩، والتبصرة ٦٩٠، والعنوان ١٨٤، والنشر ٢/ ٣٨١.

(7) انظر: مجاز القرآن ٢/ ٥٥، وإعراب القرآن ٢/ ٩، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٢٢١.

(8) انظر: معاني القرآن ١/ ٢٥٥، وإعراب القرآن ٢/ ٩، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٢٢١.

(9) انظر: حجة القراءات ٢٢٣.

(10) انظر: الكشاف ٢/ ١٧٣.

(11) انظر: التبيان ١/ ٤٢٢.

(12) انظر: مغني اللبيب ٤/ ٣٦٨، ٦/ ٦٦٠.

(13) انظر: المساعد ٢/ ٤٠٤.

(14) انظر: معاني القرآن ٣/ ١٢٣، وحجة القراءات ٢٢٣، ومغني اللبيب ٤/ ٣٦٨، ٦/ ٦٦٠، والمساعد ٢/ ٤٠٤، والتصريح ٢/ ١٥٩، والحمل على الجوار ٥٠.

العكبري –عن جر قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾: "ويقرأ بالجر، وهو مشهور أيضًا كشهرة النصب ... وهو الإعراب الذي يُقال: "هو على الجوار". وليس بممتنع أن يقع في القرآن لكثرته"[1].

ك– انفرادها بعطف الشيء على مرادفه إذا اختلف لفظاهما[2]، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[6]، وقول الشاعر:

وقـدّدتِ الأديـمَ لراهِـشَيهِ ... وألفى قولَها كَـذبًا ومَينا[7]

ل– عطفها ما لا يُستغنى عنه[8]، كقولهم: تشارك زيد وعمرو، واصطف سعد وبكر، واختصم خالد وأحمد، وجلس سعيد بين بدر وفهد، ومن النحويين من ذكر أكثر من ذلك[9].

إن هذه التنويعات المختلفة لمميزات الواو عند تضامها مع الأساليب المختلفة تهيؤها لأن تكون "أمّ" الباب وأصل حروف العطف.

٨– تضام "يا" في النداء:

---

(١) التبيان ١/٤٢٢.

(٢) انظر: معاني القرآن ١/٣٧، ومجاز القرآن ١/٣١٧، وتفسير الطبري ١/٤٢، ١٣/٤٥، ومعاني القرآن وإعرابه ١/٢٠٠، ٢/٣٥٠، ومغني اللبيب ٤/٣٦٥، والتصريح ٢/١٥٨.

(٣) سورة يوسف، من الآية (٨٦).

(٤) سورة طه، الآية (١٠٧).

(٥) سورة البقرة، من الآية (١٥٧).

(٦) سورة المائدة، من الآية (٤٨).

(٧) البيت لعدي بن زيد في ديوانه ١٨٣، ومعاني القرآن ١/٣٧، وشرح شواهد المغني ٢/٧٧٦، والدرر ٦/٧٢. وغير منسوب في إعراب القرآن ١/٢٢٥، ومغني اللبيب ٤/٣٦٦، وهمع الهوامع ٥/٢٢٦.

(٨) انظر: شرح الكافية الشافية ٣/١٢٠٧، ومغني اللبيب ٤/٣٦١، والتصريح ٢/١٥٧.

(٩) انظر: مغني اللبيب ٤/٣٥٥، والتصريح ٢/١٧٥، والنحو الوافي ٣/٥٦٢.

"يا" هي أعم حروف النداء، وأكثرها تصرفًا، فتدخل في جميع أبواب النداء، فيقال في النداء: يا سعيد كن صادق الوعد. وتدخل في النُّدْبة -إذا أمن اللبس- نحو: يا عمراه. وتنفرد بباب الاستغاثة. نحو: يا لله للمسلمين. كما تدخل في أنواع المنادى الخمسة: تقول في المفرد العلم: يا محمد ساعد الضعيف، وفي النكرة المقصودة: يا رجل افعل المعروف، وفي النكرة غير المقصودة: يا غافلًا والموت يطلبه. وفي المنادى المضاف: يا باغي الخير أقبل. وفي شبهه: يا آمرًا بالمعروف ترفق. كما تكون في جميع صور النداء القريب والبعيد [1].

وتتضام "يا" النداء مع أشياء كثيرة -إذا حذف المنادى-. فتتضام مع الفعل، ومع "ليت"، ومع "رب"، ومع حبذا [2]. كما في قراءة الكسائي وأبي جعفر [3]: ﴿ أَلَا يَا اسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ [4]. بتخفيف ﴿ أَلَا ﴾ وتتضام مع "ليت" كقوله تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ﴾ [5]. وقوله تعالى: ﴿ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [6].

وتتضام مع "رُبّ". كما في قوله ﷺ: (يا رُبَّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة) [7].

وقول الشاعر:

---

(١) انظر: الكتاب ٢/٢١٨، ٢٣١، والمقتضب ٤/٢٣٥، ومعاني الحروف ٩٢، وشرح ملحة الإعراب ٢٥٠، والتصريح ٢/٢٠٦.

(٢) انظر: معاني القرآن ٢/٢٩٠، وإعراب القرآن ٣/٢٠٦، ومعاني الحروف ٩٢، والكشاف ٣/٤٥، والمفصل ٤٨، والتخمير ١/٣٧١، وشرح المفصل ٢/٢٤، والتسهيل ١٧٩، وشرحه ٣/٣٨٨، والجنى الداني ٣٥١، ومغني اللبيب ٤/٤٤٩، وهمع الهوامع ٣/٤٤.

(٣) وقراءة البقية ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا ﴾ بتشديد اللام وبعدها فعل مضارع.

انظر: السبعة ٤٨٠، والحجة في القراءات السبعة ٢٧٠، والحجة للقراء ٥/٣٨٢، والعنوان ١٤٤، والنشر ٢/٣٣٧، وإتحاف فضلاء البشر ٣٣٦.

(٤) سورة النمل، من الآية (٢٥).

(٥) سورة القصص، من الآية (٧٩).

(٦) سورة الحاقة، الآية (٢١).

(٧) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد (١٩)، باب تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب (٥)، برقم (١١٢٦)، ٣/١٠، الترمذي في سننه، كتاب الفتن (٣١)، باب ما جاء: (ستكون فتن كقطع الليل المظلم) (٣٠)، برقم (٢١٩٦)، ٤/٤٢٢.

يا رُبَّ غابِطِنا لو كانَ يعرِفُكم ... لاقى مباعدةً منكم وحِرمانا [1]

وتتضام مع "حبذا" كما في قول عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

يا حَبَّذا الجَنَّةُ واقترابُها ... طَيِّبةٌ وبارِدٌ شَرابُها [2]

كما تختص بنداء اسم الله تعالى، فيُقال: يا الله [3].

وتتضام –أيضًا– مع "أيها" و"أيتها" –دون أخواتها[4]–، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [5]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ [6]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [7].

النوع الثاني: الضمائر الزائدة:

مصطلح "الزيادة" ومصطلح "الإلغاء" بَصْريان [8]، ومصطلح "الصلة" ومصطلح "الحشو" كوفيان [9]، ويفسر ابن يعيش معنى الزيادة بقوله: "إنها ما يكون دخوله كخروجه من غير إحداث معنى" [10].

---

(١) البيت لجرير في ديوانه ٤٩٢، والكتاب ٤٢٧/١، والمقتضب ١٥٠/٤، والتصريح ٦٨١/١، وهمع الهوامع ٢٧٠/٤، والدرر ٩/٥.
وغير منسوب في معاني القرآن ١٥/٢، والمقتضب ٢٢٧/٣، وشرح الأشموني ٢٤٠/٢.
وهذا البيت استشهد به سيبويه وغيره على أن الصفة لم تتعرف بالإضافة؛ لدخول "رُب" عليها، و"رُب" لا تدخل إلا على النكرات.

(٢) البيت لعبدالله بن رواحة رضي الله عنه في سيرة النبي ﷺ لابن هشام ٤٢٤/٣، ولم أعثر عليه في ديوانه.

(٣) انظر: الكتاب ١٩٥/٢، ومعاني القرآن ٢٠٤/١، وتفسير الطبري ٢٢١/٣، وشرح ملحة الإعراب ٢٥٢، وأسرار العربية ٢١٢.

(٤) انظر: الكتاب ١٠٦/٢، ١٨٨، ١٩٢، ١٩٧، ٢١١، والمقتضب ٢١٦/٤، ٢٦٦، ومجالس ثعلب ٥٨٦/٢، واللمع ٦٢، والتبصرة والتذكرة ٣٤٤/١، والمفصل ٣٩، وشرح ملحة الإعراب ٢٥٣، وأسرار العربية ٢١٠، وشرح الكافية الشافية ١٣١٨/٣.

(٥) سورة فاطر، الآية (١٥).

(٦) سورة التحريم، من الآية (١).

(٧) سورة الفجر، الآيتان (٢٧–٢٨).

(٨) انظر: الكتاب ٢١٦/٣، ٤٣٣، ٢٢٥/٤، ٣٢٦، ٣٣٩، والمقتضب ١٩٤/١، ٣٣٥/٣، ١١٦/٤، ١٣٦، ١٣٧، ٤٢١، ومعاني القرآن للأخفش ٥٣/١، ١١٢، ٢٠٩، ٢٢٠، ٢٩٤، ٤٤٧.

(٩) انظر: معاني القرآن ٢١٨/١، ٥٨، ١٧٢، ١٧٦، ٢٤٤، ١٣٧/٣، ومجالس ثعلب ١٠٢/١، ١٥١، ١٩١، ٢٢٤، ٥١/٢، وشرح القصائد السبع الطوال ٣٣، ١٠٢، ٣٨٧، ٥٥٣.

(١٠) شرح المفصل ١٢٨/٨، وانظر: ارتشاف الضرب ٩٤/١، والأشباه والنظائر ١٧٦/٢.

وينبغي فهم هذا القول عن ابن يعيش فهمًا خاصًا، وأنه -شأنه كشأن النحاة- لم يقصد المعنى الحرفي لهذا التعبير "دخوله كخروجه"، وذلك لأن كثيرًا من النحاة لما فهموا هذا المعنى حرفيًا أنكروا الزيادة، خاصةً في كتاب الله الكريم. وقالوا: ليست هناك زيادة في كتاب الله تعالى، وأنه ليست هناك كلمة زائدة دون أن تفيد معنى، وإلا كانت زيادتها نوعًا من العبث [1]. ولكن المثبتين للزوائد داخل بعض التركيبات اللغوية لم يقصدوا هذا الفهم الحرفي.

فقد ذكر سيبويه: أن المقصود بالزيادة هو التوكيد [2]. ففي قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾[3]. قال عن الباء في قوله: ﴿ فَبِمَا ﴾: "وهي لغو في أنها لم تُحْدِثْ -إذا جاءت- شيئًا لم يكن قبل أن تجيء من العمل، وهي توكيد للكلام"[4].

فالزيادة -كما ذكر سيبويه- لها وظيفة لغوية، وليست لغوًا كما فهم بعض المفسرين، هذه الوظيفة هي التوكيد، وقول سيبويه عن الزيادة: أنها "لغو" لا تجعلنا نقول بعبثية صيغ الزيادة؛ إذ فسّر "اللغو" بقوله: "وهي لتوكيد الكلام"[5].

وأكد السيرافي في تفسيره لمصطلح "الزيادة" في الحرف عند سيبويه، فبيّن أنه "توكيد"، لئلا يظن إنسان أنه دخل لغير معنى ألبتة؛ لأن التوكيد معنى صحيح [6].

ومذهب غيره: أنها زيدت طلبًا للفصاحة؛ ومعنى الفصاحة هنا -كما ذكر السيرافي في تفسيره لكلام سيبويه- أنه ربما كانت الصيغة مزيدة للتمكن من النظم الشعري، والنثر الفني المسجوع، فإذا زيد شيء من ذلك تأتّى لذلك المنظوم أو المسجوع وصلح[7].

---

(١) انظر: الإعراب عن قواعد الإعراب ١١٦.

(٢) انظر: الكتاب ١٨١/١، والمقتضب ٤/١١٦، ١١٧، وشرح كتاب سيبويه ٥/٥٧، والخصائص ٢/٢٧٩، وشرح والمفصل ٨/١٢٩، والأشباه والنظائر ٢٤٧/١.

(٣) سورة المائدة، من الآية (١٣).

(٤) الكتاب ٤/٢٢١.

(٥) انظر: الكتاب ٤/٢٢٥، وشرح كتاب سيبويه ٥/١٠١، والخصائص ٢/٢٨٤، وشرح المفصل ٨/١٢٩.

(٦) انظر: شرح كتاب سيبويه ٥/٩٨.

(٧) انظر: شرح الرضي القسم الثاني ١٣٧١/٢، ١٣٧٢، والفوائد الضيائية ٢/٣٧٠، والأشباه والنظائر ٢٤٨/١.

ويقول عنها الرضي: "ولا يجوز خلوها من الفوائد اللفظية والمعنوية معًا، وإلا لعُدَّت عبثًا، ولا يجوز ذلك في كلام الفصحاء، ولا سيما في كلام الباري وأنبيائه"[1].

١- تضام "أنْ" الزائدة:

تضام "أنْ" لإفادة سرعة حدوث الفعل، فتختص "أنْ" - دون أخواتها - بسرعة وقوع الفعل بعدها، ويسميها النحاة الزائدة، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾[3]. وهي المتضامة بعد "لما" التوقيفية -الحينية-، أو الواقعة بين "لو" وفعل القسم[4]، كقول الشاعر:

أمَا -واللهِ- أنْ لو كُنْتَ حُرًّا ... وما بالحرّ أنت ولا العَتيقِ[5]

وتزاد قليلًا بين الكاف ومجرورها[6]، كما في قول الشاعر:

ويومًا توافينا بوَجْهٍ مُقَسَّمٍ ... كـ"أنْ" ظبيةٍ تَعْطُو إلى وارق السَّلَمْ[7]

وفي رواية من جر "ظبية" بالكاف، أي كظبية، وتضامت "أنْ" بينهما، وعدت "أنْ" زائدة.

وأقل من ذلك أن تزاد بعد "إذا"[8]، كما في قول الشاعر:

---

(١) شرح الرضي القسم الثاني ١٣٧٢/٢.

(٢) سورة العنكبوت، من الآية (٣٣).

(٣) سورة يوسف، من الآية (٩٦).

(٤) انظر: الكتاب ١٠٦/٣، ١٥٢، ومعاني القرآن للأخفش ١١٤/١، والمقتضب ٢٥٩/٢، وإعراب القرآن ٣٤٤/٢.

(٥) البيت غير منسوب في معاني القرآن ٤٤/٢، وإعراب القرآن ٣٢٧/٢، والإنصاف ١٦٧، ومغني اللبيب ٢٠٧/١، والمقاصد النحوية ٣٧٣/٣، وهمع الهوامع ٢٤٣/٤.

(٦) انظر: الأمالي الشجرية ٣/٢، وشرح الكافية الشافية ١٥٢٩/٣، ومغني اللبيب ٢٠٩/١.

(٧) البيت اختلف في نسبته كثيرًا، فنُسِب إلى ابن صريم اليشكري في الكتاب ١٣٤/٢، وشرح المفصل ٨٣/٨، ونسبه أبو البركات الأنباري في الإنصاف ١٦٨ إلى زيد بن أرقم.

وغير منسوب في الأمالي الشجرية ٣/٢، وشرح الكافية الشافية ١٥٢٩/٣، وشرح الكافية لابن جماعة ٣٦٤، ومغني اللبيب ٢٠٩/١، وهمع الهوامع ١٨٨/٢، ١٤٦/٤.

(٨) انظر: مغني اللبيب ٢١٠/١، وهمع الهوامع ١٤٦/٤، والتصريح ٣٦٥/٢.

قَأمْهَلَـــهُ حتَّـــى إذا أنْ كَأنَّـــهُ   مُعَـاطي يـدٍ فـي لُجّـةِ المـاءِ غـامرُ [1]

و"أنْ" الزائدة هذه تفيد التوكيد في المواقع السابقة، وعند النحاة أنَّ كل حرف زائد إنما تضام لمعنى التوكيد [2]. وقرر الزمخشري هذا المعنى في "الكشاف" حينما ذكر أن دخول "أنْ" في قصة لوط ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعًا ﴾ [3]، تنبيه وتوكيد على أن المساءة كانت عقب المجيء مباشرة، فهي مؤكدة للزوم والاتصال، بخلاف قصة إبراهيم ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ [4]، حيث لم تذكر فيها "أنْ" بعد "لما"؛ لأن الجواب ليس فيها كالأول [5].

وهذا الذي ذكره الزمخشري متوافق مع السياق، والموقف القرآني، الذي يطلب السرعة في الموقف الأول، ولا كذلك الموقف الثاني.

ويؤيد ذلك أنه كلما جاءت "أنْ" بعد "لما" كان الموقف يستدعي المفاجأة، كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗا ﴾ [6]، والمشهد يُؤذِن بسرعةِ ارتداد البصر إلى يعقوب ﷺ بمجرد رجوع البشير إليه بوجود يوسف ﷺ في مصر، وبمجرد إلقائه قميصه على وجه أبيه.

---

(١) البيت لأوس بن حجر في ديوانه ٧١، ومغني اللبيب ١/٢١٠، وشرح شواهد المغني ١/١١٢، وشرح أبيات المغني ١/١٦٤، والدرر ٤/٩٧.

وغير منسوب في التصريح ٢/٣٦٥، وهمع الهوامع ٤/١٤٦.

ورواية الديوان: "من جمة الماء غارق".

(٢) انظر: شرح المفصل ٨/١٢٨، وارتشاف الضرب ١/٩٤، والأشباه والنظائر ٢/١٧٦.

(٣) سورة العنكبوت، من الآية (٣٣).

(٤) سورة العنكبوت، الآية (٣١).

(٥) انظر: الكشاف ٣/٢٠٥، ومغني اللبيب ١/٢١٤، ٢١٦.

(٦) سورة يوسف، من الآية (٩٦).

ويبسط ابن هشام القول في وظيفة الزيادة وهي "التوكيد"، بأنه لا معنى للزيادة غير التوكيد، ويذكر ما قاله الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ صلة أكدت وجود الفعلين مرتبًا أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين، لا فاصل بينهما، كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان، كأنه قيل: فلما أحس بهم فاجأته المساءة من غير ريث خيفة عليهم من قومه[1].

ويعلق ابن هشام على كلام الزمخشري بأنه ليس في كلامه مخالفة للنحويين، لإطباقهم على أن الزائد يؤكِّد ما جيء به لتوكيده، و"لما" تفيد وقوع الفعل الثاني عقب الأول وترتبه عليه، فالحرف الزائد يؤكد ذلك الثاني عقب الأول وترتبه عليه، فالحرف الزائد يؤكد ذلك[2].

وأيا كان الأمر فإن خاصة التضام في السياقات هي خاصة من خواص "أنْ" دون أخواتها الناصبات للمضارع، مما يدل على أصالتها في بابها وأميتها لأخواتها.

٢- تضام "إنّ" مع "ما":

تتضام "إنّ" الناسخة مع "ما" الزائدة، لتفيد -بعد اطِّراح تأثيرها الإعرابي فيما بعدها- معاني تركيبية مختلفة عما أفادته قبل تضامها، من أجل إيثار شكل إعرابي لا يستفاد دون تضامها مع "ما"، وتخرج إلى معان بلاغية لم توجد فيها قبل التضام[3]، وهذه المعاني لا تحصل مع تضام بقية الحروف الناسخة مع "ما"، فـ"ليت" للتمني قبل تضامها مع "ما" وبعده، وكذلك "لعل" و"كأن" و"لكن"[4]، وقد نبه عبدالقاهر الجرجاني على وجود فوارق بين "إنما" و"ما" و"إلا"، فليس صحيحًا أن كلًّا منهما دال على القصر والاختصاص، وإنما لكل منهما دلالات وسياقات تخصه، ولا تكون للآخَر.

---

(١) انظر: الكشاف ٣/ ٢٠٥، ومغني اللبيب ٢١٦/١.

(٢) انظر: مغني اللبيب ٢١٦/١، والإعراب عن قواعد الإعراب ١١٦.

(٣) انظر: دلائل الإعجاز ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٣٣، ٣٤٠، ٣٤٤، ومواهب الفتاح ٢/ ١٩٥، وتحقيق الفوائد الغيائية ٢٠١/٢-٢٠٣.

(٤) انظر: ارتشاف الضرب ٢/ ١٥٧، ومغني اللبيب ٤/ ٨٠-٨٤، وهمع الهوامع ١٩١/٢، ١٩٢.

فتوجد سياقات تكون فيها "إنما" دون "ما" و"إلا"، وذلك في كل سياق تتضام فيه "لا" بعد "إنما" للتفسير والتوضيح، نحو قولهم: إنما هو درهم لا دينار، فإذا قيل فيه: ما هو إلا درهم لا دينار، لم يكن شيئًا [١]، والأصل في "إنما" أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته [٢]، كقول المتنبي في كافور:

إنَّمَا أنتَ والدٌ، والأبُ القا ... طِعُ أحْنَى من واصِلِ الأوْلادِ [٣]

لم يرد أن يعلم كافورا أنه والد، ولكنه أراد بذلك الإعلام في ظاهر الكلام أن يرتب عليه ما يوجبه، وهو كونه بمنزلة الوالد.

وأحسن من ذلك وأوضح قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥﴾ [٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [٦].

كل ذلك تذكير بأمر ثابت معلوم، وذلك أن كل عاقل يعلم أنه لا تكون استجابة إلا ممن يسمع ويعقل، وأن من لا يسمع ولا يعقل لا يستجيب، وكذا الآيتان بعدها: إنما يكون الإنذار ذا تأثير إذا كان مع من يؤمن بالله تعالى، ويصدق ما جاء به الرسول ﷺ، فأما الكافر الجاهل فالإنذار وتركه سواء [٧].

ومثل ما ينزل هذه المنزلة قول عبدالله بن قيس الرقيات:

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز ٣٢٧، ومختصر السعد ١٩٢، ومواهب الفتاح ٥ ١٩.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز ٣٢٧، ٣٤٤، ومختصر السعد ١٨٩، والمفصل في علوم البلاغة ٢٣٦، والبلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني) ٣٧٢، وعلم المعاني ٢/٥٥.

(٣) البيت للمتنبي في ديوانه ٢/٣٣، ودلائل الإعجاز ٣٢٨، والمفصل في علوم البلاغة ٢٣٦، وهو للتمثيل لا للاستشهاد

(٤) سورة الأنعام، من الآية (٣٦).

(٥) سورة النازعات، الآية (٤٥).

(٦) سورة يس، من الآية (١١).

(٧) انظر: تفسير الطبري ٧/١٨٥، ٢٢/١٥٣، ومعاني القرآن وإعرابه ٢/١٩٧، والوسيط ٢/٢٦٧، ٤/٤٢١، ودلائل الإعجاز ٣٢٨، ومختصر السعد ١٨٧، وتحقيق الفوائد الغياثية ٢/٥٠٩.

إنَّمــا مــصعبٌ شــهابٌ مِــنَ اللهِ	تَجلَّــتْ عَـــنْ وَجْهِـــهِ الظَّلْمـــاءُ
مُلْكُــهُ مُلْــكُ رَأفَـــةٍ لَــيس فيــه	جَبَـــرُوتٌ منـــــه ولا كِبْرِيـــــاءُ
يَتَّقـــي اللهَ فـــي الأمـــورِ وقَـــدْ	أفلَـــحَ مَـــنْ كَــانَ هَمَّـــهُ الاتقــاءُ[1]

فادعى أن هذه الأمور ظاهرة في الممدوح ثابتة لا ينكرها أحد.

وليس الأمر كذلك مع الطريقة الثانية في القصر بـ"ما" و"إلا". فالقصر بهذا الأسلوب يكون في الأمر الذي يشك فيه المخاطب، أو ينكره. كما في بيت الرُّقيات، ليس معلومًا بالبديهة؛ وإنما هو ادعاءٌ من الشاعر، فيجوز قصره بـ"ما" و"إلا"، فيقال: ما مصعب إلا شهابٌ من الله. ولكن لا يتحقق ما أراده الشاعر من المبالغة في كون الممدوح على هذه الحال. ولا يجوز مثل ذلك في الآيات المتقدمة على الصفة، وفي بيت المتنبي، فلا يقال: ما أنت إلا والد؛ لأن ذلك ليس أمرًا منكورًا[2].

وتفيد "إنما" ما لا تفيده طرق القصر الأخرى من جهة أنها توجب –في الكلام بعدها– إثبات الفعل لشيء ونفيه عن غيره، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴾ [3]، فقد أثبت الانتفاع بالإنذار لهاتين الطائفتين دون غيرهما من الطوائف، وفي الآية الأخرى أثبت الإنذار لمن اتصف بالخشية، دون غيره من أنواع البشر، فالقصر بـ"إنما" أشبه التركيب المشتمل على "لا" العاطفة؛ فكأنه قيل: أنت منذر من يخشى الرحمن لا غيره من الطوائف الأخرى، وأنت منذر من يخشاها لا من لا يخشاها[4].

---

(١) الأبيات في ديوان عبدالله بن قيس الرقيات ٩١، ودلائل الإعجاز ٣٢٩، ٣٤٨، والمفصل في علوم البلاغة ٢٣٦.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٤٨، والمفصل في علوم البلاغة ٢٣٦، والبلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني) ٣٧٢، وعلم المعاني ٢/٥٧.

(٣) سورة يس، من الآية (١١).

(٤) انظر: دلائل الإعجاز ٣٢٨، ٣٣١، ٣٣٣، والمحرر الوجيز ٣/٤٥٥، ٧/٢٣٧.

إلا أن القصر بـ"إنما" كان إيجاب الفعل لشيء ونفيه عنه دفعه واحدة، وفي حال واحدة، وليس كذلك التركيب المشتمل على "لا" العاطفة، فإثبات الفعل لما قبلها، ونفيه عما بعدها في حالين.

ومن ورود "إنّ" في تراكيب لغوية مختلفة، وصياغات متعددة، من تشديدها، وتخفيفها، وتصدّرها في جملتها، وعدم الفصل بينها وبين اسمها بفاصل –غير الظرف والجار والمجرور– وحذف خبرها، أكسبها ذلك ثراء في الاستعمال، وتعدداً في الدلالة والشكل، ولا يكتسبه غيرها من أخواتها، وحكم بأصالتها وأحقيتها بأمية أخواتها في بابها.

٣– تضام "كان" الزائدة:

تقدم الحديث عن أحقيّة "كان" بأمية بابها، بتميزها عن أخواتها بالنقصان، والتمام، والزيادة، والحذف.

وكما اختصت "كان" بالحذف، فقد اختصت بالزيادة، وترك تأثيرها الإعرابي، دون سائر أخواتها؛ لإثبات خاصة سلب الإعراب، وهي ميزة في "كان" وحدها، فلم يرد غير "كان" زائداً.

إن زيادة "كان" لتدل –مع التأكيد للكلام– على معنى زمني فقط، وإن ارتباط الضميمة التي قبلها بالضميمة التي بعدها لم تغير منه "كان" إلا في انتساب الضميمة الأولى –الواقعة قبل كان– والضميمة الثانية –الواقعة بعدها– إلى زمن معيّن، هو الزمن الماضي [١]، كما يتضح من مناقشة وتحليل النصوص والأمثلة التالية:

أ– زيادتها بين "ما" وفعل التعجب: تتضام "ما" مع فعل التعجب دون فاصل بينهما؛ لأنهما أشبها كلمة واحدة [٢]، وتفيد زيادة "كان" في قولهم: "ما –كان– أحسن علم من تقدم"، بعداً زمنياً محدداً لا تفيده دون تضامها؛ لأن صيغة التعجب تدل على صيغة دائمة

---

(١) انظر: الكتاب ١/٧٣، والمقتضب ٤/١١٦، ١١٧، واللمع ٢١.

(٢) انظر: شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم ٤٤٦، وتوضيح المقاصد ٣/٧١.

غير منقطعة. وعندما تزاد "كان" تتحول الصيغة المستمرة إلى صيغة خاصة بالزمن المنقطع [1].

ب- زيادتها بين الفعل وفاعله، أو نائب فاعله، مثل قولهم: "لم يوجد -كان- أفضل منهم"؛ فالفعل والفاعل كالكلمة الواحدة؛ لا يفصل بينهما، ما لم يستدع السياق ذلك الفصل فإذا زيدت "كان" على هذا النحو فإنها -لا شك- تفيد زمنًا ماضيًا منقطعًا، وهي تأكيد لذلك الزمن الماضي المنقطع [2].

فإذا كان الزمن الماضي مستفادًا من دخول "لم" على الفعل المضارع السابق على "كان" كما في المثال؛ كانت زيادتها توكيدًا لذلك الزمن في الفعل السابق عليها، ودلت على عدم استمراره إلى الزمن الحالي [3].

ج- زيادتها بين المنعوت والنعت: المنعوت والنعت -كما ذكر النحاة- كالكلمة الواحدة، وكل منهما متمّم للآخَر، ذلك أن وظيفة النعت: إما تخصيص المنعوت -إذا كان نكرة- وإما توضيح له -إن كان معرفة، وإذا فصل بينهما دون ضرورة سياقية غامت الوظيفة وغمضت؛ لذا كان لزامًا تواليهما دون فاصل.

واختُصت "كان" بزيادتها بين المنعوت والنعت -دون أخواتها- وهذا الفصل لا يقلل من وظيفة النعت؛ لأن الفصل بين المتلازمين -إن حدث لداع سياقي- فهو كلا فصل، مثل قول الشاعر:

في غُرَفِ الجَنَّةِ العُلْيَا التي وَجَبَتْ لَهُمْ هُناكَ بِسَعْيٍ -كَانَ- مشكور [4]

فزيادة "كان" بين النعت والمنعوت لإفادة مدلول زمني في الماضي المنقطع [5].

---

(1) انظر: الكتاب ٧٣/١، والكافية الشافية ١٠٩٩/٢.

(2) انظر: المقتضب ١١٦/٤.

(3) انظر: مغني اللبيب ٩٥/١، مصطفى النحاس، وحاشية الصبان على الأشموني ٢٤٠/١، وحاشية ياسين على الفاكهي ١٦/٢.

(4) البيت للفرزدق في ديوانه ٢١٤.

وغير منسوب في شرح الأشموني ٤١٧/١، وخزانة الأدب ٢١٠/٩.

(5) انظر: الكتاب ٧٣/١، ١٥٣/٢، والمقتضب ١١٦/٤، ١١٧.

د- زيادتها بين "نِعْمَ" ومرفوعها: أفعال المدح والذم من التعبيرات التي أخذت طبيعة الجوامد في أدائها النحوي، وطبيعة الصيغ الجامدة لا تغير عن أصل وضعها -أي: لا تتصرف- ولا يفصل بينها وبين معمولاتها -كما ذكر جمهور النحاة [1]-. وهي أيضًا -عند النحاة- تعبيرات جامدة ترد في السياق اللغوي غير خاضعة لتأثيراته، فلا تخضع لظواهره التي تغير من طبيعة بعض الصيغ المتصرفة، أو من طبيعة الترتيب بينها وبين معمولاتها.

لذا يعد الفصل بين أفعال المدح والذم وبين معمولاتها مخالفًا لطبيعة استعمالها اللغوي، إلا مع "كان" الزائدة، الأمر الذي يؤكد ما ذكرت: من أن القصد إقحام "كان" هو الدلالة على أن ذلك كان في زمن ماض منقطع عن زمن التكلم، وهو أمر لا تفيده "نِعْمَ" و"بِئْس"؛ على الرغم من انتمائها إلى الزمن البعيد كما يقول النحاة، ويعربونهما: فعلين ماضيين عند تحليل الجملة معها، لكنهما -عندي- لا ينتميان إلى طبيعة الفعل على سبيل القطع -فضلًا عن انتمائهما إلى الزمن الماضي- بقدر ما ينتميان إلى الزمن المستمر غير المحدد.

وهذا خلاف نظر النحاة إليهما، حيث يربطون بين طبيعتهما الحالية والأصل الذي ينتميان إليه بالنظر إلى أنهما مأخوذان من "فَعِل"[2]، وهذا أمر لا دليل عليه قاطع -في رأيي- إلا وجهة نظر النحاة، وهي قابلة للنقاش، وكونها على "فِعْل" لا يُقَر بهذه الطبيعة. ولنقرأ هذا البيت:

وَلَبِسْتُ سِرْبَالَ الشَّبَابِ أَزُورُهَا ... وَلَنِعْمَ -كَانَ- شَبِيبَةُ المُحْتَالِ [3]

فإن "نِعْمَ" هنا لا علاقة لها بالزمن، خاصة إذا قرأنا هذا البيت دون "كان"، فسنجد أنها وأخواتها تفيد زمنًا استمراريًا لا يختلف عن طبيعة اسم الفاعل أو اسم المفعول، وأن

---

(١) انظر: شرح الرضي القسم الثاني ١٠٨٦/٢، ومغني اللبيب ٩٥/١.

(٢) انظر: شرح الرضي القسم الثاني ١١٠٢/٢.

(٣) البيت غير منسوب في شرح الأشموني ٢٤٠/١، وحاشية الصبان على الأشموني ٣٥٣/١. وانظر: معجم شواهد النحو د ١٤٥، ٧٩د، والمعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية ٧٣٩/٢.

الزمن فيها مرتهن بتضام "كان" بينها وبين فاعلها، وهو يصف حالة ماضية لا علاقة لها بالزمن الحاضر -زمن التكلم- وتجسد "كان" الاحتيال العاطفي في الزمن الماضي ولو لم تزد "كان" لكان المدح صادقًا حتى زمن التكلم؛ لأن الأفعال تفيد الزمن المستمر، الأمر الذي لم يرده الشاعر، بل أراد مدح احتياله في زمن ماض؛ من أجل ذلك تضامت "كان" الزائدة.

هـ- زيادتها بين المعطوف عليه وحرف الجر، كما في قول الشاعر:

فـي لُجَّـةٍ غَمَـرَتْ أبـاكَ بُحُورُهـا ... فـي الجاهِلِيَّـةِ -كـان- والإسـلامِ [1]

وإذا كان الشاعر قد هجا أبا غريمه في الجاهلية والإسلام، فإن إقحام "كان" هنا -وهي تفيد الزمن الماضي- يدل على أنَّ وصف المهجو بهذا الوصف مرتبط بالجاهلية أكثر منه بالإسلام؛ لأن الجاهلية زمن سابق على الإسلام، وإذا كان المهجو ما زال في هذه اللجة بعد إسلامه الذي أسبغ عليه صفة الإيمان، فإنها ليست لجة ضلالة الكفر، والذي جسد هذا الزمن هو زيادة "كان".

و- زيادتها بين الجار والمجرور: تزاد "كان" -على قلة- بين الجار ومجروره، ونظرًا لوحدة الجار مع المجرور، فقد وصف كثير من النحويين زيادتها بينهما بضرورة الشعر، أو الشذوذ؛ وذلك لشدة التصاقهما [2]، إلا أن زيادة "كان" بينهما لا تنفي هذه الوحدة؛ إنما تفيد احترازًا زمنيًا ماضيًا، كما في قول الشاعر:

سَـرَاةُ بَنِـي أَبِـي بَكْـرٍ تَسَـامَى ... علـى -كـان- المُسَوَّمَةِ العِـرابِ [3]

---

(1) البيت للفرزدق في ديوانه ٢/ ٣٠٥، وشرح الرضي القسم الثاني ٢/ ١٠٣٥، وخزانة الأدب ٩/ ٢١١، وشرح الأشموني ١/ ٢٤٠، وفي الديوان: "حومة" بدل "لُجَّة".

(2) انظر: شرح المفصل ٧/ ١٠٠، ورصف المباني ٢١٨، وأوضح المسالك ١/ ٢٥١.

(3) البيت غير منسوب في اللمع ٢١، والمفصل ٢٦٥، وأسرار العربية ١٣٧، وشرح الألفية لابن الناظم ١٤٠، ورصف المباني ٢١٨، ٢٩٢، ٣٢٨، وشرح ابن عقيل ١/ ٢٩١، والمقاصد النحوية ١/ ٤٢٠، وهمع الهوامع ٢/ ١٠٠، وشرح الأشموني ١/ ٢٤١.

ز- زيادتها بين "إنّ" وخبرها. قال سيبويه: "قال الخليل: إنّ من أفضلهم كان زيدًا، على إلغاء "كان""[1].

أفادت زيادة "كان" مضمونًا زمنيًا ماضيًا. وقد يأتي المضمون الزمني مستقبلًا، فترد "كان" بلفظ المضارع، كما في قول الشاعرة:

أنــت -تكــون- ماجــدٌ نبيــلُ إذا تهُــبُّ شَــمْأَلٌ بَلِيــلُ[2]

فقد زيدت "تكون" بلفظ المضارع بين عنصري الجملة الرئيسين المتلازمين -المبتدأ والخبر-.

وأيًا ما كان الأمر فإن زيادة "كان" في النصوص الشعرية قد وردت، سواء أكانت على سبيل القلة أم الضرورة أم الشذوذ، فإنه يثبت لـ"كان" خاصة لا توجد في أخواتها، مما يجعلها جديرة بتسميتها "أمّ" الباب.

٤- تضام "مِنْ" الزائدة:

تتضام "مِنْ" الزائدة مع أشياء كثيرة:

أ- مع المبتدأ[3]، كما في قوله تعالى: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[5].

ب- مع الفاعل[6]، كما في قوله تعالى: ﴿ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ ﴾[8].

---

(١) الكتاب ٢/١٥٣، وانظر: المفصل ٢٦٥، وشرحه ٧/٩٩.

(٢) البيت لأم عقيل فاطمة بنت أسد في شرح ابن الناظم ١٤٠، وشرح المرادي ١/٣٠٦، وأوضح المسالك ١/٢٤٩، والمقاصد النحوية ١/٤١٨، وهمع الهوامع ٢/٩٩، وشرح الأشموني ١/٢٤١.

(٣) انظر: تفسير الطبري ٨/٢١٣، والفريد في إعراب القرآن المجيد ٣/٧٦، والتسهيل ١٤٤، ورصف المباني ١٨٩، والجنى الداني ٣٢٢، وأوضح المسالك ١/١٨٧، ٣/٢٣، والمساعد ٢/٢٥٠.

(٤) سورة فاطر، من الآية (٣).

(٥) سورة الأعراف، من الآيات (٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥)، وسورة هود، من الآيات (٥٠، ٦١، ٨٤)، وسورة المؤمنون، من الآيات (٢٣، ٣٢).

(٦) انظر: التسهيل ١٤٤، وشرح الكافية الشافية ٢/٧٩٩، ورصف المباني ٣٨٩، والجنى الداني ٣٢٢، وأوضح المسالك ٢/٧٨، ٣/٢٣، والمساعد ٢/٢٥٠، وشرح الأشموني على الألفية ٢/٢١٢.

(٧) سورة المائدة، من الآية (١٩).

(٨) سورة الأنبياء، الآية (٢).

ج- مع نائب الفاعل [1]، كما لو قلت: ما عُوقِب من أحدٍ.

د- مع المفعول به [2]، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [3]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [4].

ه- مع الحال [5]، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [6]، في قراءة زيد بن ثابت وأبي الدرداء ﷺ وأبي جعفر وابن عامر بضم النون وفتح التاء من قوله: ﴿نُتَّخَذَ﴾ [7]، قال ابن جني: "فإن ضمت النون فإن قوله: ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ في موضع الحال" [8].

و- المفعول المطلق [9]، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [10]، على تقدير: ما فرطنا في الكتاب من تفريط [11].

٥- تضام الواو:

ومن التضام على سبيل الزيادة تضام الواو بين الشرط وجوابه، كقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [12].

---

(1) انظر: المساعد ٢/٢٥١، والوجيز في الأدوات النحوية ١٨٦.

(2) انظر: التسهيل ١٤٤، ورصف المباني ٣٨٩، والجنى الداني ٣٢٣، وأوضح المسالك ٣/٢٣، والمساعد ٢/٢٥١، وشرح الأشموني على الألفية ٢/٢١٢

(3) سورة مريم، من الآية (٩٨).

(4) سورة سبأ، من الآية (٤٤).

(5) انظر: المحتسب ٢/١٢٠، والتسهيل ١٤٤، وشرحه ٣/١٣٩، والجنى الداني ٣٢٣، والبحر المحيط ٦/٤٨٩، والدر المصون ٨/٤٦٥، ومغني اللبيب ٤/١٧١، وتمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد ٦/٢٨٨٤.

(6) سورة الفرقان، من الآية (١٨).

(7) انظر: المحتسب ٢/١١٩، والبحر المحيط ٦/٤٨٩، والنشر ٣/٢١٧، وإتحاف فضلاء البشر ٣٢٨.

(8) المحتسب ٢/١٢٠.

(9) انظر: حاشية الصبان على الأشموني ٢/٢١١، ٢١٢.

(10) سورة الأنعام، من الآية (٣٨).

(11) انظر: التبيان ١/٤٩٣، والفريد في إعراب القرآن المجيد ٢/٥٨٠، والبحر المحيط ٤/١٢١، والدر المصون ٤/٦١٢.

(12) سورة الزمر، الآية (٧٣).

فجواب ﴿ إِذَا ﴾، وعليه فالواو زائدة. وإذا كان الجواب هو ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾.
فالواو في ﴿ وَفُتِحَتْ ﴾ عاطفة جملة ﴿ فُتِحَتْ ﴾ على جملة الشرط ﴿ إِذَا جَاءُوهَا ﴾.
والواو في ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ هي الزائدة؛ لأنه لا يفصل بين الشرط والجواب بالواو؛ لأنهما كالكلمة الواحدة، لترتب معنى الجواب على معنى الشرط، والواو- بينهما- تحدث فصلًا دلاليًا يجعل المعنى غير المستقيم، لذا سميت الواو زائدة. أي: لم تؤد وظيفة لغوية غير التوكيد.

ومثلها أيضًا الواو في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[1]. فإذا كان جواب الشرط ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ فالواو زائدة للتوكيد، وإذا كان الجواب ﴿ وَنَادَيْنَاهُ ﴾ كانت الواو زائدة، وكانت الواو الأولى عاطفة «تله» على الجملة الشرطية الأولى ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾[2].

ونقل سيبويه عن الخليل أن في هاتين الآيتين محذوفًا، وأن العرب قد تترك الجواب في كلامهم لعلم المخبَر لأي شيء وُضع الكلام [3].

وذكر ابن هشام [4] في الآيتين السابقتين أن من النحويين من لا يعد الواو فيهما زائدة للتوكيد؛ وإنما هما للعطف، والجواب محذوف يقدر مناسبًا للموقف وما يحتمله من التهويل والتعظيم، أي: كان كذا وكذا، أو كيت وكيت، فيقدر كل من يسمع الآيتين الجواب حسب حالة الذهنية.

---

(١) سورة الصافات، الآيات (١٠٣-١٠٥).

(٢) انظر: معاني القرآن ٢٣٨/١، ٢/ ٥٠، ٢١١، ومعاني القرآن للأخفش ٢/ ٤٥٧، والمقتضب ٢/ ٧٨، ٧٧، ومعاني القرآن وإعرابه ٤/ ٢٣٤، ٢٧٤، وإعراب القرآن ٣/ ٤٣٣، ٤/ ٢٢، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٢٦١، ٢٤٠.

(٣) انظر: الكتاب ٣/ ١٠٣، ومعاني القرآن للأخفش ٢/ ٤٥٧، والمقتضب ٢/ ٧٧، ٧٨، ومعاني القرآن وإعرابه ٤/ ٢٣٤، ٢٧٣، وإعراب القرآن ٤/ ٢٢، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٢٤٠، ٢٦١.

(٤) انظر: مغني اللبيب ٤/ ٣٨٩.

والحذف – في رأي من يرى حذف الجواب – من أجل أن تتهيأ النفس في تقديره كل مذهب، بدل أن يكون الجواب محددًا أمام القارئ أو السامع. ولو كان الأمر كذلك كانت وظيفة الواو هي التوكيد، كما في قول الشاعر:

فما بالُ مَنْ أسْعَى لأجبرَ عَظْمَهُ   حِفاظًا، ويَنْوي مِنْ سَفاهَتِهِ كَسْري[1]

فجواب "مَنْ" هو "ينوي" دون الواو؛ لأن الجواب لا يحتاج إليها، حتى لا تكون فاصلًا –دون غاية– بين متصلين، هما الشرط والجواب.

ومثل ذلك قول الشاعر:

ولقدْ رَمقتُكَ في المجالِسِ كُلِّها   فإذا وأنتَ تُعِينُ مَنْ يَبْغِيني [2]

والأصل: فإذا أنت تعين، بدون الواو؛ لأن "إذا" الفجائية لو تضامت قبل الشرط ما احتاجت إلى هذه الواو، ولكنها زائدة لوظيفة التوكيد فحسب –دون إحداث معنى زائد غير التوكيد– وغير إقامة الشعر على الوزن، وتحسين اللفظ، أو تزيينه –كما ذكر النحويون–[3].

* * *

---

(1) البيت منسوب لأبي الذئبة الثقفي في مجالس ثعلب ١/١٤٤، وأمالي أبي علي القالي ٢/١٩٣، وشرح شواهد المغني ٢/٧٨١، والمزهر ١/١٥٢، وفيه أنه ابن الدمينة.

وغير منسوب في مغني اللبيب ٤/٣٨٩، وخزانة الأدب ٣/٢٠٥.

(2) البيت لأبي العيال الهذلي في شرح أشعار الهذليين ١/٤١٠، وديوان الهذليين ٢/٢٦، والأغاني ٢٠/١٦٧.

وغير منسوب في مغني اللبيب ٤/٣٩٠.

(3) انظر: شرح الرضي القسم الثاني ٢/١٣٧٢، والأشباه والنظائر ١/٢٤٨.

المبحث الخامس: خاصة الدلالة

الخاصة الدلالية هي إحدى الخواص التي تثبت للضميمة الأصالة في بابها، وكونها "أمًّا" للباب.

فالضميمة إذا تعددت معانيها الدلالية، أو استعمالاتها المعجمية دل ذلك على ثراء فيها، وتنوعها الدلالي هذا يجعل استعمالها متكررًا كذلك، ويجعلها أحق بـ"أم" الباب من غيرها من أخواتها الأخريات التي تدور معها في الباب النحوي.

لقد رصد النحاة لأمهات هذه الأبواب دلائل أكثر من أخواتها، فعدوها –مع الخواص الأخرى– أصلًا للباب المعين و"أمًّا" له.

وتتفاوت حينئذ الخواص الدلالية مع الخواص الوظيفية في تصدير الضميمة المعينة لبابها، وتستعمل كل واحدة من الأمهات في معانٍ دلاليةٍ مختلفة لا تستعمل فيها أخواتها، ومن ذلك:

١– استعمال "إلا":

أ– استعمالها بمعنى "بَعْد"[١]، وحمل عليه قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾[٤].

ب– استعمالها بمعنى "الواو"[٥]، كما في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾[٦]، والمعنى: لئلا يكون للناس حجة ولا الذين ظلموا لهم حجة أيضًا، وعليه قول الشاعر:

---

(١) انظر: تفسير الطبري ١٣٧/٢٥، ومشكل إعراب القرآن ٢٩٢/٢، والكتاب الفريد ٥٨١/٥.

(٢) سورة البقرة، من الآية (١٥٠).

(٣) سورة النساء، من الآية (٢٢).

(٤) سورة الدخان، من الآية (٥٦).

(٥) انظر: معاني القرآن ٨٩/١، ٢٨٧/٢، ومجاز القرآن ٦٠/١، ٢٨٢، ٢٨٤، ومعاني القرآن للأخفش ١٥٢/١، والجامع لأحكام القرآن ١٦٩/٢، والبحر المحيط ٢٤٢/١، ٣٢١/٣، والجنى الداني ٤٧٩، ومغني اللبيب ٧٣/١.

(٦) سورة البقرة، من الآية (١٥٠).

وكــــلُّ أخٍ مفارِقُـــــه أخــــوهُ   لَعَمْــــرُ أبيـــكَ إلا الفَرْقَـــدانِ [١]

أي: كلٌّ مفارقه أخوه، والفرقدان كذلك.

وقول الشاعر:

مَـــا بالمدينـــةِ دارٌ غَيــرُ واحــدةٍ   دارُ الخلفيـــــةِ إلا دارُ مَرْوانـــــا [٢]

المعنى: ما بالمدينة دارٌ إلا دار الخليفة ودار مروان.

ج- استعمالها مكررةً للتوكيد أو لاستثناءٍ جديدٍ: تُكرّر "إلا" توكيدًا لـ"إلا" الأولى، أو لإنشاء استثناء جديد [٣].

فمثال الأول: قولُك: ما مررت بأحدٍ إلا زيد إلا أخيك، ويكون ما بعدها، بدلًا، وقولك: قام القوم إلا زيدًا وإلا عمرًا، ويكون ما بعدها معطوفًا، ومن ذلك قول الشاعر:

هَـــلِ الـــدَّهْرُ إلا ليلـــةٌ ونهارُهـــا   وإلا طُلُـوعُ الـشَّمْسِ ثـمَّ غِيارُهـا [٤]

وقد اجتمع البدل والعطف في قول الشاعر:

مالَــكَ مِــنْ شَيـخِكَ إلا عملُــهْ   إلا رَسِيـــــــمُهُ وإلا رَمَلُـــــــهْ [٥]

ومثال الثاني -تكرارها لإنشاء استثناء جديد-: قولُك: ما قام إلا زيدٌ إلا عمرًا إلا بكرًا، وقام القوم إلا زيدًا إلا عمرًا إلا بكرًا.

---

(١) البيت لعمرو بن معدي كرب في ديوانه ١٦٧، والكتاب ٢/٣٣٤، ومجاز القرآن ١/١٣١، والتبصرة والتذكرة ١/٣٨٣، وشرح المفصل ٢/٩٨.

(٢) البيت منسوب للفرزدق في الكتاب ٢/٣٤٠، وفي التسهيل ٢/٢٩٥، ولم أعثر عليه في ديوانه.

وغير منسوب في معاني القرآن ١/٩٠، والجنى الداني ٤٧٩، والمقتضب ٤/٤٢٥، والأصول ١/٣٠٣، وتذكرة النحاة ٥٩٦، شاهد على مجيءِ "غير" صفةً.

(٣) انظر: الكتاب ٢/٣٤١، وشرح التسهيل ٢/٢٩٥، وأوضح المسالك ٢/٢٣٤، وشرح الأشموني ٢/١٥٠.

(٤) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ١/٧٠، والمقاصد النحوية ٢/٣٤٤.

وغير منسوب في شرح المفصل ٢/٤١، وشرح ابن عقيل ١/٦٠٥، وشرح الأشموني ٢/١٥١.

(٥) البيت لا يعرف قائله. انظر: الكتاب ٢/٣٤١، وأوضح المسالك ٢/٢٣٤، وشرح ابن عقيل ١/٦٠٦، وهمع الهوامع ٢/٢٦٦، وشرح الأشموني ٢/١٥١.

د– استعمالها صفةً: تقع "إلا" صفةً بمعنى "غير"[1]، قال سيبويه: "هذا باب ما يكون في "إلا" وما بعده وصفًا بمنزلة "مثل" و"غير"، وذلك قولك: لو كان معنا رجل إلا زيد لغلبنا، والدليل أنه وصف أنك لو قلت: لو كان معنا زيد لهلكنا، وأنت تريد الاستثناء لكنت قد أحلت، ونظير ذلك قوله ﷻ: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[2]"[3]، ومن ذلك عند سيبويه:

لو كانَ غيري سُلَيْمى اليومَ غَيَّرَهُ ... وَقْعُ الحوادثِ إلا الصارمُ الذَّكَرُ[4]

قال سيبويه: "كأنه قال: لو كان غيري غير الصارم الذكر لغيَّره وقْعُ الحوادث"[5].

وقال عمرو بن معدي كرب:

وكلُّ أخٍ مفارقُه أخوهُ ... لَعَمْرُ أبيكَ إلا الفَرْقَدانِ[6][7]

«كأنه قال: وكل أخٍ غير الفرقدين مفارقه أخوه"[8].

وإذا قلت: ما أتاني أحد إلا زيد، فأنت بالخيار إنْ شئت جعلت "إلا زيدٌ" بدلًا، وإن شئت جعلته صفة.

٢– استعمال "أنْ":

أ– استعمالها للتفسير[9]، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾[10]. وقوله تعالى: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾[11].

---

(١) انظر: المقتضب ٤/٤٠٨، ومعاني القرآن وإعرابه ٣/٢٩، وإعراب القرآن ٢/٢٦٩، ومشكل إعراب القرآن ١/٣٩٢، وشرح المفصل ٢/٨٨.

(٢) سورة الأنبياء، من الآية (٢٢).

(٣) الكتاب ٢/٣٣١.

(٤) البيت للبيد بن ربيعة في ديوانه ٥٧، وفي الكتاب ٢/٣٣٢، وشرح أبيات سيبويه ٢/٤٤. وغير منسوب في مغني اللبيب ١/٤٦٧، وشرح الأشموني ٢/١٥٦.

(٥) الكتاب ٢/٣٣٤.

(٦) البيت سبق تخريجه.

(٧) انظر: الكتاب ٢/٣٣٤، ومعاني القرآن للأخفش ١/١١٦، والمقتضب ٤/٤٠٩، والحجة ١/٢٢، والإنصاف ٢٣٣.

(٨) الكتاب ٢/٣٣٥.

(٩) انظر: الكتاب ٣/١٥٢، ١٦٣، والمقتضب ٢/٣٥٨، ومعاني القرآن وإعرابه ٢/٢٧٥، ومشكل إعراب القرآن ٢/١٢٦.

(١٠) سورة المؤمنون، من الآية (٢٧).

(١١) سورة طه، من الآيتين (٣٨–٣٩).

والجمل المتضامة بعد "أنْ" هي المفسرة للجمل قبلها، وليست "أنْ" هي المفسرة، وهذا هو مقصد النحويين في أنّ "أنْ" وصلة لتفسير ما بعدها بما قبلها، فهي بمعنى "أي" المفسرة، أي هي وسيلة وصول الكلام قبلها إلى الكلام بعدها ليتم التفسير [1].

فالأداة "أنْ" –في نظر النحويين– مجرد أداة أو رمز. وفي الكلام مجاز مرسل، علاقته الآلية [2].

ويحدد النحاة لـ"أنْ" معنى التفسير، بأن يكون الكلام قبلها جملة مستقلة كاملة فيها معنى القول دون حروفه، وتتأخر عنها جملة مستقلة فيها معنى الجملة الأولى، وتخلو "أنْ" من حروف الجر ظاهرة أو مقدرة [3].

وتكون وظيفة "أنْ" حينئذ هي الربط بين الجملتين: المفسَّرة والمفسِّرة. وبدونها يفتقر التركيب اللغوي إلى الرابط، بضم التركيبين في سياق تركيبي واحد [4].

ب– استعمالها بمعنى "لا": وقد ترد "أنْ" للنفي بمعنى "لا"[5]، وتفيد التعليل بمعنى "لئلا" كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾[6]، قالوا معناه: لا يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم، قال الفراء: "وصلحت ﴿أَحَدٌ﴾؛ لأن معنى ﴿أَنْ﴾ معنى "لا"، كما قال تبارك وتعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾[7]، معناه: لا تضلوا"[8].

وتفيد "حينئذ" التعليل بمعنى "لئلا" أو "كيلا"[9].

---

(1) انظر: معاني القرآن وإعرابه ٢/ ٣٧٥.

(2) انظر: النحو الوافي ٤/ ٢٩٥.

(3) انظر: شرح التسهيل ٤/ ٧، ورصف المباني ١٩٦، والجنى الداني ٢٣٩، وأوضح المسالك ٤/ ١٤٩.

(4) انظر: الكتاب ٣/ ١٦٢، ١٦٣.

(5) انظر: معاني القرآن ١/ ٢٢٣، ٢٩٧.

(6) سورة آل عمران، الآية (٧٣).

(7) سورة النساء، من الآية (١٧٦).

(8) معاني القرآن ١/ ٢٢٣.

(9) انظر: معاني القرآن ١/ ٢٩٧.

ج- استعمالها بمعنى "إذ" إذا وقع بعدها فعل ماض، مثل قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾[1]، أو فعل مضارع، مثل قوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾[2].

٣- استعمال "إن":

وتنفرد "إن" بأنها ملازمة للجزاء[3]، بخلاف أخواتها -مَنْ، وما، ومتى، وأي، وأين، وأيان، وأنى-، فإنها تخرج إلى الاستفهام.

كما تنفرد بأنها تأتي في مواضع الجزاء كلها، دون التقييد بمعنى خاص، بخلاف أخواتها، فلكل واحدة معنى تستعمل فيه، فـ"مَن" لا تكون إلا فيمن يعقل، و"ما" تكون فيما لا يعقل، و"متى" للزمان، وهكذا.

٤- استعمال "إنّ":

أ- استعمالها جوابًا لسؤال محقق: تتميز "إنّ" المؤكدة بخاصة استعمالها في موضع الجواب، من قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾[4]، أو سؤال مقدّر كقوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[7].

وذلك أنه يعلم أن المعنى: فأتياه، فإذا قال لكما: ما شأنكما؟! وما جاء بكما؟! وما تقولان؟ فقولا: إنا رسول رب العالمين.

---

(١) سورة ق، من الآية (٢).
(٢) سورة الممتحنة، من الآية (١).
(٣) انظر: الكتاب ٣/٦٣، ٤/٢٢٢، والمقتضب ٢/٤٩.
(٤) سورة الكهف، الآيتان (٨٣-٨٤).
(٥) سورة الكهف، الآية (١٣).
(٦) سورة الشعراء، الآية (٢١٦).
(٧) سورة الشعراء، الآية (١٦).

ب- استعمالها جوابًا لـ"أمَّا"، كقولك: أما حقًا فإنك ذاهب، أما بعد فإن الله قال في كتابه[1].

إن الآيات القرآنية الكريمة السابقة قد ظهر فيها مدى التأثير الدلالي والشكلي للأداة "إنَّ"، ولا يصلح غيرها موقعها.

ج- استعمالها كحرف جواب بمنزلة "نَعَمْ" أو "أجل"، ولا يكون لها عمل في الجملة الاسمية[2]، كما في قول الشاعر:

وَيقُلْنَ: شَيبٌ قَدْ عَلا ... كَ وقَدْ كَبِرْتَ، فَقُلْتُ: إنَّهْ[3]

وقول الآخر:

وقائلةٍ: أسِيتَ، فقُلْتُ: جَيْرِ ... أسِيٌّ إنَّنِي مِنْ ذَاكَ إنَّه[4]

د- استعمالها فعلًا ماضيًا مسندًا لجماعة من الإناث، من الأين، وهو التعب، تقول النساء: إنَّ، أي: تعبن، أو تكون "آن" بمعنى قرب.

وتستعمل فعلًا ماضيًا مسندًا لغير الإناث، على أنه من الأنين[5]، أو فعل أمرٍ للواحد.

٥- استعمال "ظن":

انفردت "ظن" بأنه يجري القول مجراها -دون سائر أخواتها-، فيقال في قولك: أتقول: زيدًا منطلقًا، إنه أُجْرِيَ الفعل "تقول" مجرى الفعل "تظن"، فنصب مفعولين.

كما اختصت بأنه يقدر معنى كل فعل من أفعال القلوب التي تدل على الرجحان بالظن واختصت بأنها تتصرف تصرفًا كاملًا، فيأتي منها الماضي، مثل "ظن"، والمضارع

---

(١) انظر: الكتاب ٣/١٣٧، ١٣٩.

(٢) انظر: الكتاب ٣/١٥١، ٤/١٦٢، وشرح الكافية الشافية ٢/٨٨٥، ورصف المباني ٢٠٤، والجنى الداني ٤١٣.

(٣) البيت سبق تخريجه.

(٤) البيت منسوب لأعرابي من بني أسد في الأشباه والنظائر ٢/٣٠٧.

وغير منسوب في شرح الكافية الشافية ٢/٨٨٥، ورصف المباني ٢٠٤، والجنى الداني ٤١٣، ومغني اللبيب ٢/٢٤٢، وشرح شواهد المغني ١/٣٦٢، وخزانة الأدب ١٠/١١١.

(٥) انظر: مغني اللبيب ١/٢٤٩.

"يظن"، والأمر "ظُنَّ"، واسم الفاعل "ظان"، واسم المفعول "مظنون"، والمصدر "الظن"، وأفعل التفضيل "أظَنّ".

٦- استعمال "كان":

ترد "كان" لمعانٍ كثيرة، فتكون بمعنى "كفل"، يُقال: كان فلان الصبي، بمعنى كفله.

وبمعنى "ثبت" مرادًا به الأزلية، مثل: كان الله ولا شيء معه [١].

أو بمعنى الحدث، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةٌ﴾ [٢]. ومنه قول الشاعر:

إذا كانَ الشِّتاءُ فأدْفِئوني ... فإنَّ الشَّيْخَ يَهْرِمُهُ الشِّتاءُ [٣]

وبمعنى "غزل"، يقال: كان الصوفَ، إذا غزله.

وبمعنى "صار"، وهو قليل، وجعل بعض النحاة من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [٤]، وقول الشاعر:

بتَيْهاءَ قَفْرٍ والمطيُّ كأنَّها ... قَطا الحَزْنِ قَدْ كانتْ فِراخًا بيوضُها [٥]

---

(١) انظر: أسرار العربية ١٣٦، وشرح المفصل ١٠٢/٧، والتسهيل ٥٣، وشرحه ٣٤٢/١، وشرح الرضي القسم الثاني ١٠٣٢/٢، وشذور الذهب ٣٥٤، وهمع الهوامع ٨٢/٢.

(٢) سورة البقرة، من الآية (٢٨٢)، وذلك في قراءة من قرأ ﴿تِجَٰرَةٌ﴾ بالرفع، وقد قرأ بها السبعة غير عاصم، انظر: السبعة ١٩٣، والحجة في القراءات السبع ٤٣٦/٢، والتيسير ٨٥، والتبصرة ٤٥١، والنشر ٤٤٦/٢.

(٣) البيت منسوب للربيع بن ضبع الفزاري في الحلل في شرح أبيات الجمل ٥٧، ٤٠، وخزانة الأدب ٣٨١/٧، والدرر ٦١/٢.

(٤) سورة مريم، من الآية (٢٩).

(٥) البيت لابن أحمر في ديوانه ١١٩، وشرح شواهد الإيضاح ٥٢٦، وخزانة الأدب ٢٠٥/٩، ومنسوب إلى ابن كنز في شرح شواهد الإيضاح ٥٢٥، وشرح المفصل ١٠٢/٧.

وغير منسوب في المفصل ٣٤٠، وشرح الرضي القسم الثاني ١٠٣٣/٢.

وقول رؤبة:

والرأسُ قد كان له شَكِيرُ[1]

كما تختص "كان" بمرادفةِ "لم يزل" كثيرًا، أي: أنها تأتي دالة على الدوام، وإن كان الأصل فيها أن تدل على حصول ما دخلت عليه فيما مضى، مع انقطاعه عند قوم، وعليه الأكثر، كما قال أبو حيان[2]، أو سكوتها عن الانقطاع وعدمه عند آخرين، وجزم به ابن مالك[3].

ومن الدالة على الدوام الواردة في صفات الله تعالى، نحو قوله ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾[4]، أي: لم يزل متصفًا بذلك[5].

ولا يكون أحدُ هذه المعاني إلا لـ"كان" وحدها دون سائر أخواتها، مما يدل على أصالتها في بابها، وأنها "أم" أخواتها.

٧- استعمال "مِنْ" في معانٍ متعددة:

تعددت معاني "مِنْ" الجارة، وزادت عن معاني أخواتها -حروف الجر- مما أهلّها لتكون "أمّ" أخواتها:

فقد جاءت لابتداء الغاية في المكان[6]، كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[7].

---

(١) انظر: ديوانه، وشرح شواهد الإيضاح ٦٢٧.

و"الشكير": هو ما نبت بين الظفائر من الشعر، انظر: اللسان مادة "شكر"، وشرح شواهد الإيضاح ٦٢٧.

(٢) انظر: التذييل والتكميل ٤/٢١٠.

(٣) انظر: التسهيل د د، وشرحه ١/٣٦٠.

(٤) سورة النساء، من الآية (١٣٤).

(٥) انظر: شرح الرضي القسم الثاني ٢/١٠٣٣، وشرح ألفية ابن معطٍ ٢/٨٦٤.

(٦) انظر: الكتاب ٤/٢٢٤، والأصول ١/٤٠٩، ومعاني الحروف ٩٧، وشرح عيون الإعراب ٢٠١، وكشف المشكل ١/٥٦٢.

(٧) سورة الإسراء، من الآية (١).

وتأتي لابتداء الغاية في الزمان [1]، كما في قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [2].

وتأتي للتبعيض [3]، نحو قوله تعالى ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [4].

وتأتي بمعنى بدل [5]، كما في قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [6].

وبمعنى "في"، فتفيد الظرفية [7]، مثل قوله تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [8].

وتأتي تعليليةً بمعنى بسبب [9]، كما في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [10].

وتأتي لبيان الجنس [11]، كما في قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [12].

---

(1) ذهب إلى ذلك الكوفيون والمبرد والأخفش من البصريين، وعليه ابن درستويه، ومنعه البصريون. انظر: الأصول ١/٤٠٩، واللمع ١٥٥، والتبصرة والتذكرة ١/٢٨٥، وكشف المشكل ١/٦٢٥، وشرح عيون الإعراب ٢٠١، وشرح المفصل ٨/١٠، وارتشاف الضرب ٢/٤٤١، ومغني اللبيب ٤/١٣٦.

(2) سورة التوبة، من الآية (١٠٨).

(3) انظر: الكتاب ٤/٢٢٥، والأصول ١/٤٠٩، ومعاني الحروف ٩٧، واللمع ١٥٥، والتبصرة والتذكرة ١/٢٨٥، وكشف المشكل ١/٦٢٥، وشرح عيون الإعراب ٢٠١، وشرح المفصل ٨/١٢، وارتشاف الضرب ٢/٤٤٢، ومغني اللبيب ٤/١٣٩.

(4) سورة آل عمران، من الآية (٩٢).

(5) انظر: شرح الكافية الشافية ٢/٨٠٠، وارتشاف الضرب ٢/٤٤٢، والجنى الداني ٣١٦، وأوضح المسالك ٣/٢٣، ومغني اللبيب ٤/١٤٦.

(6) سورة التوبة، من الآية (٣٨).

(7) انظر: حروف المعاني ٧٦، وارتشاف الضرب ٢/٤٤٣، والجنى الداني ٣١٩، وأوضح المسالك ٣/٢٤، ومغني اللبيب ٤/١٥٧.

(8) سورة فاطر، من الآية (٤٠).

(9) انظر: ارتشاف الضرب ٢/٤٤٢، والجنى الداني ٣١٥، ومغني اللبيب ٤/١٤٤، وأوضح المسالك ٣/٢٤.

(10) سورة نوح، من الآية (٢٥).

(11) انظر: التبصرة والتذكرة ٢٨٥، ومعاني الحروف ٩٧، وكشف المشكل ١/٦٢٥، وشرح المفصل ٨/١٢، وشرح الكافية الشافية ٢/٧٩٩.

(12) سورة الحج، من الآية (٣٠).

وتأتي للقسم بمعنى الواو [1]، فلا تدخل إلا على "ربي"، كما في قولك: مِنْ ربي لأخرجن، ومِنْ ربي إنك لأشر.

وتأتي للمجاوزة بمعنى "عن" [2]، كما في قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [3].

وتأتي بمعنى "على" [4]، كما في قوله تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ [5].

وتأتي بمعنى الباء [6]، كما في قوله تعالى: ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [7].

وتأتي بمعنى عند [8]، كما في قوله تعالى: ﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ [9].

وتأتي بمعنى الفصل [10]، وهي الداخلة على ثاني المتضايفين، كما في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ [11].

وتأتي بمعنى "ربما" [12]، وذلك إذا اتصلت بـ"ما"، كما في قول الشاعر:

وإنا لمما نضرب الكبش ضربة ... على رأسه تلقي اللسان من الفم [13]

---

(1) انظر: معاني الحروف ٩٨، وشرح عيون الإعراب ٢٠١، وكشف المشكل ٥٦٢/١، والجنى الداني ٣١٩.

(2) انظر: الكتاب ٢٢٧/٤، ومعاني الحروف ٩٨، وكشف المشكل ٥٦٢/١، ورصف المباني ٣٨٩، والجنى الداني ٣١٦، ومغني اللبيب ١٥٢/٤.

(3) سورة الزمر، من الآية ٢٢.

(4) انظر: حروف المعاني ٨٢، وكشف المشكل ٥٦٢/١، والتسهيل ١٤٤، وشرحه ١٣٦/٣، وارتشاف الضرب ٤٤/٢، والجنى الداني ٣١٨، ومغني اللبيب ١٦٠/٤.

(5) سورة الأنبياء، من الآية (٧٧).

(6) انظر: حروف المعاني ٧٦، وكشف المشكل ٥٦٢/١، وارتشاف الضرب ٤٤٢/٢، والجنى الداني ٣١٨، ومغني اللبيب ١٥٦/٤.

(7) سورة الرعد، من الآية (١١).

(8) انظر: مجاز القرآن ٨٧/١، والبحر المحيط ٣٨٨/٢، ومغني اللبيب ١٥٨/٤، وهمع الهوامع ٢١٥/٢.

(9) سورة المجادلة، من الآية (١٧).

(10) انظر: التسهيل ١٤٤، وشرحه ١٣٧/٣، وارتشاف الضرب ٤٤٣/٢، والجنى الداني ٣١٨، ومغني اللبيب ١٦٠/٤، وهمع الهوامع ٢١٤/٢.

(11) سورة البقرة، من الآية (٢٢٠).

(12) انظر: مغني اللبيب ٩١/٤، ١٥٨، والتصريح ٦٤١/١.

(13) البيت لأبي حية النميري في ديوانه ١٧٤، والكتاب ١٥٦/٣، والمقتضب ١٧٤/٤، وأمالي ابن الشجري ٢٤٤/٢.

وتأتي بمعنى "إلى" [1]، كما في قول الشاعر:

أأَزْمَعْتَ مِنْ آلِ لَيْلَى ابْتِكَارا وشَطَّتْ على ذِي هَوًى أنْ تُزارا [2]

وتأتي لانتهاء الغاية [3]. قال سيبويه: "وتقول: رأيته من ذلك الموضع، فجعلته غايةً لرؤيتك" [4].

وتأتي لتوكيد العموم [5] وهي الزائدة، نحو: ما جاءني من أحد، أو ما جاءني من ديار ويكون دخولها كخروجها، وزيادتها لمجرد التوكيد، وعليه قوله تعالى: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [6].

وتأتي للتنصيص على العموم [7] وهي الزائدة، نحو: ما جاء مِنْ رجل، وتفيد نفي احتمال الوحدة، فقبل دخول "مِنْ" يحتمل نفي الجنس ونفي الوحدة، فيصح أن تقول: ما جاءني رجل بل رجلان، فإذا قلت: ما جاءني من رجل، تعيّن نفي الجنس [8].

وذكر بعض العلماء أنها يمكن أن تأتي لمعانٍ أخرى، فذكر ابن فارس [9] أنها تكون تعجبًا، نحو: ما أنت من رجل، وحسبك من رجل، وأنها تكون صلة، وذلك كقوله تعالى: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [10]، وقوله تعالى: ﴿ مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [11].

---

(1) انظر: معاني الحروف ٩٨، والتسهيل ١٤٤، وشرحه ٣/١٣٦، والتصريح ١/٦٤١.

(2) البيت للأعشى في ديوانه ٨٢، ومعاني الحروف ٩٨، وخزانة الأدب ٣/٣٠٣.
وهو في "معاني الحروف": "على ذي نوى".

(3) انظر: الكتاب ٤/٢٢٥، والأصول ١/٤١١، والتسهيل ١٤٤، وشرحه ٣/١٣٦، والجنى الداني ٣١٧، ٣١٨، والتصريح ١/٦٤٢.

(4) الكتاب ٤/٢٢٥.

(5) انظر: معاني الحروف ٩٧، شرح عيون الإعراب ٢٠١، وكشف المشكل ١/٦٢٥، والجنى الداني ٣٢٠، ومغني اللبيب ٤/١٦٤، والمساعد ٢/٢٤٩، والبرهان ٤/٤٢٢.

(6) سورة يس، من الآية (٣٠).

(7) انظر: الكتاب ٤/٢٢٥، والجنى الداني ٣٢٠، ومغني اللبيب ٤/١٦٣.

(8) انظر: الجنى الداني ٣٢٠، ومغني اللبيب ٤/١٦٣، والتصريح ١/٦٣٩.

(9) انظر: الصاحبي ٢٧٣.

(10) سورة البقرة، من الآية (١٠٥).

(11) سورة البقرة، من الآية (٢٧١).

وذكر الرماني أنها تأتي أمرًا [1]، وذلك نحو قولك: "مِنْ إذا أمرته بالمين"، وهو الكذب.

وذكر ابن يعيش الصنعاني أنها تكون بمعنى "بعد"[2]، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ﴾[3]، أي: أطعمهم بعد جوع وآمنهم بعد خوف.

لقد امتازت "مِنْ" الجارة بمعانٍ كثيرة متنوعة لا تكون لأخواتها، كما أنها تدخل على كثير من أخواتها -حروف الجر-. بل قال الكسائي: ""مِنْ" تدخل على جميع حروف الصفات إلا على الباء واللام"[4].

ومما يمكن "مِنْ" في أمية أخواتها كثرة تصرفها وتعدد معانيها. ويزيد في تمكنها أنه قيل: إنه يمكن جمع معانيها في معنى واحد. فقد ذهب النحويون ومنهم المبرد [5]، وابن السراج [6]، والزمخشري [7]، والسهيلي [8] إلى أنها لا تكون إلا لابتداء الغاية، وأن سائر المعاني التي ذكروها راجعة إلى ابتداء الغاية [9].

فهذه المعاني المتعددة والاستعمالات المختلفة التي اختصت بها "مِنْ" دون سائر أخواتها الجارات يؤهلها لتكون "أمًّا" لأخواتها.

* * *

---

(1) انظر: معاني الحروف ٩٨، وأم الباب في النحو ١٧٨.

(2) انظر: التهذيب الوسيط ٢٦٠.

(3) سورة قريش، الآية (٤).

(4) انظر: حروف المعاني ٧٧.

(5) انظر: المقتضب ١/١٨٢.

(6) انظر: الأصول ١/٤٠٩.

(7) انظر: المفصل ٢٨٥.

(8) انظر: الجنى الداني ٣٢٠.

(9) انظر: المصدر السابق ٣١٩.

خاتمة:

أسجل أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث، وهي:

١- الهدف الأساس من هذا البحث إظهار الصفات اللغوية المشتركة بين الأدوات النحوية، وقد تحقق ذلك بفضل الله ﷻ.

٢- أن اختيار مصطلح "الأم" في النحو العربي لم يكن نوعًا من الترف العقلي، أو النظر المنطقي بل كان مبنيًا على ما تتصف به من خصائص لغوية كثيرة تنفرد بها عن أخواتها؛ فاستحقت به أمومة بابها.

٣- النظرات الثاقبة، والفهم العميق لخصائص الأدوات لدى النحاة كان له الأثر الأكبر في اكتشاف هذه الأمهات وتسميتها بالأم.

٤- توجد خصائص لغوية كثيرة اشتركت بها هذه الأدوات، مما مكنها في الأصالة ببابها وأميتها لأخواتها.

٥- أنّ "إنّ" أكثر الأمهات اشتراكًا في الخصائص اللغوية؛ إذ اتصفت بجميع الخصائص، يليها "كان" التي اتصفت بأربع خصائص من خمس.

هذا ما تيسر إيراده، وأسأل الله بمنه وكرمه القبول للبحث، فهو الموفق والمعين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه

* * *

المصادر والمراجع

١- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر. الشيخ أحمد بن محمد الدمياطي الشافعي الشهير بالبناء. علق عليه علي محمد الضباع. دار الندوة الجديدة -بيروت.

٢- ارتشاف الضرب من لسان العرب. أبو حيان الأندلسي. تحقيق: د. مصطفى أحمد النماس. مطبعة النسر الذهبي. الطبعة الأولى. ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٣- الإرشاد إلى علم الإعراب. شمس الدين محمد القرشي الكيشي. تحقيق: د. عبدالله الحسيني. د. محسن العميري. جامعة أم القرى. الطبعة الأولى. ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م.

٤- أسرار العربية. أبو البركات الأنباري. تحقيق: محمد وعاصم بهجة البيطار. دار البشائر - دمشق. الطبعة الثانية. ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

٥- الأشباه والنظائر في النحو. الشيخ جلال الدين السيوطي. دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة الأولى. ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٦- الأصول في النحو. أبو بكر محمد بن السري المعروف بابن السراج. تحقيق: د. عبدالحسين الفتلي. مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة الأولى. ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٧- إعراب القراءات السبع وعللها. أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن خالويه. تحقيق: د. عبدالرحمن العثيمين. مكتبة الخالدي - القاهرة. الطبعة الأولى. ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

٨- إعراب القراءات الشواذ. أبو البقاء عبدالله بن الحسين العكبري. تحقيق: د. عبدالحميد السيد عبدالحميد. المكتبة الأزهرية للتراث - القاهرة. الطبعة الأولى. ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

٩- إعراب القرآن. أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس. تحقيق: زهير غازي زاهد. عالم الكتب. الطبعة الثانية. ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

١٠- الإعراب عن قواعد الإعراب. ابن هشام الأنصاري. تحقيق: عماد الدين علوان العبادي وآخر. دار الفكر - عمّان. الطبعة الأولى. ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.

١١- الأغاني. أبو الفرج الأصفهاني. دار الفكر.

١٢- الإغفال. أبو علي الفارسي. تحقيق: د. عبدالله بن عمر الحاج إبراهيم. المجمع الثقافي – أبو ظبي. ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

١٣- الأمالي الشجرية. إملاء الشريف أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة العلوي المعروف بابن الشجري. دار المعرفة – بيروت.

١٤- الأمالي النحوية (أمالي القرآن الكريم). ابن الحاجب. تحقيق: هادي حسين حمودي. مكتبة النهضة العربية، وعالم الكتب. الطبعة الأولى. ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

١٥- أم الباب في النحو (دراسة نحوية). أريج بنت عثمان بن إبراهيم المرشد. رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم اللغة العربية بجامعة أم القرى، صفر ١٤٢٢هـ.

١٦- الأمهات في الأبواب النحوية. د. حسين أحمد العثمان. مؤسسة الريان – بيروت. الطبعة الأولى. ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

١٧- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين. أبو البركات الأنباري. دار الفكر – بيروت.

١٨- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك. ابن هشام الأنصاري. تحقيق: بركات يوسف هبود. دار الفكر – بيروت، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

١٩- البحر المحيط. محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي. دار الفكر. الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٢٠- البسيط في جمل الزجاجي. ابن أبي الربيع. تحقيق: د. عياد بن عيد الثبيتي. دار الغرب الإسلامي – بيروت. الطبعة الأولى. ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

٢١- بغية الإيضاح لتخليص المفتاح في علوم البلاغة. عبدالمتعال الصعيدي. مكتبة الآداب – القاهرة. ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

٢٢- البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني). د. فضل حسن عباس. دار الفرقان – إربد. الطبعة الرابعة. ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

٢٣- البيان والتبيين. أبو عثمان الجاحظ. تحقيق: عبدالسلام هارون. دار الجيل – بيروت.

٢٤- التبصرة والتذكرة. أبو محمد عبدالله بن علي الصيمري. تحقيق: د. أحمد فتحي مصطفى. طبعة جامعة أم القرى. الطبعة الأولى. ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٢٥- التحرير والتنوير. الشيخ محمد الطاهر بن عاشور. دار سحنون - تونس.

٢٦- تحقيق الفوائد الغياثية. شمس الدين محمد بن يوسف الكرماني. تحقيق: د. علي بن دخيل الله العوفي. مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة. الطبعة الأولى. ١٤٢٤هـ.

٢٧- تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد. ابن هشام الأنصاري. تحقيق: عباس مصطفى الصالحي. دار الكتاب العربي - بيروت. الطبعة الأولى. ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٢٨- التخمير (شرح المفصل في صنعة الإعراب). صدر الأفاضل القاسم بن الحسين الخوارزمي. تحقيق: د. عبدالرحمن العثيمين. دار الغرب الإسلامي - بيروت. الطبعة الأولى. ١٩٩٠م.

٢٩- تذكرة النحاة. أبو حيان الغرناطي الأندلسي. تحقيق: د. عفيف عبدالرحمن. مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة الأولى. ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٣٠- التذييل والتكميل في شرح التسهيل. أبو حيان الأندلسي الغرناطي. مطبعة السعادة - القاهرة. الطبعة الأولى. ١٣٢٨هـ.

٣١- التصريح على التوضيح. الشيخ خالد الأزهري. وبهامشه حاشية الشيخ ياسين.

٣٢- تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد. الشيخ محمد بدر الدين الدماميني. تحقيق: د. محمد المفدى. الطبعة الأولى. ١٤٠٣هـ / ١٩٩٠م.

٣٣- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن). محمد بن جرير الطبري. مطبعة مصطفى البابي الحلبي -القاهرة. الطبعة الثالثة. ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

٣٤- التهذيب الوسيط في النحو. ابن يعيش الصنعاني. تحقيق: د. فخر صالح سليمان قدارة. دار الجيل - بيروت. الطبعة الأولى. ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

٣٥- توجيه اللمع. أحمد بن الحسين بن الخباز. تحقيق: د. فايز دياب. دار السلام - القاهرة. الطبعة الأولى. ١٤٢٣هـ / ٢٠٠١م.

٣٦- توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، ابن أم قاسم المعروف بالمرادي، تحقيق: د. عبدالرحمن علي سليمان، مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الثانية.

٣٧- التوطئة، أبو علي الشلوبيني، تحقيق: د. يوسف أحمد المطوع، مطابع سجل العرب.

٣٨- التيسير في القراءات السبع، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، عني بتصحيحه أوتوير تزل، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٣٩- ثمار الصناعة في علم العربية، أبو عبدالله الحسين بن موسى الدينوري المعروف بالجليس، تحقيق: د. محمد بن خالد الفاضل، جامعة الإمام، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

٤٠- الجامع الصحيح للترمذي، تحقيق: وشرح أحمد محمد شاكر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م.

٤١- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٤٢- الجمل في النحو، أبو القاسم الزجاجي، تحقيق: د. علي توفيق أحمد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

٤٣- الجنى الداني في حروف المعاني، حسن بن قاسم المرادي، تحقيق: طه محسن، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر – جامعة الموصل، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

٤٤- حاشية الخضري على شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك، الشيخ محمد الدمياطي الشافعي الخضري، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، طبعة سنة: ١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م.

٤٥- حاشية على شرح الفاكهي لقطر الندى، ياسين بن زين الدين الحمصي الشافعي على مجيب النداء إلى شرح قطر الندى، أحمد الفاكهي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الثانية، ١٣٠٩هـ / ١٩٧١م.

٤٦- الحجة في علل القراءات السبع، أبو علي الفارسي، تحقيق: علي النجدي ناصف وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٤٧- الحجة في القراءات السبع لابن خالويه، تحقيق: د. عبدالعال سالم مكرم، عالم الكتب - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.

٤٨- الحجة للقراء السبعة، أبو علي الحسن الفارسي، تحقيق: بدر الدين قهوجي، وبشير جويجاتي، دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٤٩- حروف المعاني، أبو القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق: د. علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، الأردن، إربد، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ / ١٨٨٦م.

٥٠- الحلل في شرح أبيات الجمل، لابن السيد البطليوسي، تحقيق: د. مصطفى إمام، مطبعة الدار المصرية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.

٥١- الحمل على الجوار في القرآن الكريم، د. عبدالفتاح الحموز، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٥٢- خزانة الأدب ولب لسان العرب، عبدالقادر البغدادي، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، الناشر مكتبة الخانجي - القاهرة، ١٤٠٠هـ / ١٩٩٩م.

٥٣- خصائص أمهات الأبواب النحوية، الدكتورة فايزة المؤيد، الدراسة منشورة في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في عددها الخامس والثلاثين، الصادر في شهر رجب عام ١٤٢٢هـ.

٥٤- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: د. أحمد الخراط، دار القلم - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٥٥- الدرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع في العلوم العربية، أحمد بن الأمين الشنقيطي، تحقيق: د. عبدالعال سالم مكرم، دار البحوث العلمية - الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٥٦- دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، الناشر السيد محمد رشيد رضا.

٥٧- ديوان أبي النجم العجلي، صنعه وشرحه علاء الدين أغا، النادي الأدبي - الطائف، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٥٨- ديوان أبي نواس، دار صادر، بيروت.

٥٩- ديوان امرئ القيس، دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.

٦٠- ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

٦١- ديوان جميل بثينة. دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت. ١٣٨٥هـ.

٦٢- ديوان ذي الرمة. المكتب الإسلامي للطباعة. الطبعة الثانية. ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.

٦٣- ديوان الراعي النميري. جمع وتحقيق: راينهرت ثايبرت. دار النشر فرانتس شتاينر بقيسبادن - بيروت. ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م.

٦٤- ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني. تحقيق: صلاح الدين الهادي. دار المعارف - مصر. ١٩٦٨.

٦٥- ديوان طرفة بن العبد. دار بيروت - بيروت. ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

٦٦- ديوان العباس بن مرداس السلمي. جمع تحقيق: يحيى الجبوري. المؤسسة العامة للصحافة والنشر، ودار الجمهورية - بغداد. ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

٦٧- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات. تحقيق: د. محمد يوسف نجم. دار صادر - بيروت. ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م.

٦٨- ديوان الفرزدق. دار صادر. بيروت.

٦٩- ديوان المتنبي، شرح أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي. فريدرخ ديترصي، طبعة برلين المحروسة. ١٨٤١م.

٧٠- ديوان النابغة الذبياني. شرح وتقديم عباس عبدالساتر. دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة الأولى. ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م.

٧١- رصف المباني في شرح حروف المعاني. أحمد بن عبدالنور المالقي. تحقيق: د. أحمد الخراط. دار القلم - دمشق. الطبعة الثانية. ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٧٢- رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز. عز الدين عبدالرزاق الرسعني الحنبلي. تحقيق: د. عبدالملك بن دهيش. مكتبة الأسدي - مكة المكرمة. الطبعة الأولى. ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

٧٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. شهاب الدين السيد محمود الألوسي. تحقيق: فؤاد بن سراج عبدالغفار. المكتبة التوفيقية - القاهرة.

٧٤- السبعة في القراءات. ابن مجاهد. تحقيق: د. شوقي ضيف. دار المعارف - القاهرة. الطبعة الثانية.

٧٥- سر صناعة الإعراب. أبو الفتح عثمان بن جني. دراسة وتحقيق: د. حسن هنداوي. دار القلم - دمشق. الطبعة الأولى. ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٧٦- سنن الترمذي. تحقيق: كمال يوسف الحوت. دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة الأولى. ١٤٠٨هـ.

٧٧- سيرة النبي ﷺ. أبو محمد عبدالملك بن هشام. ضبطها: الشيخ محمد محي الدين عبدالحميد. رئاسة البحوث العلمية والإفتاء - الرياض.

٧٨- شرح ابن عقيل، ومعه كتاب منحة الجليل شرح ابن عقيل. محمد محي الدين عبدالحميد. مطبعة السعادة - مصر. الطبعة الرابعة عشرة. ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.

٧٩- شرح أشعار الهذليين. أبو سعيد الحسن السكري. تحقيق: عبدالستار أحمد فراج. مكتبة دار العروبة - القاهرة. مطبعة المدني.

٨٠- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك بحاشية الصبان. دار إحياء الكتب العربية. عيسى البابي الحلبي - القاهرة.

٨١- شرح ألفية ابن معط. عبدالعزيز بن جمعة الموصلي. تحقيق: د. علي موسى الشوملي. مكتبة الخريجي. الطبعة الأولى. ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٨٢- شرح التسهيل لابن مالك الأندلسي. تحقيق: د. عبدالرحمن السيد. ود. محمد بدوي المختون. هجر للنشر والطباعة - القاهرة. الطبعة الأولى. ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

٨٣- شرح التسهيل (المسمى بتمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد). محب الدين محمد بن يوسف بن أحمد المعروف بناظر الجيش. تحقيق: د. علي فاخر وآخرين. دار السلام - القاهرة. الطبعة الأولى. ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.

٨٤- شرح جمل الزجاجي. ابن هشام الأنصاري. تحقيق: د. علي محسن مال الله. عالم الكتب - بيروت. الطبعة الأولى. ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٨٥- شرح حماسة أبي تمام. أبو علي المرزوقي. تحقيق: د. أحمد آمين وعبدالسلام هارون. لجنة التأليف والترجمة - القاهرة. ١٩٦٧م.

٨٦- شرح الحماسة للتبريزي. بولاق. ١٢٩٢هـ.

٨٧- شرح ديوان الأعشى، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٨٨- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، د. أحمد طلعت، منشورات دار القاموس الحديث – بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٠م.

٨٩- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، ابن هشام الأنصاري، (ومعه كتاب منتهى الأرب)، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد.

٩٠- شرح شواهد المغني، للسيوطي، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت.

٩١- شرح عيون الإعراب، أبو الحسن علي بن فضال المجاشعي، تحقيق: د. عبدالفتاح سليم، مكتبة الآداب – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

٩٢- شرح كافية ابن الحاجب، الرضي الاستراباذي، تحقيق: د. حسن الحفظي، ود. يحيى بشير مصري، جامعة الإمام، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

٩٣- شرح الكافية الشافية، أبو عبدالله محمد بن مالك، تحقيق: د. عبدالمنعم هريدي، دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٩٤- شرح كتاب سيبويه، أبو سعيد السيرافي، تحقيق: د. رمضان عبدالتواب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.

٩٥- شرح اللمع، ابن برهان العكبري، تحقيق: فائز فارس، الطبعة الأولى، الكويت، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٩٦- شرح اللمع للأصفهاني، أبو علي بن الحسين الباقولي، تحقيق: د. إبراهيم أبو عياة، جامعة الإمام، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

٩٧- شرح المفصل، ابن يعيش النحوي، عالم الكتب – بيروت، ومكتبة المثنى – القاهرة.

٩٨- شرح المقدمة الجزولية الكبير الأستاذ أبو علي الشلوبين، تحقيق: د. تركي العتيبي، مكتبة النحوي، عالم الكتب – بيروت، ومكتبة المثنى – القاهرة.

٩٩- شرح ملحة الإعراب، القاسم بن علي الحريري، تحقيق: د. أحمد محمد قاسم، مكتبة دار التراث، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.

١٠٠- شروح التلخيص (مختصر سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح)، القزويني، و(مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح)، ابن يعقوب المغربي، و(عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)، بهاء الدين السبكي، مؤسسة دار البيان العربي – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

١٠١- شعر عمر بن أحمر الباهلي، تحقيق: د. حسن عطوان، مطبوعات مجمع اللغة العربية – دمشق.

١٠٢- شعر عمرو بن معدي كرب الزبيدي، تحقيق: مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية – دمشق، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

١٠٣- الصاحبي، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: السيد أحمد صقر، مطبعة عيس البابي الحلبي – القاهرة، ١٩٧٧م.

١٠٤- صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة – بيروت.

١٠٥- صحيح مسلم، مطبعة عيسى البابي الحلبي – مصر.

١٠٦- العقد الفريد، ابن عبدربه، ضبطه أحمد أمين وآخران، دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣.

١٠٧- علم المعاني (دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني)، د. بسيوني عبدالفتاح غيود، مؤسسة المختار – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.

١٠٨- العنوان في القراءات السبع، أبو طاهر بن إسماعيل بن خلف المقرئ، تحقيق: د. زهير زاهد، ود. خليل عطية.

١٠٩- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، الحسن القمي النيسابوري، ضبطه: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

١١٠- عيون الأخبار، ابن قتيبة الدينوري، دار الكتاب العربي – بيروت، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، ١٣٤٣هـ / ١٩٢٥م.

١١١- الغاية في القراءات العشر، أبو بكر بن مهران الأصبهاني، تحقيق: محمد غياث الخباز، دار الشواف – الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.

١١٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الشيخ عبدالعزيز بن باز، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء – الرياض.

١١٣- الفصل والوصل في القرآن الكريم، د. منير سلطان، منشأة المعارف – الإسكندرية، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.

١١٤- الفوائد الضيائية شرح كافية ابن الحاجب، نور الدين عبدالرحمن الجامي، تحقيق: أسامه طه الرفاعي، مطبعة وزارة الأوقاف و الشؤون الدينية، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

١١٥- الكافية في النحو، ابن الحاجب النحوي، تحقيق: د. طارق نجم الدين، مكتبة دار الوفاء، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

١١٦- الكامل في اللغة والأدب، أبو العباس المبرد، علق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي.

١١٧- الكتاب، سيبويه، تحقيق: وشرح عبدالسلام محمد هارون، الهيئة المصرية للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٧٧م.

١١٨- الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد، المنتخب الهمذاني، تحقيق: محمد نظام الدين الفتيح، دار الزمان – المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.

١١٩- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – القاهرة، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.

١٢٠- الكشف عن وجوه القراءات العشر وعللها وحججها، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: د. محي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

١٢١- كشف المشكل في النحو، علي بن سليمان الحيدرة اليمني، تحقيق: د. هادي عطية مطر، مطبعة الإرشاد – بغداد، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

١٢٢- الكناش في النحو والتصريف، أبو الفداء، تحقيق: د. جودة مبروك محمد، مكتبة الآداب – القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

١٢٣- لباب الإعراب، تاج الدين الإسفرائيني، دراسة وتحقيق: بهاء الدين عبدالوهاب عبدالرحمن، دار الرفاعي – الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٤م.

١٢٤- لسان العرب، ابن منظور الأفريقي المصري، دار صادر – بيروت.

١٢٥- اللمع في العربية، أبو الفتح بن جني، تحقيق: د. حسين شرف، عالم الكتب، ١٩٧٩م.

١٢٦- مجاز القرآن. أبو عبيدة معمر بن المثنى. علق عليه: محمد فؤاد سزكين.

١٢٧- مجالس ثعلب. أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب. شرح وتحقيق: عبدالسلام محمد هارون. مكتبة الخانجي – القاهرة. الطبعة الثانية. ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

١٢٨- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها. أبو الفتح ابن جني. تحقيق: د. علي النجدي ناصف وآخرين. دار سزكين للطباعة والنشر. الطبعة الثانية. ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

١٢٩- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. أبو محمد عبدالحق بن عطية الأندلسي. تحقيق: الشيخ عبدالله الأنصاري وآخرين. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – قطر. الطبعة الثانية. ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.

١٣٠- مختصر السعد شرح تلخيص كتاب مفتاح العلوم. سعد الدين التفتازاني. تحقيق: د. عبدالحميد هنداوي. المكتبة العصرية – بيروت. الطبعة الأولى. ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.

١٣١- المزهر في علوم اللغة وأنواعها. جلال الدين السيوطي. شرحه وضبطه: محمد أحمد جاد المولى وآخرين. دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي.

١٣٢- المساعد على تسهيل الفوائد. ابن عقيل. تحقيق: د. محمد كامل بركات. دار المدني – جدة. ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م.

١٣٣- مشكل إعراب القرآن. أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي. تحقيق: ياسين محمد السواس. دار المأمون – دمشق. الطبعة الثانية.

١٣٤- معاني الحروف. أبو الحسن عيسى بن علي الرماني النحوي. تحقيق: د. عبدالفتاح إسماعيل شلبي. دار الشروق للنشر والتوزيع – جدة. الطبعة الثالثة. ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

١٣٥- معاني القرآن. أبو الحسن الأخفش الأوسط. تحقيق: د. فائز فارس. الطبعة الثانية. ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

١٣٦- معاني القرآن. أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء. تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٨٠م.

١٣٧- معاني القرآن وإعرابه. أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج. شرح وتحقيق: د. عبدالجليل عبده شلبي. عالم الكتب. الطبعة الأولى. ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

١٣٨- معجم شواهد النحو الشعرية. د. حنا جميل حداد. دار العلوم – الرياض. الطبعة الأولى. ١٤٠٤ه / ١٩٨٤م.

١٣٩- المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية. د. إميل بديع يعقوب. دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى. ١٤١٣ه / ١٩٩٢م.

١٤٠- مغني اللبيب عن كتاب الأعاريب. ابن هشام الأنصاري. تحقيق: د. عبداللطيف الخطيب. المجلس الوطني للثقافة – الكويت. الطبعة الأولى. ١٤٢١ه / ٢٠٠٠م.

١٤١- المفصل في علم العربية. محمود بن عمر الزمخشري. تحقيق: د. خالد بن إسماعيل حسان. مكتبة الآداب – القاهرة. الطبعة الأولى. ١٤٢٧ه / ٢٠٠٦م.

١٤٢- المفصل في علوم البلاغة العربية. د. عيسى علي العاكوب. دار القلم – دبيلا. الطبعة الأولى. ١٤١٧ه / ١٩٩٦م.

١٤٣- المقاصد النحوية في شرح شواهد الألفية المشهور بـ(الشواهد الكبرى). بدر الدين العيني. تحقيق: محمد باسل عيون السود. دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى. ١٤٢٦ه / ٢٠٠٥م.

١٤٤- المقتصد في شرح الإيضاح. عبدالقاهر الجرجاني. تحقيق: د. كاظم بحر المرجان. وزارة الثقافة العراقية. دار الرشيد. ١٩٨٢م.

١٤٥- المقتضب. أبو العباس محمد بن يزيد المبرد. تحقيق: د. محمد عبدالخالق عضيمة. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. ١٣٩٩ه.

١٤٦- موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان. نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي. تحقيق: الشيخ شعيب الأرنؤوط. ومحمد رضوان العرقسوسي. مؤسسة الرسالة. الطبعة الأولى. ١٤١٤ه / ١٩٩٣م.

١٤٧- النحو الوافي. عباس حسن. دار المعارف – مصر. الطبعة الثامنة.

١٤٨- النشر في القراءات العشر. ابن الجزري. قدم له. وحقق نصوصه. وعلق عليه د. محمد سالم محيسن. الناشر مكتبة القاهرة.

١٤٩- النوادر في اللغة. أبو زيد الأنصاري. دار الكتاب العربي – بيروت. الطبعة الثانية. ١٣٨٧ه / ١٩٦٧م.

١٥٠- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين السيوطي. تحقيق: د. عبدالعال سالم مكرم، دار البحوث العلمية – الكويت. د ١٣٩٥هـ / د ١٩٧٥م.

١٥١- الوجيز في الأدوات النحوية. حسن محمود موسى النميري. دار المعراج الدولية للنشر. الطبعة الأولى. ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.

١٥٢- الوسيط في تفسير القرآن المجيد. أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي. تحقيق: محمد حسن أبو عزم الزفيتي. القاهرة. ١٤٠٦هـ.

* * *

بلاغة كلمة التوحيد

"لا إله إلا الله"

د. عويض بن حمود العطوي
قسم اللغة العربية – كلية التربية والآداب
جامعة تبوك

بلاغة كلمة التوحيد "لا إله إلا الله"

د. عويض بن حمود العطوي
قسم اللغة العربية – كلية التربية والآداب
جامعة تبوك

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث الذي عنوانه (بلاغة كلمة التوحيد: لا إله إلا الله) لكشف المعاني البلاغية في هذه الكلمة الشريفة من خلال مكوناتها الرئيسة: الصوت، والكلمة، والتركيب.

وقد اتبع الباحث المنهج التحليلي لهذه العناصر التي شكلت مباحث الدراسة، وخلص إلى ما يأتي:

أولاً: دلالة الصوت.

- أن الأصوات المكونة لهذه الكلمة أربعة هي: (اللام، الألف، الهمزة، الهاء) وهذه بعينها هي أصوات لفظ الجلالة الله، وقد خلت الكلمة الشريفة من الأصوات الشفوية، أو المجهورة المصوتة، لذا يمكن النطق بها سراً، ودون تحرك الشفة، والمد الوحيد فيها هو الألف الممتد نحو العلو، وتناسب معه شيوع حركة الفتحة فيها.

ثانياً: دلالة الكلمة.

- أن هذه الكلمة تكونت من أربع مفردات، أداتان: (لا، إلا) واسمان:(إله، الله) وبين الأداتين وبين الاسمين تناسب ظاهر فكل أداة سبقت اسماً، فتقدمت أداة النفي على (إله) وتقدمت أداة الإثبات(إلا) على لفظ الجلالة (الله)، وكانت الأداتان هما الأقوى في بابهما، فـ(لا) للنفي المطلق، و (إلا) هي أم الباب في الاستثناء، كما أن المادة اللغوية العامة في الكلمة هي الألوهية نفياً وإثباتاً.

ثالثاً: دلالة التركيب.

- جاءت الكلمة الشريفة بأسلوب القصر وهو أقوى طرق التوكيد، كما أن طريق القصر النفي والاستثناء هو الأوسع دلالة لاشتماله على معنيين: نفي وإثبات صراحة، كما أنه أقوى الطرق في رد الإنكار والتكذيب، ومع إيجاز الكلمة فليس فيها حذف –رغم وجود من يقول به– بل هي دون القول بالتقدير أوضح دلالة وأبعد عن التنازع في معناها.

مدخل:

لما كانت كلمة (لا إله إلا الله) هي شعار الإسلام، كان لابد من العناية بها، وإظهار مدلولها، الذي بهر العرب وأذهل عقولهم، وكشف لهم حقيقة معبوداتهم، فاستعظموا أمرها، ورفضوا قولها، ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] وقاتلوا الداعي إليها نبي الهدى محمد صلى الله عليه وسلم.

ومع عِظم معنى هذه الكلمة، وشدة تأثيرها، إلا أن جلّ الدراسات حولها توجهت للجانب النحوي والإعرابي[١]، أما جوانبها البلاغية الدلالية فلا أعرف -فيما أعلم- أن هناك دراسة تخصصت في إبراز دلالات هذه الكلمة من الناحية البلاغية في موضع واحد. رغم مكانتها العظيمة التي يعرفها كل مسلم، يقول النبي صلى الله عليه و سلم: "ما من أحد يشهد أن لا اله إلا الله، وأن محمداً رسول الله صِدقاً من قلبه، إلا حرّمه الله على النار..."[٢]، وهي أفضل الذكر كما قال صلى الله عليه وسلم: "أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله"[٣]، لهذا يستحب الإكثار من ذكرها، روى أبو يعلى بإسناد جيد عن أبي

---

(١) صنف علماؤنا القدامى كثيراً من الرسائل في بيان إعراب (لا إله إلا الله)، ومن ذلك:

*المرقاة في إعراب لا إله إلا الله لابن الصائغ الزمردي الحنفي المتوفى بمصر سنة ٧٧٥ هـ.

*رسالة في إعراب لا إله إلا الله، لابن هشام الأنصاري، المتوفى سنة ٧٦١ هـ.

*رسالة في إعراب لا إله إلا الله، للزركشي المتوفى سنة ٧٩٤هـ.

*إنباه الأنباه على تحقيق إعراب لا إله إلا الله، لإبراهيم بن حسن الكوراني، المتوفى سنة ١١٠١هـ.

*التجريد في إعراب كلمة التوحيد لعلي بن سلطان القاري المتوفى سنة ١٠١٤هـ.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، وهو مطبوع مع: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي (دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م) ح (١٢٨)، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (دار الحرمين، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م) ح (١٩٠٤)، كتاب الدعاء، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: "أكثروا من شهادة أن لا اله إلا الله، قبل أن يُحال بينكم و بينها، ولقنوها موتاكم"[1].

وهذه الكلمة هي"مفتاح دار السعادة، وهي أصل الدين وأساسه ورأس أمره، وساق شجرته، وعمود فسطاطه، وبقية أركان الدين وفرائضه متفرعة عنها، متشعبة منها، مكملات لها، مقيدة بالتزام معناها والعمل بمقتضاها، فهي العروة الوثقى التي قال الله عز وجل فيها:﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٦]"[2].

وهي أثقل شيء في ميزان العبد يوم القيامة، كما في المسند عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، عن النبي صلي الله عليه وسلم قال: "إنّ نوحاً –عليه السلام– قال لابنه عند موته: ... آمرك بلا إله إلا الله فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله الا الله في كفة، رجحت بهن لا إله الا الله، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله الا الله"[3].

ولهذا كان لابد من العناية بمبناها ومعناها، وتوضيح دلالتها، يقول العلامة علي القاري: "فيتعين على كل موقن أن يعتني بشأنها مبنى ومعنى، ليُنْقَل من إفادة مبناها إلى إعادة معناها، فإنها مفتاح الجَنَّة، وعن النار بمنزلة الجُنَّة، للناس والجِنَّة، وقد نص الأئمة من سادات الأمة، أنه لا بد من فهم معناها المترتب على علم مبناها، ليخرج من ربقة التقليد،

---

(١) رواه السيوطي في الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، تحقيق: يوسف النبهاني (دار الفكر، بيروت، لبنان، ط ١،١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م) ح (٢٣٢٣)، وقال الألباني: حسن.

(٢) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، حافظ بن أحمد حكمي، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٠–١٩٩٠، ٢/ ٤١١.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، تحقيق: شعيب الأرناؤوط،(مؤسسة قرطبة، القاهرة) ح (٦٥٨٣)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

ويـدخل فـي رفعـة التحقيـق والتأييـد. وقـد قـال الله تعـالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]"[1].

ويسعى هذا البحث لدراسة هذا الجانب المتعلق ببلاغة هذه الكلمة ومدلولها، وحيث إن هذه الكلمة (لا إله إلا الله) جاءت على نمط معيّن. فهي تتكون من ألفاظ ومفردات محددة، كما أنها جاءت بتركيب خاص مبني على النفي والإثبات، لذلك كله ستقوم الدراسة على مراعاة ثلاثة أمور: دلالة الصوت، واللفظ المفرد، والتركيب، ولتحقيق ذلك جاء تقسيم البحث على النحو التالي: مدخل وثلاثة مباحث وخاتمة.

مدخل: وفيه بيان موجز لمنزلة هذه الكلمة، والدراسات السابقة.

المبحث الأول: دلالة الصوت، ويشمل:

المطلب الأول: دلالة المخرج.

المطلب الثاني: دلالة المقطع.

المطلب الثالث: دلالة الحركة.

المبحث الثاني: دلالة اللفظ المفرد، ويشمل:

المطلب الأول: (لا).

المطلب الثاني: (إله).

المطلب الثالث: (إلا).

المطلب الرابع: (الله).

المبحث الثالث: دلالة التركيب.

المطلب الأول: القصر.

المطلب الثاني: الحذف والذكر.

الخاتمة: نتائج البحث.

---

(١) التجريد في إعراب كلمة التوحيد. علي بن سلطان القاري. تحقيق: مشهور حسن سليمان (المكتب الإسلامي. دار عمار' ط١. ١٤١١هـ ١٩٩١م) ١٤.

المبحث الأول: دلالة الصوت.

سنبيّن – بمشيئة الله – في هذه الدراسة دلالات كل مكونات هذه الكلمة الشريفة. وسنبدأ بأدق تلك المكونات وهو الصوت. ونحن ندرك صعوبة الدراسة الصوتية، لكننا سنحاول وصف الجانب الصوتي في هذه الكلمة الشريفة، ونستنتج ما يمكن الوصول إليه من دلالات، خصوصاً أن هذه الكلمة الشريفة بنيت على أربعة أصوات فقط هي: الهمزة واللام والألف والهاء، وقد بلغت مع التكرار خمسة عشر صوتاً، صوتان في (لا)، وأربعة في (إله)، وأربعة في (إلا)، وخمسة في لفظ الجلالة (الله).

وسنتناول هذه الأصوات حسب منهج محدد يتعلق بالمخرج والصفة، والمقطع، والحركة.

المطلب الأول: المخرج والصفة.

لا شك أن اختلاف مخارج الأصوات، وتنوع صفاتها يؤثر في وضوحها، ومقدار إجهادها لجهاز النطق، كما يؤثر في قوتها أو ضعفها، لذا سيكون الحديث عن المخارج والأصوات متداخلاً، وحيث إن الأصوات الرئيسة في الكلمة الشريفة أربعة : (اللام، والألف، والهمزة، والهاء) فستكون هي مدار البحث، وسنوردها حسب كثرة ترددها وتكررها.

أولاً: اللام.

يخرج صوت اللام من "أدنى حافتي اللسان، أي أقربها إلى مقدم الفم بعد مخرج الضاد مع ما يليها من اللثة "أي لحمة الأسنان العليا"[1]، واللام تتصف "بست صفات وهي: الجهر، والتوسط، والاستفال، والانفتاح، والإذلاق، والانحراف"[2].

---

(١) هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، لعبد الفتاح المرصفي، (مكتبة طيبة، المدينة المنورة، الطبعة : الثانية) ٦٧/١، وقد رأيت أن المراجع في هذا الأمر تتشابه لذا اكتفيت بواحد منها رأيت أنه من أوسعها، ولأن المراد هنا هو إثبات المعلومة من مصدر معتمد فيها.

(٢) المرجع السابق ٩٦/١.

وبهذا يتضح أن اللام صوت متوسط بين القوة والضعف، وأنه أوسع الحروف مخرجاً. يقول المرصفي: "وليس في الحروف أوسع مخرجاً منه، وخروج اللام من الحافة اليسرى أقل وأعسر، ومن اليمنى أكثر وأسهل على العكس من الضاد، وخروجها من الحافتين معاً عزيز وصعب كما في الضاد"[1]، وقد يكون ذلك سبباً في سهولة النطق به، ولهذا فهو من أوضح الحروف وأظهرها، لوجود صفة الجهر فيه، وهو "قوة التصويت بالحرف لقوة الاعتماد عليه في المخرج حتى منع جريان النفَس معه، فكان فيه جهر أي إعلان وإظهار"[2]. ولا يصعب نطقه على أحد فيمكن نطقه بكل حواف اللسان، فهو بهذا من أظهر حروف الذلاقة، "وسميت بذلك لذلاقتها أي خفتها، وسرعة النطق بحروفها"[3]. "وتمتاز هذه المجموعة بوضوحها الصوتي"[4].

ومما يزيد هذا الصوت وضوحاً وسهولة صفة الانفتاح فيه، وهو "انفتاح ما بين اللسان والحنك الأعلى عند النطق بالحرف، فلا ينحصر الصوت بينهما"[5]، وهذا يعطي مجالاً أوسع للتصويت وسهولة النطق أيضاً. وهو صوت يجمع بين جريان الهواء وانحباسه، فهو متوسط في هذا الجانب، "(أي بين صفة الشدة وصفة الرخو...) بحيث يكون عند النطق به ينحبس بعض الصوت معه، ويجري بعضه، ولذا سمي متوسطاً"[6].

وبهذا يكون مخرج اللام التي هي أكثر حروف هذه الكلمة تكراراً دالاً على السهولة والوضوح بما يتناسب مع يسر هذه الكلمة ووضوحها.

---

(1) المرجع السابق ٦٧/١.

(2) المرجع السابق /٨٠.

(3) المرجع السابق /٨٣.

(4) حرف الراء دراسة صوتية مقارنة، د.عمر الدقاق، مجلة التراث العربي-مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب-دمشق العدد ١٠٤ السنة السادسة والعشرون – كانون الأول ٢٠٠٦ – ذو الحجة ١٤٢٧هـ.

(5) هداية القاري إلى تجويد كلام الباري ٨٢/١.

(6) المرجع السابق ٨٢/١.

كما نجد أن لصوق اللسان ثم انحداره نحو تجويف الفم يعطي هذا الحرف ميزة التفخيم والترقيق. ذلك أن الاستفال هو "انخفاض اللسان أو انحطاطه عن الحنك الأعلى عند النطق بالحرف فينخفض معه الصوت إلى قاع الفم... ويترتب على صفة الاستفال الترقيق لحروفها كما يترتب على صفة الاستعلاء التفخيم لحروفها"[1]، ولهذا يلحق صوت اللام في أكثر أحواله بالدرجة الأولى في الحروف المفخمة. يقول المرصفي: "الراء واللام حال تفخيمهما يتبعان حروف الاستعلاء لشبههما بها"[2]. وهي في لفظ الجلالة ترقق وتفخم، وهي هنا في كلمة التوحيد مفخمة وجوباً، يقول المرصفي: "هناك لامات مفخمة وجوباً للكل، كاللام من لفظ الجلالة الواقعة بعد الفتح والضم كقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]"[3].

ولو استعرضنا ما سبق لوجدنا هذا الصوت متوسطاً في أمور كثيرة. ففيه تفخيم وترقيق[4]، واستفال واستعلاء، وشدة ورخاوة. ومن حيث عموم الصفات فهو يجمع بين صفات القوة والضعف، يقول المرصفي: "والحرف الذي جمع بين صفات القوة والضعف كاللام والغين [يكون] متوسطاً"[5].

الألف:

وهو صوت يخرج من "الجوف –أي جوف الحلق والفم– ... ويخرج منه... حروف المد الثلاثة... وهذه الحروف ليس لها حيز محقق تنتهي إليه كما لسائر الحروف غيرها، بل تنتهي بانتهاء الصوت ولذا قبلت الزيادة على المد الطبيعي"[6]. وهذا ما أعطاها امتداداً، شمل كل المخارج، ولهذا سميت بالهوائية "ولقبت بذلك لانتشار هوائها في الفم حال

---

(١) المرجع السابق ٨١/١.

(٢) المرجع السابق ١٠٥/١.

(٣) المرجع السابق ١١٣/١.

(٤) مع لفظ الجلالة. والمقصود أنه يتعرض للتفخيم والترقيق ولو في بعض أحواله.

(٥) المرجع السابق ٩٢/١

(٦) المرجع السابق ٦٥/١.

النطق بها، حتى يمر على جميع المخارج. فهي باعتبار المد هوائية وباعتبار مخرجها من الجوف جوفية"[1].

وهذا الامتداد وسعة المجال جعلها سهلة في النطق. يقول المرصفي: "وتسمى الحروف الثلاثة هذه حروف المد واللين، لخروجها بامتداد ولين، من غير كلفة على اللسان لاتساع مخرجها"[2]. وهذا الاتساع أيضاً هو ما يجعلها حرفاً خفياً. وتقوى عند المد بالهمز[3].

ومن حيث الترقيق والتفخيم "لا توصف بتفخيم ولا بترقيق بل تابعة لما قبلها تفخيماً وترقيقاً: فإن وقعت بعد مفخم فخمت... وإن وقعت بعد مرقق رققت"[4]. والألف "تتصف بخمس صفات وهي: الجهر والرخاوة والاستفال والانفتاح والإصمات، وإذا اعتبرنا صفة الخفاء فيكون اتصافها بست صفات والواجب اعتبار هذه الصفة"[5]. وهي بهذا تكون صوتاً ضعيفاً.

الهمزة:

ويخرج صوت الهمزة من أقصى الحلق... مما يلي الصدر[6]. ويرى المحدثون من خلال علم التشريح أن مخرج الهمزة من "تجويف الحنجرة، في منطقة فتحة المزمار، لذلك فهو صوت حنجري مزماري"[7]. وعلى كل حال فهو صوت عميق، بل هو أقرب الأصوات إلى النفس. والهمزة "ترقق مطلقاً سواء كانت همزة وصل مبتدأ بها، أو همزة قطع

---

(١) المرجع السابق ١/ ٧٤.

(٢) المرجع السابق ١/ ٢٦٨.

(٣) انظر: المرجع السابق ١/ ٩١.

(٤) المرجع السابق ١/ ١١٨.

(٥) المرجع السابق ١/ ٩٥.

(٦) المرجع السابق ١/ ٦٥.

(٧) الهمزة دراسة لغوية وصرفية ونحوية، رسالة علمية (ماجستير)، سلوى محمد عرب، جامعة أم القرى، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، ص ١٩.

مرققة وجوباً، سواء جاورها حرف مفخم أو مرقق"[1]،ولهذا "نجد الهمزة من أخفض الأصوات إسماعا"[2]، وهي "تتصف بخمس صفات: الجهر والشدة والاستفال والانفتاح والإصمات"[3]، وبهذا تشترك مع اللام في ثلاث صفات هي: الجهر، والاستفال، والانفتاح.

وقد ارتبط معنى الهمزة بالنبر أو الضغط، "أي أنه دليل على وظيفة، قبل أن يكون دليلاً على صوت لغوي"[4].

والهمزة إحدى حروف الإظهار الحلقي الذي تظهر معه النون الساكنة والتنوين، وهذه خصيصة خاصة للأصوات الحلقية، وقد تشير تلك الميزة إلى أن هذه الأصوات تمنح الظهور لغيرها بمجاورته لها، وقد كانت أكثر حروف الكلمة الشريفة حلقية، أو قريبة منه وهو الجوف، ولا يوجد إلا اللام لثوي لساني، ولا يوجد فيها صوت شفوي أبداً.

الهاء:

يخرج صوت الهاء من أقصى الحلق كالهمزة، وهو يلتقي مع الهمزة في الخفاء، و"الخفاء في الهاء لاجتماع صفات الضعف فيها، ولذا قويت بالصلة إذا كانت ضميراً"[5]، ولهذا تؤثر عليها بعض الحروف، فيلزم حينها العناية بإظهارها، "ومما يجب مراعاته... تصفية الهاء أي تخليصها إذا جاورت هاء أو ياء أو غيرهما نحو﴿جِبَاهُهُمْ ﴾ [التوبة: ٣٥]... ونحو ﴿عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٧]... وذلك لأن الهاء حرف خفي ولاتصافها بصفات الضعف"[6]، فهو "الحرف الذي جمع كل صفات الضعف"[7]، وصفاته خمس هي:

---

(١) هداية القاري إلى تجويد كلام الباري ١/١١٢.

(٢) في أسس المنهج الصوتي للبنية العربية، عرض وتقييم، د. علاء عبد الأمير شهيد السنجري، أصيل محمد كاظم، جامعة الكوفة ،كلية التربية ٦.

(٣) هداية القاري إلى تجويد كلام الباري ١/٩٥.

(٤) في أسس المنهج الصوتي للبنية العربية ٦.

(٥) هداية القاري إلى تجويد كلام الباري ١/٩١.

(٦) المرجع السابق ١/١٥٣

(٧) المرجع السابق ١/٩٥.

"الهمس والرخاوة والاستفال والانفتاح والإصمات. وإذا اعتبرنا صفة الخفاء وهذا هو الواجب فيكون اتصافها بصفات ست"[1].

وقد جاءت في كلمة التوحيد بعد المد، وفي آخر الكلمة، فيكون النطق بها ظاهراً، كما أنها تكون محلّ الراحة بالوقف.

ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن كلمة التوحيد بدأت بصوت اللام الذي يخرج من طرف اللسان، وانتهت بالهاء الذي هو ألطف أصوات أقصى الحلق، واشتملت خلال ذلك على صوت جوفي هو الألف، وصوت حلقي هو الهمزة، وبهذا ندرك أن الصوت عند جهاز النطق بهذه الكلمة الكريمة يتنقل بين اللسان والحلق والجوف، وبهذا نجد توازناً صوتياً عجيباً، فالصوت اللساني الأشمل في المخرج هو اللام وقد شكل ما يقارب نصف حروف الكلمة الشريفة، وهذا يعني أن صوت اللام تكرر نطقه بما يقارب النصف، كما نجد في المقابل أن المخرج الذي استحوذ على نصف مخارج الكلمة الشريفة هو الحلق، وجاء منه في الكلمة الشريفة أعمق أصواته: الهمزة والهاء، ثم نجد الألف في كل كلمة منها وهي تمتد لتشمل كل المخارج، فنحن إذاً أمام توازن صوتي: في الصوت والمخرج.

كما نجد تناسقاً في ترتيب تكرر تلك الأصوات، فهي تتنامى في الموقع، فصوت (اللام) وقع أولاً في بداية الكلمة في (لا)، ثم أصبح ثانياً في (إله)، ثم ثانيا وثالثاً في (إلا)، ثم ثانياً وثالثاً في لفظ الجلالة (الله)، كما نجد صوت الألف ورد ثانياً، ثم ثالثاً، ثم رابعاً، ثم رابعاً، وصوت الهمزة ورد أولاً في كل الكلمات إلا (لا) فلم يرد فيها أصلاً، وصوت الهاء ورد في كلمتين فقط وهما الاسمان (إله) و(الله) وقد ورد في آخر تلك الكلمات.

ومن حيث التكرار نجد أن صوت اللام هو الأكثر حيث تكرر ست مرات، وورد في كل الكلمات، وجاء مشدّداً ومخففاً، ثم يأتي صوت الألف الذي تكرر أربع مرات، في كل كلمة مرة، ثم صوت الهمزة الذي تكرر ثلاث مرات في أوائل ثلاث كلمات: (إله، إلا، الله) ثم صوت الهاء الذي تكرر مرتين في أواخر كلمتين: (إله، الله).

---

(١) المرجع السابق ١/ ٩٥.

وبناء على ما سبق من تحليل وصفي لتلك الأصوات فإننا نجد أن أكثر الأصوات تكرراً في اللفظ الشريف هو اللام، وهو كذلك في كلمة التوحيد عموماً. وهو مرتكز الكلمة الشريفة، وهذا الصوت من ألطف الأصوات، وأكثرها وروداً لخفته وسهولته. ثم يأتي الألف الذي يمتد بسببه الصوت، ولم يرد من حروف المد إلا الألف لما فيها من اتجاه العلو. وقد جاء هذا المد في كل كلمة ليظهر مدّ الصوت بها، فتظاهر كل كلماتها، لأنها مما ينبغي أن يُمدّ بها الصوت لتبلغ كل سمع وكل أفق.

ومن حيث تجاور الأصوات نجد أن اللام التي هي الأكثر تجاورت دوماً مع ألف المد، وكأن المراد هو مدّ اللام، والهمزة تجاورت مع اللام. والهمزة شديدة مجهدة، وكأنما جاءت اللام بعدها لتكسر شدتها، وتخفف من إجهادها، ولتهيئ بوقف يسير لانطلاق المد بالألف بعدها. وجاءت الهاء طرفاً لتكون محلاً لنهاية المد في لفظي (إله) و (الله).

المطلب الثاني: دلالة المقطع

المقطع هو "أصغر كتلة نطقية يمكن أن يقف عليها المتكلم. فكلمة مثل: كتب المكونة من ثلاثة أحرف يمكن نطقها على ثلاث وحدات: الكاف مفتوحة. ثم التاء مفتوحة، ثم الباء مفتوحة أيضاً. وبذا تكون الكاف وحركتها وحدة نطقية يمكن أن يقف عليها المتكلم ويستريح"[1].

والمقاطع أنواع هي[2]:

المقطع القصير (وهو ضعيف)، ويتألف من صامت وحركة قصيرة: ص ح.

المقطع المتوسط المفتوح (وهو قوي). ويتألف من صامت وحركة طويلة: ص ح ح.

المقطع المتوسط المغلق (وهو ضعيف)، ويتألف من صامت وحركة قصيرة وصامت: ص ح ص.

المقطع الطويل المغلق (وهو ضعيف)، ويتألف من صامت وحركة طويلة وصامت : ص ح ح ص.

المقطع الطويل المزدوج الإغلاق (وهو ضعيف). ويتألف من صامت وحركة قصيرة وصامتين: ص ح ص ص.

ويمكننا تحليل مقاطع كلمة التوحيد بناء على ما سبق حسب الآتي:

(لا) ص ح ح.

(إله) إِ: ص ح / لا: ص ح ح / هَـ: ص ح.

(إلا) إِلْ: ص ح ص / لا: ص ح ح.

(الله) آلْ: ص ح ص / لاه: ص ح ح ص. عند الوقف، وعند الوصل: لا: ص ح ح / هُ: ص ح.

---

(١) من وظائف الصوت اللغوي. محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي. د. أحمد كشك (ط ٢ ١٤١٨هـ ١٩٩٧م) ٢١.

(٢) انظر فيها: التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنوي والصوتي. أحمد أبو زيد (مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء، ١٩٩٢م) ٣١١ – ٣٢٨. و: من وظائف الصوت اللغوي. محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي ٢٢–٢٤.

وبهذا تنحصر مقاطع الكلمة الشريفة في: المقطع المتوسط المفتوح: ص ح ح، حيث ورد في كل الكلمات، وتكرر أربع مرات، بينما ورد المقطع القصير: ص ح مرتين، وورد المقطع المتوسط المغلق: ص ح ص مرتين في لفظ الجلالة، وكلمة (إلا)، وجاء المقطع الطويل المغلق: ص ح ح ص في لفظ الجلالة فقط، وذلك بناء على الوقف على لفظ الجلالة.

ويتضح من ذلك كله أن مجموع مقاطع الكلمة الشريفة ثمانية أو تسعة حسب الوقف على لفظ الجلالة أو الوصل، كلها كانت مفتوحة إلا ثلاثة في حال الوقف على لفظ الجلالة، وفي حال الوصل تكون المقاطع المفتوحة سبعة، والمغلقة مقطعين، والمقاطع المفتوحة مريحة في النطق وواضحة في السمع لامتداد الصوت بها، مما يجعلها تنساب إلى القلوب فتؤثر فيها، وقد وجد الباحثون في القرآن: "أن المقاطع المفتوحة تستخدم في أجواء تحتاج إلى خشوع أو هدوء"[1]، كما أن المقاطع المغلقة تشعر بالحزم والدقة، وقد توصل بعض الباحثين إلى أن المقاطع المقفلة في القرآن تكثر في "مقامات الجد والصرامة والحسم"[2] وهل هناك أعظم من كلمة التوحيد في التأثير والراحة والهدوء والخشوع، كما أنها أعظم الكلمات في الوضوح والدقة في الدلالة على المراد، لذا لَم يكن لدى العرب لَبْس في معناها ومدلولها، ولا يعسر على أحد نطقها أبداً.

وعند النظر في قوة المقاطع وضعفها، نجد أن المقاطع القوية كانت أربعة والضعيفة كانت خمسة، ويقصد بالقوة هنا طول مدة النطق بالمقطع، والضعف ضده، وموقع ورود هذه المقاطع يشير إلى دلالة مهمة، وهي أن قوة المقاطع موزعة بين الكلمات، لورود المقطع القوي فيها جميعاً، وقد جاءت المقاطع القصيرة لتهيئ للمقطع القوي، ويؤكد الباحثون أن "المقاطع على الرغم من كونها متباينة في الكمية والزمن –

---

(١) النظام المقطعي ودلالته في سورة البقرة دراسة وصفية تحليلية، رسالة ماجستير، إعداد الطالب: عادل عبد الرحمن عبد الله إبراهيم إشراف الدكتور: فوزي إبراهيم موسى أبو فياض، قسم اللغة العربية بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية بغزة ٤٠.

(٢) التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي ٣٢١.

زمـن النطـق- إلا أنهـا تخـدم الدلالـة بـصورة مباشـرة"[1]. كمـا أن الغالـب هـو المقطـع المتوسـط المفتوح الذي شـكل نصف المقاطع، وهو أكثر المقاطع راحة لتوسطه.

وقـد تنوعـت مفـردات الكلمـة الشـريفة، فبعـضها أحـادي المقطـع مثـل: (لا)، وبعـضها ثنـائي المقطـع مثـل: (إلا)، ولفـظ الجلالـة (الله)، ولفـظ (إلـه) ثلاثـي المقطـع، وكـذلك لفـظ الجلالة (الله) في حال الوصل.

وبهذا ندرك هذا التنوع الصوتي في مقاطع الكلمة الشريفة على قلة حروفها، بين القصر والطول، والقوة والضعف، والأحادية والثنائية، وهذا التشكيل الصوتي يسهم في وضوح الكلمة الشريفة وظهور مدلولها، كما أن هذا التناوب بين المقاطع هو ما يعطي الكلام حلاوة ولطفاً، ذلك أن الكلام الذي يكون على نمط واحد يكون رتيباً مملولاً، وهذا التنوع يعطي مجالاً لتجميل الصوت عند مده، كما هو الشأن عند نطق هذه الكلمة في الأذان، فأنت تجدها ألذ ما سمعت أذناك إذا صاحبها صوت ندي رخيم.

وهذا التفاوت والتنوع المقطعي يتبعه تناسب في ترتيب المقاطع وتجانسها، وهو أحد أسباب اللذة والحلاوة عند تلاوة القرآن، ذلك أنه ورد على أعلى درجات الإعجاز الصوتي في هذا الجانب، فـ"ترتيب المقاطع الصوتية في نظم الآيات يعد من مصادر حلاوة الإيقاع القرآني[2]، لأنه ترتيب يقوم على مبدأ التناسب، ولعل هذا التناسب الإيقاعي هو الـذي يمكّـن المـرتلين مـن ترتيـل القـرآن بهـذه الأنغـام العذبـة التـي تهـز نفـوس المستمعين"[3].

---

(1) النظام المقطعي ودلالته في سورة البقرة دراسة وصفية تحليلية ٣٩.

(٢) مصطلحات (الإيقاع والنغم والموسيقا) يكثر ذكرها في الدراسات الصوتية، والأولى أن يستعاض عنها بغيرها في الدراسات القرآنية تنزيها للقرآن عن الشعر والغناء.

(٣) التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي، ٣١٦.

المطلب الثالث: دلالة الحركة

الصوائت عموماً لها أثر مهم في الكلام، حيث: "تمثل الصوامت الجانب الثابت الذي يؤلف هيكل الكلمة، وتمثل هي الجانب المتغير الذي يحدّد صيغتها ويمنحها معناها..."[1].

وبهذا "نفهم أنّ للحركة (الصائت القصير) دورين هامين جداً تتفرد بهما هي وحدها دون الحروف التوام (الجامدة منها واللينة)، وهو تمكين الناطق من إحداث الحرف أولاً، وتمكينه ثانياً من الانتقال من مخرج حرف إلى مخرج حرف آخر"[2].

وعند النظر في ألفاظ الكلمة الشريفة نجد أن الحركة السائدة هي الفتحة، فقد وردت ست مرات بعدد ورود اللام، بل كانت هي الحركة الأكثر لحرف اللّام، ومعلوم خفة الفتحة، فاجتمعت في هذه الكلمة كل جوانب الخفة، في الأصوات والحركات، فالفتحة هي ألطف الحركات وأخفها وكذلك اللام، كما سبق بيانه، ولهذا سهل جريانها على كل لسان، ونطقها بأي لغة.

ولم تَرِد الكسرة فيها إلا مرتين، وكذلك الشدة، وفي كلا الموضعين كان الحرف المشدد هو اللام، وهذا يعني أن اللام تكررت وتوالت مرتين، فكان التشديد، وهذا يؤيد القول بأثر هذا الحرف في دلالة الكلمة الشريفة، فهي التي حملت الفتحة في جلّ مواضعها، وبهذا تآزرت عوامل اللطف والخفة فيها.

ونظرا لكون لفظ الجلالة (الله) هو أعظم مفردات الكلمة الشريفة فسنخصه بمَزيد بحث من حيث الجانب الصوتي، خصوصاً أن كل حروف الكلمة الشريفة فيه، حيث نجد أن من لطائف دلالات هذه الكلمة العظيمة (الله) أنها بدأت بصوت حلقي هو الهمزة وختمت بصوت حلقي أيضاً هو الهاء ومخرجهما من أقصى الحلق، وبينهما اللام ومخرجها من حافتي اللسان، والألف المدية ومخرجها الجوف[3]، ويشير ابن القيم إلى شيء من بيان أسرار ذلك بقوله: "وقد رأيت لابن فورك نحواً من هذا[4] في اسم (الله) قال: الحكمة في وجود (الألف) في أوله أنها من أقصى مخارج الصوت، قريباً من القلب

---

(١) المنهج الصوتي للبنية العربية، د عبد الصبور شاهين، (مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م) ٤٢.

(٢) بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، د عبد الرحمن الحاج صالح (الجزائر، ٢٠٠٧م) ٢/ ١٧٩–١٨٠.

(٣) انظر: فنّ الترتيل وعلومه، أحمد الطويل (مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤٢٠هـ) ٢/ ٥٦٧.

(٤) أي تفسير دلالات الأصوات.

الذي هو محل المعرفة إليه. ثم (الهاء) في آخره مخرجها من هناك أيضاً، لأن المبتدأ منه والمعاد إليه. والإعادة أهون من الابتداء، وكذلك لفظ (الهاء) أهون من لفظ الهمزة... فتأمل هذه الأسرار ولا يزهدنك فيها نبوّ طباع أكثر الناس عنها واستغناؤهم بظاهر من الحياة الدنيا عن الفكر والتنبيه عليها ...[1].

وهكذا لا يوجد في أصوات هذه الكلمة العظيمة (الله) صوت شفوي. فاتضح بهذا أن جل أصوات هذه الكلمة من الجوف والحلق. وكأنما هو لفظ تنطقه القلوب لا الشفاه، ولهذا يمكن للإنسان أن ينطق بهذا الاسم الشريف دون أن يشعر به أحد. لأنه لا يحتاج إلى تحريك شفتيه عند النطق به، أو تغير ملامح وجهه، وكذلك الأمر في كلمة التوحيد كلها.

كما أن هذه الأصوات المكوّنة لهذا الاسم الشريف لا تعجز أي لغة عن نطقها نطقاً فصيحاً سليماً، كما سيأتي بيانه. مما يجعل لهذا الاسم الشريف من الأثر عند نطقه ما لا يكون لغيره. "والتصويت بهذا اللفظ يشعر بدلالة على العمق . والعظمة والانتشار. ويظل السياق الثقافي يضمّن اللفظ دلالات إيحائية لا تنتهي... إذ يحمل هذا اللفظ الدلالة على الارتياح، والتلذذ وفيض من الأمان والاطمئنان"[2].

وهناك ملمح صوتي في لفظ الجلالة (الله) وهو أن الأصل فيه أن يُنطق مفخماً. و"إنما فُخّم اللفظ به فقيل: (الله). ولم تظهر اللام على لفظها ليُفرَّق بينه وبين اللات والعزى، لأن من العرب مَن كان يقول: اللات والعزى ثم إذا وقف قال: (اللاه)، فوقف بالهاء قياساً لأنها هاء التأنيث. وكذلك أيضاً كتب (الله) بحذف الألف التي بعد اللام الثانية ليفرق في الخط أيضاً بينهما"[3]. ويقول الفيروزابادي: "وإنما فخّموا فيه، تعظيماً وتفرقةً بينه وبين اللاّت"[4].

---

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم (دار الفكر) ١ / ١٨٠.

(٢) الدلالة النفسية للألفاظ في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه للطالب محمد جعفر محيسن العارضي، بإشراف الدكتور حاكم مالك الزيادي، (جامعة القادسية، كلية الآداب، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٠م) ٣١.

(٣) اشتقاق أسماء الله، لأبي القاسم الزجاجي، تحقيق: عبد"الحسين" المبارك (مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م) ٣١.

(٤) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزابادي، تحقيق: محمد علي النجار (المكتبة العلمية بيروت) ٢ / ١٩.

المبحث الثاني: دلالة المفردة

تتكون كلمة التوحيد (لا إله إلاّ الله) من أربع كلمات: حرفين واسمين. ومن لطيف ما يلاحظ في كتابة هذه الكلمة الطيبة وجود أداتين: "لا" و"إلا"، واسمين: "إله" و"الله". وقد جاءت كل أداة مع اسم، فـ(إله) سُبق بـ(لا)، ولفظ الجلالة (الله) سُبق بـ(إلاّ).

وقد أُطلق على مجموع هذه الكلمات كلمة، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤]... فـ"عبر بالكلمة عن الكلمات، لأن الكلمة قد تطلقها العرب على الكلام، وإلى هذا ذهب الزجاج[١] إما لوضع المفرد موضع الجمع، كما قال:

بِها جِيَفُ الحَسْرَى، فأَمَّا عِظامُها فَبِيضٌ، وأَمَّا جِلْدُها فَصَلِيبُ[٢]

وإما لكون الكلمات مرتبطة بعضها ببعض، فصارت في قوة الكلمة الواحدة إذا اختلّ جزء منها اختلت الكلمة، لأن كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، هي كلمات لا تتم النسبة المقصودة فيها من حصر الإلهية في الله إلا بمجموعها"[٣].

ولهذا فلا بد من تحليل كل مكونات هذه الكلمة العظيمة، لنعرف مدلولها. ولتحقيق ذلك، فسنقوم بدراسة مفردات هذه الكلمة من خلال: مادة الكلمة، ونوعها، وصيغتها، وذلك حسب طبيعة كل كلمة.

---

(١) انظر كلامه في كتابه: إعراب القرآن، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، درا الكتاب اللبناني) ٨٤٨.

(٢) البيت لعلقمة بن عبدة التميمي، وهو في ديوانه بتحقيق سعيد نسيب مكارم (دار صادر، بيروت) ٢٥.

(٣) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، عناية: عرفات العشا حسّونه (المكتبة التجارية، مكة المكرمة) ٣/١٩٤.

المطلب الأول: دلالة (لا)

جاء النفي الذي تصدرت به هذه الكلمة العظيمة بـ(لا) دون غيرها من أدوات النفي مثل: (ما) و(إنْ) و(ليس). وهذا يحتم علينا دراسة هذه الأداة وما يميزها عن غيرها. فـ(لا) هي إحدى أدوات النفي لكنها تتميز عن غيرها بميزة نفي الجنس. وهي تعمل عمل (إنّ). وهي مختصة بالاسم. وسبب ذلك "أنّ (لا) هذه لَمَّا قُصد بها التنصيص على العموم اختصت بالاسم. لأن قصد الاستغراق. على سبيل التنصيص. يستلزم وجود (مِن) لفظاً أو معنى، ولا يليق ذلك إلا بالأسماء النكرات. فوجب لـ(لا) عند ذلك القصدِ عمل فيما يليها. فإن قلت: فلم عملت عمل (إنّ)؟ قلت: لمشابهتها لها في التوكيد. فإنّ (لا) لتوكيد النفي و(إن) لتوكيد الإثبات"[1]. بل المبالغة في النفي كما يقول الرضي: "اعلم أن (لا) التبرئة إنما تعمل لمشابهتها لـ(إنّ)، ووجه المشابهة أن: (إنّ) للمبالغة في الإثبات. إذ معناها التحقيق لا غير. و (لا) التبرئة للمبالغة في النفي. لأنها لنفي الجنس"[2]. ولهذا "يُطلق النحاة على (لا) النافية للجنس: لا التبرئة. لأنها بسبب نفي معنى الخبر عن الاسم، كأنها برّأت الاسم من الاتصاف بمضمون الخبر"[3].

وهذا ما يتسق تماماً مع مدلول كلمة التوحيد، نظراً لوجود آلهة في الواقع حسب زعم أربابها. فلابد من نفيها نفياً عاماً يتناول كل أفرادها. ولا يبقي منها شيء، ويجعلها في حكم العدم.

فإن قيل: فلِمَ جاء النفي لهذه الكلمة (كلمة التوحيد) في القرآن بغير (لا)، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ

---

(١) الجنى الداني في حروف المعاني. المرادي. تحقيق: د. فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل (دار الكتب العلمية. بيروت. ط١. ١٤١٣هـ ١٩٩٢م) ٢٩١.

(٢) شرح الرضي على الكافية. الرضي. تحقيق: يوسف حسن عمر (منشورات جامعة قاريونس. بنغازي. ط٢. ١٩٩٦م) ٢ / ١٦٠.

(٣) حاشية شرح الرضي على الكافية ١ / ٦٧.

﴿ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥]. وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]؟

نقول: يتضح بالتتبع أنه لم يرد النفي في هذه الكلمة المباركة في القرآن على الأكثر إلا بـ(لا)، و(ما) وهو الأقل، حيث ورد النفي بـ(لا) في (٣٦) آية[1]، وورد بـ(ما) فيما لم يتجاوز هذه الآيات الثلاث المذكورة سابقاً، ومن الملحوظ هنا أن النفي بـ(ما) يصاحبه ذكر (مِنْ) الجارة، بينما لا نجد ذلك مع (لا)، وهذا يعني أن الأصل هو النفي بـ(لا) النافية للجنس لمناسبتها لمقصد كلمة التوحيد، وما جاء بخلاف ذلك في بعض الآيات فله تخريجه الخاص به، من خلال السياق والمقام.

وقد لاحظت في الآيات الثلاث أنها تشترك في رد فهم خاص في الأنبياء الكرام ورفعهم فوق منزلة البشرية، ففي آيتين منها نجد تصريحاً واضحاً برد معتقد النصارى في عيسى -عليه السلام- في التثليث، والمجادلة في شأنه، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩-٦١].

وجاءت الآية الثالثة خاصة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وفيها بيان لتحديد مهمته، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥].

ومن خلال ما سبق يمكن أن نقول: إن الموضوع المشترك هو إخراج الرسل من الدخول في خصائص الألوهية، وحصر مهمتهم في الرسالة، ولأجل كون الرسل طرفاً

---

(١) لم ترد كل الآيات على النمط نفسه في كلمة التوحيد الواردة في الشهادتين، بل يوجد اختلاف في ذكر اسم الله جلت قدرته، ولم ترد بهذه الصيغة (لا إله إلا الله) في القرآن إلاّ مرتين، في سورة الصافات (آية: ٣٥)، وسورة محمد (آية: ١٩).

في هذا الأمر، وليس الحديث عن آلهة معبودة، كما هو حال الآيات الأخرى. جاء نمط النفي مختلفاً، فكان بـ(ما) دون (لا)، وهذا ما يدلل على أن (لا) أقوى في هذا المجال من (ما)، ولهذا احتاجت (ما) إلى ما يدل على استغراق الأجزاء وهو (مِن) الجارة.

ويمكننا أن نتساءل ما سر اختصاص (لا) بما اختصت به، أهو راجع إلى مكونات حروفها اللام والألف، بينما غيرها الهمزة والنون (إنْ)، والميم والألف (ما)، واللام والميم (لم)؟ أم هو أمر يعود إلى شيء آخر، كوجود المد في آخرها مثلاً، أم لاختصاصها بنفي الجنس؟

إجابةً عن ذلك لابد من الإشارة إلى ما ذكره علماء اللغة من خصائص (لا)، التي منها دلالتها على التوكيد زيادة على دلالة الاستقصاء في نفي أفراد الجنس. "وإنما عملت (لا) عمل (إنّ) المشددة لمشابهتها لها من أربعة أوجه: أحدها أن كلاً منها يدخل على الجملة الاسمية، الثاني أنّ كلاً منهما للتأكيد. فـ(لا) لتأكيد النفي... و(إنّ) لتأكيد الإثبات، والثالث أن (لا) نقيضة (إنّ)، والشيء يُحمل على نقيضه كما يُحمل على نظيره، والرابع أن كلاً منهما له صدر الكلام"[1].

ومعنى توكيد النفي "أن (لا) تدل على النفي أقوى من (ما) ونحوها..."[2]. وللتوكيد تفسير آخر أقرب إلى البلاغة وهو قولهم إن تقدير: "لا من إله إلا الله"، واقع في جواب سؤال مقدر، وحاصله هل من إله غير الله؟ فكان الجواب: لا من إله إلا الله. يقول ابن السراج: "وأنت إذا قلت: لا رجلَ فيها، إنما نفيت جماعة الجنس، وكذلك إذا قلت: هل من رجل؟ لم تسأل عن رجل واحد بعينه، إنما سألت عن كل من له هذا الاسم، ولو أسقطت (من) فقلت: هل رجل؟ لصلح لواحد والجمع، فإذا دخلت (من) لم يكن إلا للجنس"[3].

---

(١) شرح التصريح على التوضيح للأزهري (دار الفكر) ١/ ٢٣٥، والقول منسوب لأبي البقاء.

(٢) حاشية الشيخ يس على شرح التصريح على التوضيح للأزهري (دار الفكر) ١/ ٢٣٥.

(٣) الأصول في النحو، ابن السراج، تحقيق: د. عبد الحسين الفتلي (مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م) ١/ ٣٧٩.

ويقول أحمد مختار البرزة: "في لغتنا عدة أدوات للنفي، وهي وإن اشتركت في معنى النفي لمضمون ما دخلت عليه، تختلف فيما بينها في توجيه النفي وفي سعة حدوده وضيقها، فما تفيده (لم)، هو غير المعنى المستفاد من (لن) وفي النفي بـ(لا) النافية للجنس من استغراق أفراد النوع ما ليس في (ما) النافية في حد ذاتها، أو (لا) إذا نفت غير الجنس، وهذه الفروق المعنوية للأدوات واضحة، حددها التوظيف، وميزها النحاة تمييزًا دقيقًا، إذ لا خفاء في دلالاتها، غير أن الفروق المعنوية تبلغ أحيانًا جوًا من الدقة يحتاج إلى مزيد تلطف لمراعاته وتقييده"[1].

ولن نخوض في تلك الفروق الدقيقة[2]، لأن الحديث هنا ليس عن (لا) النافية عموماً، التي يمكن أن توازن بغيرها، بل عن (لا) النافية للجنس على وجه الخصوص، ، وهي قطعاً أقوى أدوات النفي في بابها، لأنها لا يشاركها فيه أداة أخرى، ومعلوم أن (لا) النافية للجنس "تفيد نفي الخبر عن الجنس الواقع بعدها نفيًا عامًا، أي: نفي جميع أفراد الجنس على سبيل الاستغراق، لا على سبيل الاحتمال، فإذا قلت: لا رجل في الدار، كان المعنى: لا واحد ولا أكثر موجود في الدار، والنفي بها أبلغ من نفي الفعل"[3].

---

(١) أساليب التوكيد من خلال القرآن الكريم، د. أحمد مختار البرزة (مؤسسة علوم القرآن، بيروت، دمشق) ط(١) ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م) ص٩٩.

٢ لمراجعة تفصيل الفروق بين أدوات النفي عموماً يمكن الرجوع إلى:

*الحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين، هادي عطية مطر الهلالي(عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م) ٦٠٩-٦١٣.

*أساليب النفي في العربية دراسة وصفية تاريخية، د. مصطفى النحاس(مؤسسة علي جراح الصباح، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م) ٩١ وما بعدها.

*كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلوي اليمني مكتبة المعارف، الرياض) ٢٠٨/٢.

*بدائع الفوائد ١ / ٩٥.

*معجم حروف المعاني في القرآن الكريم، محمد حسن الشريف (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(١)، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م) ٢/٩٤٤،٨٨٨.

(٣) معجم حروف المعاني في القرآن ٢/٨٨٨.

وقد بدئت هذه الكلمة العظيمة (كلمة التوحيد) بالنفي؛ لأن المراد المفاصلة في أمر التوحيد من أول لحظة. "وقد تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أول ما دعا المشركين إلى كلمة التوحيد... وأنه قال: أُمِرت أن أقاتِل الناس حتى يقولوا "لا إله إلا الله"[1]. فلا يصير الرجل مسلمًا حتى يشهد هذه الشهادة، فإنها رأس الإسلام..."[2].

وبهذا يظهر لنا سر مجيء أداة النفي (لا) دون غيرها مع كلمة التوحيد، فالمراد الإبطال الكامل للادعاءات الكاذبة، بوجود آلهة تستحق هذا الوصف، وما يمكن أن يستجد من ذلك، وإثبات ذلك لله وحده، ولن يتم ذلك إلا بنفي كل أفراد هذا الجنس (إله) نفياً لا يُبقي شيئاً منها، لأن ذلك هو الحقيقة، ولأنه هو الذي يبطل تبرير عبادتها من دون الله، وبهذا يبقى هذا الوصف (الألوهية) منحصراً في الرب الحق وهو الله سبحانه، وبهذا ندرك كيف وردت هذه الأداة الخاصة في هذا النوع من النفي مع هذه الكلمة الشريفة.

* * *

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، وهو مطبوع مع : فتح الباري، ح ٢٥ كتاب الإيمان . باب : (فإن تابوا وأقاموا الصلاة...).

(2) الرد على البكري، ابن تيمية، تحقيق محمد علي عجال، (مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ط(1)، ١٤٢٧هـ) ٢٩١/١.

المطلب الثاني: دلالة (إله)

(إله) هي المفردة الثانية في هذه الكلمة العظيمة، وهي المنفية بـ(لا)، ويمكننا تحليلها من حيث مادتها، ونوعها.

أولا: مادة الكلمة.

عند البحث في مادة هذه الكلمة (إله) نجد أن أصلها ألَه، بمعنى عَبَد، يقول ابن فارس: "(أله) الهمزة واللام والهاء أصل واحد، وهو التعبد، فالإله: الله تعالى، وسُمي بذلك لأنه معبود، ويقال: تألّه الرجل إذا تعبّد. قال رؤبة:

لله در الفتيات المدَّهِ   سبّحن واسترجعن من تألهي[1]

والإلهة: الشمس، سُميت بذلك؛ لأن قومًا كانوا يعبدونها، قال الشاعر: فبادرنا الإلهة أن تؤوبا...

فأما قولهم: في التحير ألَه يأله، فليس من الباب، لأن الهمزة واو، وقد ذكر في بابه"[2].

وإذا عدنا إلى مادة الكلمة، وجدناها تدور حول معنى العبادة، ومع هذا لا نجد أنها وقعت مكانها، بأن يقال: لا معبود إلا الله، بل هذا ما تفسر به كلمة التوحيد، فهل يعني ذلك أن في (إله) خصوصية ليست في (معبود)؟

لا شك أن هناك فرقاً بين الألوهية والعبودية، فـ(إله) دلالته على التعلق والارتباط أكثر من (عَبَد)، يقول ابن تيمية: "فالإله: الذي يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء"[3]. وأما (عَبَد)، فإنها تدل على اللين والذلة والخضوع أكثر من (ألَه)، وتدل أيضًا على ضد ذلك من الشدة والغِلَظة[4]، ولهذا لم يكن في الشهادة ذكر للعبودية، فقيل: لا إله، ولم يُقل: لا معبود؛ لأن المراد هنا ليس هو نفي الخضوع، بل نفي

---

(1) ديوان رؤبة، اعتنى به: وليم بن الورد (دار ابن قتيبة، الكويت) د ١٦٥.

(٢) معجم المقاييس في اللغة، ابن فارس، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو (دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م) مادة (أله) ٨٤.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية، ابن تيمية، تحقيق: ابن قاسم (١٤١٨هـ ١٩٩٧م) ١٥٧/١٠.

(٤) انظر: معجم المقاييس في اللغة مادة (عبد) ٧٢٨.

سببه وهو التأله، وهو تعلّق القلب، فما الخضوع إلا أثر من آثاره، لذا اختصت كلمة التوحيد بهذه المفردة (إله) دون (معبود).

وقد فرّق بينهما أبو هلال العسكري بقوله: "الفرق بين الإله والمعبود بحق: أنّ الإله هو الذي يحق له العبادة، فلا إله إلا الله، وليس كل معبود يحق له العبادة، ألا ترى أن الأصنام معبودة، والمسيح معبود، ولا يحق له ولها العبادة"[1]، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله"، وذلك يتضمن الإقرار به وعبادته وحده، فإن الإله هو المعبود، ولم يقل: حتى يشهدوا ألا رب إلا الله، فإن اسم الله أدل على مقصود العبادة له التي لها خلق الخلق، و بها أُمِرُوا"[2].

وقد جاء ذكر هذه اللفظة بتصريفاتها في القرآن في (١٣٣) موضعًا، فقد جاءت مفردة في (١٠٢) على النحو الآتي: في (٧٥) موضعًا بلفظ (إله)، وفي (١٦) موضعاً بلفظ (إلهاً)، وفي (١٠) مواضع بلفظ (إلهكم)، ومرة بلفظ (إلهنا)، ومثناة في موضعين بلفظ (إلهين)، ومجموعة في (٢٩) موضعًا، في (١٩) موضعاً بلفظ (آلهة)، و(٥) مواضع بلفظ (آلهتنا)، و(٤) مواضع بلفظ (آلهتكم) و موضع واحد (آلهتي).

وقد جاءت هذه الكلمة بصيغة المفرد (إله) منفية في جل أحوالها[3]، وهذا يشير إلى الموضوع الذي تعالجه وهو نفي جنس الألوهية عموماً وإثبات ذلك لله وحده.

وبناء على ما سبق نستطيع أن نقول: إن هذه المادة (أله) قد وردت في سياق التوحيد، وأغلب ما ورد كان في كلمة التوحيد، وفي سياق النفي، وسبب ذلك أن هذه الكلمة هي التي كان المشركون يطلقونها على مربوباتهم ومعبوداتهم، لذا ناسب أن يَنْصَبَّ النفي عليها، ليتم إبطال كل صور دعواهم واعتقاداتهم الباطلة.

---

(١) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم (دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة) ص ١٨.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢ /١٤.

(٣) فلم ترد مثبتة إلا فيما يقارب العشرين موضعاً.

ثانياً: نوع الكلمة.

كلمة (إله) اسم، ولم تأتِ فعلاً. بأن يقال: لا يؤله إلا الله؛ لأن المراد هو نفي الجنس، لا نفي الفعل في حالة معينة، وجاءت الكلمة نكرةً ولم تكن معرفة بأن يقال: ليس الإله إلا الله؛ لأن ذلك يضعف قوة النفي وشموله، فليس المراد حصر النفي في إلهٍ معروف، بل كل الآلهة، وهذا ما يتناسب مع النكرة خصوصًا إذا تسلط عليها النفي، وفي الاستثناء نجد أنّ المراد هو حصر صفة الألوهية على (الله)، وجاءت الكلمة معرّفة (الله)، لأن المراد هنا هو التحديد.

وجاءت الكلمة مفردة لا مجموعة بأن يقال: لا آلهة إلا الله؛ لأن المراد ليس نفي الوحدة، بل نفي الجنس، ونفي الجنس أقوى من نفي الجمع، لأن نفي الجنس يستغرق كل الأجزاء والأفراد، بينما نفي الجمع يفهم منه وجود الآحاد، ولذلك كانت كلمة (الإنسان) المستغرقة للجنس أكثر شمولاً من (الناس)، وكذلك الأمر في النفي، كما أنّ ذكر الجمع يُشعر بكثرة الآلهة، وكلمة التوحيد يُراد منها أن تكون دالة على وحدانية الله، على خلاف الآلهة الباطلة فقد جمعت. يقول ابن عاشور: "وما ورد في القرآن من إطلاق جمع الآلهة على أصنامهم فهو في مقام التغليط لزعمهم نحو﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٨]، والقرينة هي الجمع، ولذلك لم يطلق في القرآن الإله بالإفراد على المعبود بغير حق، وبهذا تستغني عن إكداد عقلك في تكلفات تكلفها بعض المفسرين في معنى ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [البقرة: ١٦٣]"[1].

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور (الدار التونسية، الدار الجماهيرية) ٢/ ٧٤.

المطلب الثالث: (إلاّ)

إذا تعرّفنا على خصائص (إلاّ) عرفنا سرّ اختيارها لتكون أحد مكونات كلمة التوحيد، وقد جاءت (غير) في قوله تعالى: {مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ} [الأنعام: ٤٦]، وابن هشام يذكر أنّ (إلاّ) تكون للاستثناء، وينصب ما بعدها، وقد تكون "بمنزلة (غير) فيوصف بها وبتاليها جمعاً منكرًا وشبهه"[1]. ولا تكون حينئذ للاستثناء.

وبتتبع الآيات لم ترد (غير) أداة استثناء بعد النفي إلاّ في قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود: ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٦].

وجاءت وصفاً لـ(إله) في أربعة مواضع، هي قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾[الأنعام: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص: ٧١–٧٢]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[الطور: ٤٣].

وهذا يعني أنها لا تقوم بالمعنى الذي تقوم به (إلاّ)، وأنّ (إلاّ) لها مزيد اختصاص بكلمة التوحيد، ولهذا لم تأت أبداً في كلمة التوحيد، فلا نجد: لا إله غير الله، وربما يكون مردّ ذلك أنها أم الباب في الاستثناء، فهي أداته الأصلية، وهي بهذا أقوى أدوات الاستثناء، فاختير لأقوى الاستثناءات أقوى الأدوات. كما أن (غير) تشعر بأن الاهتمام بنفي المغايرة فحسب، وليس هذا مناسباً لمعنى الكلمة الطيبة، يقول الكفوي: "ولو حمل على (غير) يكون المعنى على نفي المغايرة، وليس مقصوداً، ولذا لم يجز كون الاستثناء مفرغاً

---

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (المكتبة العصرية، بيروت، ط بدون، ١٤١١هـ ١٩٩١م) ٨٣/١. وانظر الجنى الداني ٥١٧.

واقعاً موقع الخبر. لأن المعنى على نفي استحقاق العبادة والألوهية عما سوى الله تعالى، لا على نفي مغايرة الله تعالى عن كل إله"[1].

المطلب الرابع: دلالة لفظ الجلالة (الله)

هذه الكلمة العظيمة تحتاج إلى مزيد عناية واختصاص؛ لأنها أكثر كلمة ترددت في القرآن وعلى ألسنة الخلق، ولهذا سندرس مدلولها من حيث المادة والنوع بشيء من التعمق والتفصيل.

هناك اختلاف كبير في أصل هذه الكلمة الشريفة فقيل: "اللام والألف والهاء: لاه اسمُ الله تعالى، ثم أدخلت الألف واللام للتعظيم"[2]. يقول ابن القيم: "فاسم (الله) متضمنٌ لصفات الألوهية"[3]. "وحاصل ما عليه المحققون هو أنه كان وصفاً لذات الحق بالألوهية الجامعة لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلى، والمحيطة بجميع معاني اشتقاقاته العظمى، فصار بغلبة استعماله فيه لعدم إمكان تحقق تلك الجمعيات في غيره علماً له، فجرى سائر أوصافه عليه بلا عكس، وتعين كلمة التوحيد علامة للإيمان ولم يعلم له مسمى في اللسان؛ لأن الله سبحانه قبض الألسن عن أن يدعى به أحد سواه"[4].

وهناك من يفرق بين (الإله) و (الله)، فـ"الإله في الأصل اسمُ جنسٍ يقع على كل معبود بحقٍ أو باطل، أي مع قطع النظرِ عن وصف الحقية والبطلان، لا مع اعتبارِ أحدهما بعينه، ثم غلب على المعبود بالحق كالنجم والصَّعِقْ. وأما (الله) بحذف الهمزة فعلمٌ مختصٌ بالمعبود بالحقّ، لم يطلق على غيره أصلاً"...وقيل: اشتقاقه من إلِهَ بمعنى تحير، لأنه سبحانه يحارُ في شأنه العقول والأفهام. وأما ألَهَ كعَبَدَ وزناً ومعنىً فمشتق من الإلَه المشتق من إلِهَ بالكسر، وكذا تألّه واستألَه اشتقاق: استنوق واستحجر من الناقة

---

(١) الكليات، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش . محمد المصري (مؤسسة الرسالة . بيروت) ٩٧٢.

(٢) معجم المقاييس في اللغة ٩٤٥.

(٣) الفوائد، ابن القيم (دار الكتب العلمية . بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م) ١٩.

(٤) الكليات ١٧٣.

والحَجَر. وقيل: مِنْ "أَلِهَ إلى فلان" أي سكن إليه، لاطمئنان القلوب بذكره تعالى وسكون الأرواح إلى معرفته، وقيل: مِنْ أَلِهَ إذا فزع من أمرٍ نزل به، وآلَهَهُ غيرُه إذا أجاره، إذ العائذُ به تعالى يفزَع إليه وهو يُجيره حقيقة أو في زعمه، وقيل: أصله لاهٌ على أنه مصدر من لاهَ يَلِيهُ بمعنى احتجب وارتفع، أطلق على الفاعل مبالغة، وقيل: هو اسمُ علمٍ للذات الجليل ابتداء وعليه مدار أمر التوحيد في قولنا: «لا إله إلاّ الله».

ولا يخفى أن اختصاصَ الاسم الجليل بذاته سبحانه بحيث لا يمكن إطلاقُه على غيره أصلاً كافٍ في ذلك. ولا يقدَح فيه كونُ ذلك الاختصاصِ بطريق الغَلَبة بعد أن كان اسمَ جنسٍ في الأصل، وقيل: هو وصفٌ في الأصل لكنه لما غلب عليه بحيث لا يُطلق على غيره أصلاً صار كالعلم، ويردّه امتناعُ الوصف به.

واعلم أن المراد بالمنَكَّر في كلمة التوحيد هو المعبودُ بالحق، فمعناها: لا فردَ من أفراد المعبود بالحق إلا ذلك المعبودُ بالحق. وقيل: أصلُه لاَهًا بالسريانية فعُرّب بحذف الألف الثانية، وإدخال الألف واللام عليه وتفخيم لامه إذا لم ينكسر ما قبله سنة، وقيل: مطلقاً، وحذفُ ألفِه لحنٌ تفسد به الصلاة"[1].

والفرق في الدلالة بين (الرب) و(الله)، بيّنه ابن تيمية بقوله: "وإن كانت الإلهية تتضمن الربوبية، والربوبية تستلزم الإلهية، فإن أحدهما إذا تضمن الآخر عند الانفراد لم يمنع أن يختص معناه عند الاقتران، كما في قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٣] وفي قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، فجمع بين الاسمين: اسم (الإله) واسم (الرب)، فإن الإله هو المعبود الذي يستحق أن يُعبد، والرب هو الذي يرب عبده فيدبره، ولهذا كانت العبادة متعلقة باسمه (الله)، والسؤال متعلقا باسمه (الرب)، فإن العبادة هي الغاية التي لها خُلق الخلْق... والربوبية تتضمن خلق الخلق وإنشاءهم، فهو متضمن ابتداء حالهم... ولما كانت العبادة متعلقة باسمه (الله) تعالى

---

(١) تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، أبو السعود (دار إحياء التراث العربي - بيروت) ١/١٠.

جاءت الأذكار المشروعة بهذا الاسم، مثل كلمات الأذان: الله أكبر الله أكبر، ومثل الشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله. ومثل التشهد: التحيات لله. ومثل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

وأما السؤال فكثيراً ما يجيء باسم (الرب) كقول آدم وحواء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقول نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]... ومثل هذا كثير. وقد نُقل عن مالك أنه قال: أكره للرجل أن يقول في دعائه: يا سيدي! يا سيدي! يا حنان! ولكن يدعو بما دعت به الأنبياء: ربنا! ربنا! نقله عنه العتبي في العتبية. وقال تعالى عن أولي الألباب: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] الآيات. فإذا سبق إلى قلب العبد قصد السؤال ناسب أن يسأله باسمه (الرب) وأن يسأله باسمه (الله) لتضمنه اسم الرب كان حسناً. وأما إذا سبق إلى قلبه قصد العبادة فاسم (الله) أولى بذلك. إذا بدأ بالثناء ذكر اسم (الله). وإذا قصد الدعاء دعا باسم (الرب) ولهذا قال يونس: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. وقال آدم: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]"[1].

وأراد الله سبحانه أن يكون هذا الاسم العظيم خاصّاً به. وفي هذا يقول ابن تيمية: "وقد قرأ طائفة من السلف اللات بتشديد التاء، وقيل: إنها اسم معدول عن اسم الله. قال الخطابي: المشركون يتعاطون الله اسماً لبعض أصنامهم، فصرفه الله إلى اللات؛ صيانةً لهذا الاسم وذبّاً عنه"[2].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٢٨٦.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٧ / ٣٥٨.

و"الفرق بين قولنا (الله) وبين قولنا (إله): أن قولنا (الله) اسم لم يسم به غير الله، وسمي غير الله (إلهاً) على وجه الخطأ، وهي تسمية العرب الأصنام آلهة. وأما قول الناس: لا معبود إلا الله، فمعناه: أن لا يستحق العبادة إلا الله تعالى... والفرق بين قولنا: (الله) وقولنا: (اللهم) أن قولنا: (الله) اسم، و(اللهم) نداء، والمراد به: يا الله، فحُذف حرف النداء وعوض الميم في آخره"[1].

ومما يتعلق ببنية الكلمة ما دار حول هذا اللفظ الشريف من خلاف في اشتقاقه من عدمه، وقد ذكر الزجاجي أن في اشتقاقه أربعة[2] أقوال، الأول :أن أصله (إله) وحذفت الهمزة تخفيفاً، فاجتمعت لامان فأدغمت الأولى في الثانية فقيل: (الله). الثاني: وهو رأي الخليل بن أحمد، مثل الأول، إلا أن أصله عنده (ولاه) من الوله والتحيّر، وأبدلت الواو همزة لانكسارها فقيل: إله، ثم أدخلت عليه الألف واللام وحذفت الهمزة فقيل: (الله). الثالث: وهو رأي سيبويه أصله (إله) كسابقيه، إلا أن أصله عنده (لاهِ) على وزن فَعَل، ثم دخلت عليه الألف واللام للتعريف فقيل: (الله). الرابع: وهو رأي أبي عثمان المازني، أنه اسم هكذا موضوع لله عز وجل، وليس أصله (إله) ولا (ولاه) ولا (لاه).

ولابن القيم رأي مختلف في توجيه الاشتقاق يقول فيه :"لا ريب أنه إن أريد بالاشتقاق هذا المعنى وأنه مستمد من أصل آخر فهو باطل، ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى ولا ألمّ بقلوبهم، وإنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى، وهي الإلهية كسائر أسمائه الحسنى كالعليم والقدير والغفور والرحيم والسميع والبصير فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب، وهي قديمة، والقديم لا مادة له... فالاشتقاق هنا ليس هو اشتقاق مادي، وإنما هو اشتقاق تلازم سمي المتضمن بالكسر مشتقاً والمتضمن بالفتح مشتقاً منه، ولا محذور في اشتقاق أسماء الله تعالى بهذا المعنى"[3].

---

(1) الفروق اللغوية د ١٨.

(2) انظر تفصيلها في: اشتقاق أسماء الله الحسنى، للزجاجي ٢٣.

(3) بدائع الفوائد ٢٢/١.

ويفسر بعض الباحثين الخوض في الاشتقاق بقوله: "والقول باشتقاقه دعا إلى عد الألف واللام ليس أصلاً في اللفظة، وإنما جاءا للتعريف؛ ذلك أنهم حسبوا (إله) أصلا اشتقاقيًا لها. غير أن الاستعمال اللغوي لا يدل إلاّ على خلاف ذلك، فإن الجاهليين قد استعملوا اللفظتين، مما ينبئ باختلافهما دلاليًا، وأنهما لا يمثلان أصلاً واحدًا، قال النابغة الذبياني:

ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه ... ولا أُحاشي من الأقوام من أحد

إلا سليمان إذ قال الإلهُ له ... قُم في البرية واحددها عن الفَنَدِ[1]

وقال امرؤ القيس:

فاليوم أُسقى غيرَ مُستَحْقِبٍ ... إثماً من الله ولا واغلِ[2]

أما الاستعمال القرآني فيحفظ فرقًا دلاليًا بين اللفظين؛ فغالبا ما يستعمل (إله) في سياق المعبود الباطل أو الشرك... على حين جاء لفظ الجلالة (الله) في سياق التوحيد المطلق والعبودية الحقة التي يرضاها الله تعالى لعباده"[3].

"ويبدو أنّ للألف واللام في هذا الاسم قيمة دلالية تتصاغر إذا قيل بعدم أصليتهما فيه، يعنى إذا قيل إنه لفظ مشتق. ويبدو أيضاً أنهما مركز انبعاث دلالة هذا اللفظ، وهذا ما يُعجِّل القول إنّ (الله) اسم جامد علم على الذات المقدسة، وهو أحب الأقاويل. والدرس اللغوي المقارن يؤيد القول بعدم اشتقاقه، فهو مستعمل في الآكدية (آلو)، وفي العبرية (إلوه)، وفي الآرامية (إلاه)، وفي السريانية (ألوها)، وفي العربية الجنوبية (إلاه)، ومن ثم فإن (ايل) أو (أل) هي الكلمة الأصل في اللغات الجزرية، وما حدث أنّها استعملت على أشكال

---

(١) البيتان في ديوانه، عناية حمد وطمّاس (دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م) ٣٤.

(٢) البيت في ديوانه، عناية، عبدالرحمن المصطاوي (دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م) ١٤٢.

(٣) الدلالة النفسية للألفاظ في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه، محمد جعفر محيسن العارضي، إشراف: الدكتور حاكم مالك الزيادي، (جامعة القادسية، كلية الآداب، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٠م) ٣٠.

صوتية مختلفة. أما استعمال لفظ (الله) في العربية فأغلب الظن أنه ناتج عن تدعيم في البنية الأصل. أي أنَّ التشكيل الصوتي لهذا اللفظ قد أصابه تكيُّف صوتي ربما هو الأنسب للذائقة اللغوية العربية"[1].

والذي يظهر من كل ما سبق أن لفظ (الله) غير لفظ (إله). فإن لهذه الكلمة (الله) تميزاً واضحاً عن غيرها. حتى قال المازني: "والدليل على ذلك[2] أني أرى لقولي: (الله) فضل مزية على (إله). وإني أعقل به ما لا أعقل بقوله (إله)"[3].

كما نجد أن كلمة (إله) مفردة ومجموعة. كثيراً ما يقصد بها الآلهة المدّعاة. ولذلك إذا أُريد بها –وخصوصا في الإفراد– الإله الحق وُصِفَت بالوحدانية فقيل: إله واحد. أما اسم (الله) فإنها لم يوصف بها–أبداً– غير الإله الحق سبحانه. "فهذا يدل على أن إدخال الألف واللام في (الله) وحذف الهمزة منه وإلزامه هذا البناء. إنما يدل على أنه لا يستحق الألوهية في الحقيقة غيره. وخُصّ ببناء لا يشرك فيه سواه. ولا يدعيه أحد"[4]، ولهذا نجد لحضور هذه الكلمة في الكلام من الهيبة ما لا نجده لسواه. ويظهر ذلك جلياً في كلمة التوحيد. فإن من أسرار ذكر هذا الاسم الجليل "استحضار عظمة الله تعالى بما يحويه اسم الجلالة من معاني الكمال. ولتكون الجملة مستقلّةً بنفسها فتكون جاريةً مجرى الأمثال والكلم الجوامع"[5]، وقد نبه أبو السعود العمادي في تفسيره أكثر من مرة لهذا الملمح. ومن ذلك قوله في غير موضع: "وإظهار الاسمِ الجليلِ لتربية المهابة وإدخال الروعة"[6]، و"قال العلامة ابن القيم رحمه الله : لهذا الاسم الشريف عشر خصائص لفظية[7] وساقها. ثم قال : وأما خصائصه المعنوية فقد قال أعلم الخلق صلى الله عليه و

---

(1) الدلالة النفسية للألفاظ في القرآن الكريم ٣١.

(٢) أي على عدم الاشتقاق.

(٣) اشتقاق أسماء الله. الزجاجي ٢٩.

(٤) المرجع السابق ٣١.

(٥) التحرير والتنوير ٢٨/٢٨٢.

(٦) تفسير أبي السعود ١ / ٢١٣. وانظر على سبيل المثال: ١/ ١٤٣، ١٨٦، ٢٢٧، وغيرها كثير جداً.

(٧) وقد بحثت حسب استطاعتي عن هذا القول لابن القيم فلم أجده.

سلم : "لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك"[1] وكيف نحصي خصائص اسم لمسماه كل كمال على الإطلاق، وكل مدح وحمد، وكل ثناء وكل مجد، وكل جلال وكل كمال، وكل عز وكل جمال، وكل خير وإحسان، وجود وفضل وبر، فله ومنه، فما ذكر هذا الاسم في قليل إلا كثره، ولا عند خوف إلا أزاله، ولا عند كرب إلا كشفه، ولا عند هم وغم إلا فرجه، ولا عند ضيق إلا وسعه، ...فهو الاسم الذي تكشف به الكربات، وتستنزل به البركات، وتجاب به الدعوات..."[2].

وأورد له الفيروزابادي خصائص كثيرة جداً جلها يرجع إلى المعاني وبما يرتبط ذكره بهذا الاسم الجليل، ومما قاله:" ولهذا الاسم خصائص كثيرة: أنّه يقوم مقام جملة أسماء الحقّ – تعالى – وصفاته، أنّ جملة الأسماء في المعنى راجعة إليه، تغليظ لامه" ... إلى أن قال: "هذه مائة وعشرون ونيف خَصْلة، بعضها في صفات الربوبيّة، وبعضها في خصال العبوديّة، وبعضها قهر أهل الضلال، وبعضها ملاطفة أهل الكمال، وبعضها تفصيل الأحوال المنسوبة إلى حضرة الجلال، ولله الآخرة والأُولى، يشهد على ذلك بلسان الحال والقال"[3].

وبهذه المهابة والعظمة تختم كلمة التوحيد، ويقف الصوت فيها على هذا اللفظ الجليل (الله)، ليكون هو آخر ما يستقر في القلب، وينطق به اللسان، وأعظم التوفيق أن يكون هو أيضاً آخر لفظة للإنسان في حياته، كما قال صلى الله عليه وسلم: "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة"[4].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، عناية : أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، (دار طيبة، الرياض، ط ١، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م)) ح (١١١٨) كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع، والسجود .

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، تحقيق: محمد حامد الفقي، تعليق: ابن باز (مكتبة دار الكتاب الإسلامي، المدينة النبوية، ط ١، ١٤١١هـ ١٩٩١م) ٢٠.

(٣) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٢ / ٢٠–٣٠.

(٤) سنن أبي داود، أبو داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد (المكتبة العصرية، بيروت) باب التلقين، ح (٣١١٦)، وقال الألباني: صحيح.

المبحث الثالث: بلاغة التركيب

ذكرنا فيما سبق دلالة الصوت ثم المفردات المكونة لهذه الكلمة العظيمة، وحتى تكتمل الدراسة فلا بد من بحث دلالة التركيب فيها، ويمكن أن يتم ذلك من خلال دراسة أسلوبي القصر والحذف، لأنهما الواردان في هذه الكلمة الشريفة.

المطلب الأول: القصر

لا يخفى أن الأسلوب الأظهر في هذه الكلمة هو أسلوب القصر. وقد جاءت على هذا النحو –والله أعلم– لأنه الطريق الأقوى لإظهار المراد من دلالتها، وتكمن قوة هذا الأسلوب في كونه يحمل معنى جملتين في جملة، فبدل أن يُفرد المعنى المنفي في جملة، والمعنى المثبت في جملة، جاء كل ذلك مجموعاً في جملة واحدة؛ يقول ابن عاشور في حديثه عن هذا الأسلوب: "ولكن عدل إلى جُملتي نفي وإثبات:لأنّ مُفاد كلتا الجملتين مقصود، فلا يحسن طيّ إحداهما، وهذا مِن الدّواعي الصّارفة عن صيغة الحصر إلى الإتيان بصيغتي إثبات ونفي"[1]. وموضوع هذه الكلمة الشريفة يتضمن "حكمين مختلفين في الإيجاب والسلب، على خلاف (الأصل) في كل جملة أن تتناول حكماً واحداً، حكماً بالإيجاب الغاية منه إثبات الحكم الذي يرتئيه المتكلم، وحكماً بالنفي الغاية منه نفي الأحكام التي تخالف ما يرتنيه المتكلم"[2]. وقد جاء هذا الأسلوب مع هذه الكلمة الشريفة ليجمع الدلالتين في أوجز لفظ مع أوفى معنى.

ونظراً لكون المعنى المراد بيانه هنا هو نفي استحقاق الألوهية عن الآلهة المدعاة بدأ بالنفي، ليكون كالتخلية قبل التحلية، وهذا ما يميز أسلوب النفي والاستثناء عن غيره، ولهذا فهو يكثر في مواطن الرد والتكذيب والإنكار، يقول الخطيب القزويني: "إن أصل الثاني[3] أن يكون ما استعمل له مما يجهله المخاطب وينكره، كقولك لصاحب وقد

---

(١) التحرير والتنوير ٦ / ١٠٢.

(٢) أساليب القصر في شعر المتنبي بين النحو والبلاغة (دكتوراه)، الباحث: د / أحمد عبده مكرد أحمد العزعزي (http://www.yemen-nic.info / المركز الوطني للمعلومات في اليمن ٢٠٠٦).

(٣) أي طريق النفي والاستثناء.

رأيت شبحاً من بعيد: ما هو إلا زيد، إذا وجدته يعتقده غير زيد ويصر على الإنكار، وعليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢]"[1].

وليس هناك من أمر حصل فيه التكذيب مع جليل خطره كوحدانية الله، ومثل هذا الأمر يُحتاج في إثباته ورد معتقد المخاطبين فيه إلى أعلى درجات التوكيد، ولا يتحقق ذلك بصورته الكاملة إلا في أسلوب القصر بالنفي والإثبات، إذ هو المناسب لهذا المقام "لأن القصر ليس إلا تأكيداً على تأكيد"[2]، فكان هذا الأسلوب بما فيه من التأكيد المؤكد مع ما يحتوي عليه من دلالتي النفي والإثبات مناسباً لموضوع هذه الكلمة العظيمة.

والمقصود الأول هو الإثبات ولكن جاء عن طريق النفي، لأنه استثناء مفرغ، يقول ابن القيم: "فكان في الإتيان بالنفي في صدر هذه الكلمة من تقرير الإثبات وتحقيق معنى الإلهية وتجريد التوحيد الذي قصد بنفي الإلهية عن كل ما ادُّعيت فيه سوى الإله الحق تبارك وتعالى[3]، فتجريد هذا التوحيد من العقد واللسان يتصور إثبات الإلهية لغير الله كما قاله أعداؤه المشركون، ونفيه وإبطاله من القلب واللسان من تمام التوحيد وكماله، وتقريره وظهور أعلامه ووضوح شواهده وصدق براهينه"[4]، وهذا أمر شائع في مثل هذا الموضوع، فـ"طريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات، فينفي عبادة ما سوى الله ويثبت عبادته، وهذا هو حقيقة التوحيد، والنفي المحض ليس بتوحيد، وكذلك الإثبات بدون النفي، فلا يكون التوحيد إلا متضمناً للنفي والإثبات، وهذا حقيقة لا إله إلا الله"[5].

وإنما قلنا إن المقصود هو الإثبات، لأن الاستثناء هنا مفرغ، وجاء بعد النفي، يقول الشوكاني: "اتفقوا على أن الاستثناء من الإثبات نفي، وأما الاستثناء من النفي فذهب الجمهور إلى أنه إثبات، وذهبت الحنفية إلى أن الاستثناء لا يكون إثباتاً وجعلوا بين

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي (دار الجيل، بيروت، ط٣) ٣/ ٢٤.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ٣/ ٢٨.

(٣) لعل الكلام يكون أوضح لو قيل هنا: ما لا يخفى.

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم (دار السلفية، القاهرة، ط ٢، ١٣٩٤هـ) ص ١٤.

(٥) بدائع الفوائد ١/ ١٣٤.

الحكم بالإثبات والحكم بالنفي واسطة وهي عدم الحكم... والحق ما ذهب إليه الجمهور، ودعوى الواسطة مردودة... وأيضًا نقل الأئمة عن اللغة يخالف ما قالوه ويرد عليه، ولو كان ما ذهبوا إليه صحيحًا، لم تكن كلمة التوحيد توحيدًا، فإن قولنا: لا إله إلا الله، هو استثناء من نفي، وقد ثبت عنه صلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أنه قال: "أُمِرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله"[1].

ودلالة هذه الكلمة على النفي والإثبات أمر لا يحتاج إلى تدليل، فهي كلمة سهلة الحروف، سهلة الكلمات، مفهومة المعنى، واضحة الدلالة، يقول ابن دقيق العيد عن خوض الناس في دلالة الاستثناء من النفي: "وكل هذا عندي تشغيب ومراوغات جدلية. والشرع خاطب الناس بهذه الكلمة -يعني كلمة الشهادة- وأمرهم بها لإثبات مقصود التوحيد، وحصل الفهم منهم بذلك والقبول له، من غير زيادة ولا احتياج إلى أمر آخر، ولو كان وضع اللفظ لا يفيد التوحيد لكان أهم المهمات تعليم اللفظ الذي يقتضيه؛ لأنه المقصود الأعظم"[2].

ولا يعني ذلك عدم استحضار معنى النفي، وإن كان الإثبات هو المقصود الأول، والنفي ممهد له، ولو أريد مجرد الإثبات لقيل: الله إله، فدل وجود النفي على قوة تأكيد الإثبات، يقول ابن القيم: "وهذه أعظم كلمة تضمنت بالوضع نفي الإلهية عما سوى الله وإثباتها له بوصف الاختصاص، فدلالتها على الإثبات أعظم من دلالة قولنا: (الله إله) ولا يستريب أحد في هذا البتة"[3].

ويشير أبو البقاء إلى كون النفي هو الأصل فيها فيقول: "(لا إله إلا الله)، هي كلمة التوحيد والإخلاص والنجاة والتقوى والعليا والطيبة والقول الثابت، أولها نفي وآخرها إثبات، دخل أولها على القلب فجلا، ثم تمكن آخرها فخلا، فنسخت ثم رسخت، وسلبت

---

(1) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، للشوكاني، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية (دار الكتاب العربي، دمشق، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م) ١ / ٣٦٩.

(2) ذكره عنه الشوكاني في إرشاد الفحول ١ / ٣٧١، ولم أهتد إلى موضعه في كتب ابن دقيق العيد.

(3) بدائع الفوائد ٣ / ٥٨.

ثم أوجبت، ومحت ثم أثبتت، وتقضت ثم عقدت، وأفنت ثم أبقت... واختير في التوحيد تلك الكلمة ليكون النفي قصداً، والإثبات إشارة"[1].

والذي يظهر أن مقصود الإثبات أظهر، لا كما أشار أبو البقاء، على ما بيناه من قبل.

هذا من حيث طريق القصر، أما من حيث نوعه فهو قصر صفة على موصوف، حيث قُصرت صفة الألوهية على الله سبحانه، ولم يُقصر الحق تبارك وتعالى عليها بأن يقال: (ما الله إلا إله) كما جاء ذلك في حق الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]؛ ذلك لأن المتنازع فيه هو الصفة لمن تكون، وليس التنازع في الموصوف ما صفته؟ فلما كان ذلك كذلك؛ قُصرت هذه الصفة (الألوهية) على الله سبحانه، حتى لا يبقى لغير الموصوف المذكور وهو الله سبحانه حق في الاتصاف بها، فالمراد تجريد كل موصوف عن الصفة المحصورة، وجعل هذه الصفة مقصورة على الموصوف المذكور وحده وهو الله جلت قدرته، ومثل هذا يعني أن الاستحقاق للصفة المذكورة خاص بالموصوف المذكور.

كما أن مثل هذا النوع من القصر يتناسب مع مقامات الثناء والتمجيد، فهو يعني قصر الصفة المذكورة على الموصوف مع بقاء اتصافه بصفاته الأخرى، أما في قصر الموصوف على الصفة، فيعني تجريد الموصوف من كل الصفات إلا الصفة المذكورة، وهذا النوع يناسب أنواعاً خاصة من المقامات والأحوال ليس موضوع الكلمة الشريفة منها.

أما من حيث كون القصر هنا حقيقيًا أم ادعائيًا فنقول: إنه حقيقي، ذلك أن الحقيقة هي أن الألوهية الحقة هي لله وحده، ولا اعتبار لوجود الآلهة الباطلة، ولو قيل بأنه قصر إضافي لكان ذلك اعترافاً بألوهية تلك الآلهة، ولكان القصر لمجرد ادعاء حصر الألوهية فيه سبحانه، وهذا خلاف الحق ولا شك.

---

(١) الكليات ٣ / ١٥.

المطلب الثاني: الحذف

كثيراً ما نجد المعربين يقدرون محذوفاً في هذه الكلمة، وهو عندهم خبر لا النافية للجنس، فيقدرون: لا إله موجود، أو لا إله حق، ثم يحصل جدال طويل أي التقديرين أولى، وهناك من يقدر (ممكن) ويعلل ذلك بأن "المقصود بالكلمة المشرّفة نفي إمكان ما عدا الله، لا إفادة أنه تعالى موجود، إذ لم يُنازع أحد في وجوده تعالى[1]، وبهذا يُعلم أنّ تقدير (ممكن) أولى من تقدير (موجود)"[2].

وعلى القول بالتقدير وأن خبر (لا) محذوف فالأولى تقديره بـ(حق) لأنه الذي ورد وصفُ الله عز وجل به قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢]. وسر إسقاط كلمة (حق) عند من يقدرها: "أنّ المشركين لم ينازعوا في وجود إله مع الله –عز وجل–، وإنما نازعوا في أحقّيةِ الله –عز وجل– بالعبادة دون غيره، وأنّ غيره لا يستحق العبادة.

فالنزاع لمّا كان في الثاني دون الأول؛ يعني لمّا كان في الاستحقاق دون الوجود، جاء هذا النفي بحذف الخبر لأن المراد مع سقوطه ظاهر وهو نفي الأحقية"[3].

هذا على قول من يقول بهذا الرأي، والأولى – في نظري – عدم القول بالحذف أصلاً، وبهذا تكون الجملة خالية من التقدير، وإنما ذكرنا مبحث الحذف لأنه قيل به، ولتكون مناقشة هذه الدلالة تحته.

---

(١) بل نازع في ذلك الملاحدة والقائلون بالطبائع ومن شابههم.

(٢) رسالة في إعراب لا إله إلاّ الله، الشيخ محمد الفَضالي، تحقيق: الدكتور جميل عبد الله عويضة (١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م)١.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، المسمى: إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل، صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، مفرغ من أشرطة كاسيت (موقع صيد الفوائد على الرابط http://www.saaid.net/book/open.php?book=٢١٠٧&cat=١) الشريط رقم ٢، ص ٢٩.

وهذا الأسلوب دون تقدير أقوى في الدلالة، وأبعد عن الخلاف في معناها. ذلك أن المراد نفي جنس الألوهية عن كل أحد، وإثباتها لله وحده، دون تقييد جنس المنفي بوصف معين، خصوصاً أن ذلك جاء في الآيات الكثيرة دون هذا القيد. فلم الإصرار عليه، مع وضوح المعنى وشموليته دونه، وقد أقر بذلك بعضهم ويبقى القول بالتقدير لمجرد مجاراة الصنعة. يقول الزركشي: "قد توجب صناعة النحو التقدير، وإن كان المعنى غير متوقف عليه، كما في قوله: لا إله إلا الله، فإن الخبر محذوف، وقدره النحاة موجود أو لنا"[1].

ويعلق على ذلك الرازي بقوله: "هذا كلام لا يحتاج إلى تقدير، وتقديرهم فاسد، لأن نفي الحقيقة مطلقة أعم من نفيها مقيدة؛ فإنها إذا انتفت مطلقة كان ذلك دليلاً على سلب الماهية مع القيد، وإذا انتفت مقيدة بقيد مخصوص لم يلزم نفيها مع قيد آخر"[2].

و"اعترض صاحب (المُنتخب) على النّحويّين في تقدير الخبر في (لا إله إلّا هو) فقالوا: تقديره: لا إله في الوجود إلّا الله، فقال: يكون ذلك نفيًا لوجود الإله، ومعلومٌ أنّ نفي الماهيّة أقوى في التّوحيد الصِّرف من نفي الوجود. فكان إجراء الكلام على ظاهره والإعراض عن هذا الإضمار أولى"[3].

وهذا كلام وجيه لأن المعنى واضح دون تقدير، بل إن الخلاف يعظم بسبب التقدير، وليس السبب في قوة هذا القول هو التعليل بأن نفي الماهية أقوى من نفي الوجود، بل الوجاهة في القول بعدم التقدير أصلاً "لأنّ نفي الماهيّة هو نفي الوجود، لا تُتصوّر الماهيّة إلّا مع الوجود، فلا فرق بين "لا ماهيّة" و"لا وجود"، وهذا مذهب أهل السنّة، خلافًا للمعتزلة، فإنهم يثبتون ماهية عارية عن الوجود"[4].

يقول د. سفر الحوالي: "فالأولى هو إعراب (لا إله إلا الله) على النحو التالي: (لا): نافية للجنس، و(إله): اسم (لا) أو المبتدأ، و(إلا) أداة استثناء، و(الله): خبر، فهذا النفي والاستثناء

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٣/ ١١٥.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٣/ ١١٥.

(٣) شرح الطحاوية، ابن أبي العز، (دار السلام) ١/ ١٠٩.

(٤) شرح الطحاوية (دار السلام) ١/ ١١١.

أسلوب من أساليب الحصر المراد به تأكيد أبلغ وآكد في إثبات العلاقة بين الموضوع والمحمول، أي: بين المبتدأ والخبر، وأن الإله وحده هو الله -سبحانه وتعالى- لا إله غيره تبارك وتعالى، هذا مختصر إعراب (لا إله إلا الله) وليس هناك تقدير فيها؛ لأن المبتدأ والخبر يدخل عليها الحروف (لا) و(إلا)، فلا تقدير في الكلام بالكلية، هذا هو الراجح والصحيح في اللغة"[1].

وإذا كان من شيء يؤخذ على هذا القول فهو مجيء خبر (لا) النافية للجنس معرفة، وهذا أمر هين في مقابل وضوح الدلالة على القول بعدم التقدير والحذف، كما أنه ليس رأياً جديداً بل قد قيل به من قبل، يقول ناظر الجيش: "وأمّا القول بالخبرية في الاسم المعظّم، فقد قال به جماعة، ويظهر لي أنه أرجح من البدلية"[2]، والبدلية هي ما يلزم عليه التقدير، وقد أجاب علي القاري عن كل الاعتراضات على القول بالخبرية بكلام لا يتسع المجال لذكره[3].

وبهذا ندرك أن (لا) النافية للجنس إنما يتوافق معناها ومدلولها -وهو النفي العام الشامل- مع عدم التقدير، فـ"(لا) هذه تسمى لا النافية للجنس، وتدخل على المبتدأ والخبر، وهي تفيد النفي المطلق، ولذلك قيل لنفي الجنس أي: لا يمكن أن تقول: لا رجلٌ في الدار بل رجلان؛ لأن قولك لا رجل في الدار يعني: أنك تنفي نفياً مطلقاً أن يكون في الدار رجل، إذا كانت لمجرد النفي نقول: لا رجلٌ في الدار بل رجلان، فنفينا وجود "رجل" وأثبتنا رجلين، وهذه (لا) قد لا تحتاج إلى خبرٍ أصلاً فتستغني عن الخبر بالكلية، ومن ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فلا تحتاج إلى خبر، وقد يضمر الخبر أو يحذف، عَلَى خلاف في لغات العرب بين لغة الحجازيين ولغة

(١) شرح العقيدة الطحاوية د. سفر الحوالي من موقعه
(http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.SubContent&Contentid=٥١٥٩).

(٢) التجريد في إعراب كلمة التوحيد ٢٥.

(٣) لمعرفة المزيد يمكن مراجعة: التجريد في إعراب كلمة التوحيد ٢٥ وما بعدها.

الطائيين أو الشماليين هل يحذف وجوباً؟ أو يحذف جوازاً؟ الشاهد: أنه قد تستغني "لا" عن الخبر نهائياً أو يحذف خبرها مطلقاً"[1].

وحتى الذين قالوا بالتقدير يؤول قولهم في النهاية إلى ما ذكرنا، ذلك "أنّ المقدّرات لا مفاهيم لها، فليس تقدير لا إله موجود بمنزلة النّطق بقولك لا إله موجود. بل إنّ التّقدير لإظهار معاني الكلام وتقريب الفهم. وإلّا فإنّ (لا) النّافية إذا نفت النّكرة فقد دلّت على نفي الجنس. أي نفي تحقّق الحقيقة، فمعنى (لا إله) انتفاء الألوهيّة إلّا اللّه أي إلّا اللّه"[2].

وبهذا نختم الحديث عن هذه الكلمة الشريفة، التي نرجو أن نكون قد وفقنا في بيان شيء من بلاغتها، كيف لا وهي الكلمة التي وردت بأوجز لفظ مع أوفى معنى وأجلِه.

* * *

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية د. سفر الحوالي من موقعه (http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.SubContent&Contentid=٥١٥٩).

(2) التحرير والتنوير ٢/ ٧٥.

الخاتمة

لعله اتضح من خلال هذا البحث الذي تناول كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بالدراسة التحليلية للصوت والكلمة والتركيب، ما يأتي:

أولاً: الدلالة الصوتية.

١- أن مجموع أصوات هذه الكلمة الشريفة خمسة عشر صوتاً، تكونت من أربعة أصوات فقط هي(اللام والألف، والهمزة، والهاء)، وكل هذه الأصوات تكرر أكثر من مرة.

٢- أن هذه الأصوات هي المكونة للفظ الجلالة (الله)، وهو يبدأ بالهمزة القريبة من النفس وينتهي بالهاء رمز الراحة والهدوء.

٣- أن هذه الأصوات واضحة المخارج سهلة النطق، لطيفة سلسة ليس فيها صفير ولا تفشي ولا تكرار ولا كراهة.

٤- إنه يمكن النطق بهذه الكلمة الشريفة دون تحريك الشفة، ودون أن يعلم بذلك أحد، لأنها خلت من الأصوات الشفوية.

٥- أن المد الوحيد الذي جاء مع حروف هذه الكلمة هو الألف وهو يشير إلى العلو، وقد ورد في كل كلماتها مما أوجد تناسباً صوتياً جميلاً، كما أن هذه الألف جاءت بعد اللام في كل الكلمات، وهو أكثر الأصوات تكرراً فيها، مما أبعد رتابة التكرار.

٦- أن أكثر الحركات وروداً في الكلمة الشريفة هي الفتحة، وهي التي تتلاءم مع شيوع المد بالألف.

ثانياً: دلالة الكلمة.

١- تكونت هذه الكلمة الشريفة من أربع كلمات فقط هي (لا، إله، إلا، الله)، فكانت -مع عظم موضوعها- في غاية الإيجاز مع كمال المعنى وقوته.

٢- أنها تكونت من أداتين (لا، إلا) واسمين (إله، الله) وكل أداة دخلت على اسم، وخلت الكلمة الشريفة من الفعل تماماً، لأن معناها ثابت لا يتحول ولا يتغير.

٣- أن أداة النفي الواردة فيها هي (لا) النافية للجنس وهي أقوى وأشمل أدوات النفي المطلق.

٤- أن المنفي بـ(لا) هو جنس الآلهة، لا شيء آخر كالمعبودات مثلاً، لأن موضوع الكلمة الشريفة هو الألوهية لمن تكون؟ فهي مرتبطة بالقلب والحب، لذا لم ترد : لا معبود إلا الله.

٥- أن الاستثناء جاء بـ (إلا) التي هي أم الباب في الاستثناء، وهي الدالة على إثبات مؤكد بعد النفي، خصوصاً في الاستثناء المفرغ.

٦- أن الاسم الواقع بعد (إلا) هو لفظ الجلالة (الله) المرتبط ذكره بالألوهية المنفية عن كل أحد غيره، فاسمه سبحانه دال على ذلك أصلاً، وأسلوب الاستثناء مؤكِّد لذلك؛ لأن الألوهية نُفيت عن غيره، وبذا تكون الكلمة الشريفة قد دلت على اختصاص الألوهية به سبحانه من وجهين، الكلمة ذاتها (الله) ومؤدى أسلوب النفي والاستثناء.

ثالثاً: دلالة التركيب.

١- أن الأسلوب الذي بنيت عليه الكلمة الشريفة هو القصر، الذي يعد أحد أقوى طرق التوكيد، فهو توكيد على توكيد.

٢- أن طريق القصر الوارد هو النفي والاستثناء، وهو الأنسب لموضوع الكلمة الشريفة التي تدل على إثبات الألوهية لله وحده ونفيها عن سواه.

٣- أن القصر هنا قصر صفة على موصوف (الألوهية على الله) مما يدل على أن المتنازع فيه هو تلك الصفة لمن تكون، ومَنْ المختص بها؟!

٤- أن هذا القصر حقيقي، لأنه يوافق الحقيقة ولا عبرة بالادعاءات، فالحديث عن إله واحد من يكون، لا عن آلهة.

٥- أن الكلمة الشريفة خالية من الحذف، وأن معناها مكتمل وواضح دون تقدير، وهذا أدل على بلاغتها وقوة وشمول مدلولها.

* * *

المراجع

١. إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، للشوكاني . تحقيق : الشيخ أحمد عزو عناية (دار الكتاب العربي، دمشق، ط ١، ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م).

٢. أساليب التوكيد من خلال القرآن الكريم، د. أحمد مختار البرزة (مؤسسة علوم القرآن، بيروت، دمشق) ط(١) ١٤٠٥هـ–١٩٨٥م).

٣. أساليب القصر في شعر المتنبي بين النحو والبلاغة (دكتوراه) . الباحث: د / أحمد عبده مكرد أحمد العزعزي (http://www.yemen-nic.info/ المركز الوطني للمعلومات في اليمن ٢٠٠٦).

٤. أساليب النفي في العربية دراسة وصفية تاريخية، د. مصطفى النحاس (مؤسسة علي جراح الصباح، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م).

٥. اشتقاق أسماء الله، لأبي القاسم الزجاجي، تحقيق: عبد"الحسين" المبارك (مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦هـ–١٩٨٦م).

٦. الأصول في النحو، ابن السراج، تحقيق: د. عبد الحسين الفتلي (مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م).

٧. إعراب القرآن، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، درا الكتاب اللبناني).

٨. الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي (دار الجيل . بيروت، ط ٣).

٩. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، عناية: عرفات العشا حسّونه (المكتبة التجارية، مكة المكرمة).

١٠. بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، د عبد الرحمن الحاج صالح (الجزائر، ٢٠٠٧م).

١١. بدائع الفوائد، ابن القيم (دار الفكر).

١٢. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. الفيروزابادي. تحقيق: محمد علي النجار (المكتبة العلمية بيروت)

١٣. التجريد في إعراب كلمة التوحيد. علي بن سلطان القاري. تحقيق: مشهور حسن سليمان (المكتب الإسلامي. دار عمار ' ط١. ١٤١١هـ ١٩٩١م).

١٤. التحرير والتنوير. ابن عاشور (الدار التونسية. الدار الجماهيرية).

١٥. تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم). أبو السعود (دار إحياء التراث العربي . بيروت).

١٦. التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنوي والصوتي . أحمد أبو زيد (مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. ١٩٩٢م) .

١٧. الجنى الداني في حروف المعاني. المرادي. تحقيق: د. فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل (دار الكتب العلمية. بيروت.ط١. ١٤١٣هـ ١٩٩٢م).

١٨. حاشية الشيخ يس على شرح التصريح على التوضيح للأزهري (دار الفكر).

١٩. حرف الراء دراسة صوتية مقارنة. د. عمر الدقاق. مجلة التراث العربي–مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب–دمشق العدد ١٠٤ السنة السادسة والعشرون – كانون الأول ٢٠٠٦ – ذو الحجة ١٤٢٧هـ.

٢٠. الحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين. هادي عطية مطر الهلالي (عالم الكتب. مكتبة النهضة العربية. بيروت. ط ١. ١٤٠٦هـ. ١٩٨٦م)

٢١. الدلالة النفسية للألفاظ في القرآن الكريم. رسالة دكتوراه للطالب محمد جعفر محيسن العارضي . إشراف الدكتور حاكم مالك الزيادي. (جامعة القادسية. كلية الآداب . ١٤٢٣هـ ٢٠٠٠م).

٢٢. ديوان رؤبة. اعتنى به: وليم بن الورد (دار ابن قتيبة. الكويت).

٢٣. ديوان علقمة بن عبدة التميمي بتحقيق سعيد نسيب مكارم (دار صادر. بيروت).

٢٤. ديوان النابغة الذبياني. عناية: حمد وطمّاس (دار المعرفة. بيروت. ط٢. ١٤٢٦هـ. ٢٠٠٥م).

٢٥. ديوان امرئ القيس. عناية: عبدالرحمن المصطاوي (دار المعرفة. بيروت. ط ٢. ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م).

٢٦. الرد على البكري. ابن تيمية. تحقيق محمد علي عجال. (مكتبة الغرباء الأثرية. المدينة المنورة. ط(١). ١٤٢٧هـ).

٢٧. رسالة في إعراب لا إله إلاّ الله. الشيخ محمد الفَضالي. تحقيق: الدكتور جميل عبد الله عويضة (١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩ م).

٢٨. سنن أبي داود. أبو داود. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد (المكتبة العصرية. بيروت).

٢٩. شرح التصريح على التوضيح للأزهري (دار الفكر) ٢٣٥/١. والقول منسوب لأبي البقاء.

٣٠. شرح الرضي على الكافية. الرضي. تحقيق: يوسف حسن عمر (منشورات جامعة قازيونس. بنغازي. ط٢.١٩٩٦م).

٣١. شرح العقيدة الطحاوية د .سفر الحوالي من موقعه:

http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.SubContent&Contentid

=٥١٥٩).

٣٢. صحيح مسلم. عناية : أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي. (دار طيبة. الرياض. ط ١. ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م))

٣٣. طريق الهجرتين وباب السعادتين. ابن القيم (دار السلفية. القاهرة. ط ٢. ١٣٩٤هـ).

٣٤. فتح الباري. ابن حجر العسقلاني. تحقيق: محب الدين الخطيب. ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي (دار الريان للتراث. القاهرة. ط١. ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م).

٣٥. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير. تحقيق : يوسف النبهاني (دار الفكر. بيروت. لبنان. ط ١٤٢٣.١هـ ٢٠٠٣م) .

٣٦. فتح المجيد شرح كتاب التوحيد. عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ. تحقيق: محمد حامد الفقي. تعليق: ابن باز (مكتبة دار الكتاب الإسلامي. المدينة النبوية. ط ١٤١١.١هـ ١٩٩١م).

٣٧. الفروق اللغوية. أبو هلال العسكري. تحقيق: محمد إبراهيم سليم (دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع. القاهرة).

٣٨. فنّ الترتيل وعلومه. أحمد الطويل (مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. المدينة المنورة. ١٤٢٠هـ).

٣٩. الفوائد. ابن القيم (دار الكتب العلمية . بيروت. ط٢. ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).

٤٠. في أسس المنهج الصوتي للبنية العربية. عرض وتقييم. د. علاء عبد الأمير شهيد السنجري. أصيل محمد كاظم (جامعة الكوفة .كلية التربية).

٤١. كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. العلوي اليمني مكتبة المعارف. الرياض).

٤٢. الكليات. أبو البقاء الكفوي. تحقيق: عدنان درويش . محمد المصري (مؤسسة الرسالة . بيروت).

٤٣. مجموع فتاوى ابن تيمية. ابن تيمية. تحقيق: ابن قاسم (١٤١٨هـ ١٩٩٧م).

٤٤. المستدرك على الصحيحين (دار الحرمين. القاهرة. ط١. ١٤١٧هـ ١٩٩٧م).

٤٥. مسند الإمام أحمد. تحقيق: شعيب الأرناؤوط.(مؤسسة قرطبة. القاهرة).

٤٦. معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول. حافظ بن أحمد حكمي. تحقيق : عمر بن محمود أبو عمر. دار ابن القيم . الدمام. الطبعة الأولى. ١٤١٠ - ١٩٩٠م).

٤٧. معجم المقاييس في اللغة. ابن فارس. تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو (دار الفكر.بيروت. ط٢. ١٤١٨هـ ١٩٩٨م) .

٤٨. معجم حروف المعاني في القرآن الكريم. محمد حسن الشريف (مؤسسة الرسالة. بيروت. ط(١). ١٤١٧هـ ١٩٩٦م).

٤٩. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. ابن هشام. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. (المكتبة العصرية. بيروت. ط بدون. ١٤١١هـ ١٩٩١م).

٥٠. من وظائف الصوت اللغوي. محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي. د. أحمد كشك (ط ٢ ١٤١٨هـ ١٩٩٧م).

٥١. المنهج الصوتي للبنية العربية. د عبد الصبور شاهين. (مؤسسة الرسالة. بيروت. ١٩٨٠م).

٥٢. النظام المقطعي ودلالته في سورة البقرة دراسة وصفية تحليلية، رسالة ماجستير، إعداد الطالب
:عادل عبد الرحمن عبد الله إبراهيم إشراف الدكتور: فوزي إبراهيم موسى أبو فياض، قسم اللغة العربية بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية بغزة.

٥٣. هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، لعبد الفتاح المرصفي، (مكتبة طيبة، المدينة المنورة، الطبعة : الثانية).

٥٤. الهمزة دراسة لغوية وصرفية ونحوية، رسالة علمية (ماجستير)، سلوى محمد عرب، جامعة أم القرى، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م).

* * *

القضايا البلاغية لدى ابن خلدون

د. يوسف بن عبدالله العليوي
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي - كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

القضايا البلاغية لدى ابن خلدون

د. يوسف بن عبدالله العليوي
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي – كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

يعد ابن خلدون –رحمه الله– واحدًا من العلماء المفكرين في تاريخ الأمة الإسلامية والعربية، ولقد نال اهتمامًا كبيرًا بسبب ما قدمه من أفكار عظيمة في مقدمته الشهيرة. وفي هذا الكتاب حظي علم البلاغة بتناول ابن خلدون له، ضمن حديثه عن العلوم وأصنافها باعتبارها طبيعية في العمران البشري.

وقد تناول البحث من قضايا البلاغة عنده: مفهوم البلاغة، ووظيفتها، وعلاقة الفصاحة بها، والملكة البلاغية: فائدتها واكتسابها، وعلم البلاغة والتأليف فيه، والحاجة إلى علم البلاغة، والخصائص الأسلوبية للفنون الأدبية.

ويعلي ابن خلدون شأن البلاغة بالمفهوم الذي استقر عليه البلاغيون، من أن حقيقة البلاغة تكون في مطابقة الكلام لمقتض الحال، ويعدها بذلك أصل الكلام العربي وسجيته وروحه وطبيعته.

وتناول البحث قضايا الملكة البلاغية، وقد عُدّ ابن خلدون المؤسس الحقيقي لنظرية الملكة اللسانية، وليس المُحْدَثون. ويرى أن حصول الملكة البلاغية له فائدتان: الأولى: القدرة على التكلم بأساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم؛ للتأثير في المخاطب، والثانية: البصر ببلاغة الكلام وصوابه، والقدرة على نقده وتمييز حسنه من رديئه، ويفرق بين تحصيل الملكة البلاغية وتحصيل علم البلاغة.

وتناول أهمية علم البلاغة وثمرته وصلته ببعض العلوم مما يبين حاجة أهلها إليه، ومن ذلك: فهم الإعجاز القرآني، وتفسير القرآن الكريم، واستنباط الأحكام الشرعية، وحاجة الكتّاب والموقّعين، والتأثير في المخاطَب.

ومن القضايا التي أثارها ابن خلدون: الخصائص الأسلوبية للفنون الأدبية، من شعر، ونثر، والتمايز والتداخل فيما بينها، وهو يرى أن لكل فن أساليب يختص بها ويتميز دون غيره، وهو بذلك يمثل امتدادًا لطرح هذه القضية في التراث البلاغي والنقدي.

وقدم ابن خلدون في هذه القضايا أفكارًا وأثار تساؤلات، تناولها البحث بالعرض والمناقشة، وبين مدى تفرده بها أو تأثره بغيره، في إطار منهج وصفي، وتاريخي.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين. أما بعد:

فيعد ابن خلدون –رحمه الله– واحدًا من العلماء المفكرين في تاريخ الأمة الإسلامية والعربية، ولقد نال اهتمامًا كبيرًا بسبب ما قدمه من أفكار عظيمة في (الكتاب الأول) من تاريخه "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر". والذي خصه بالحديث عن طبيعة العمران. ونشر (الكتاب الأول) من التاريخ مستقلاً باسم "مقدمة ابن خلدون".

وفي هذا الكتاب حظي علم "البلاغة" بتناول ابن خلدون له في (الباب السادس) الذي خصصه للحديث في (العلوم وأصنافها) باعتبار أن ((العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري))[1]، وتناوله في أكثر من فصل، وخاصة في الفصل (الخامس والأربعين) الذي تناول فيه (علوم اللسان العربي).

وقد قامت دراسات كثيرة متنوعة حول ابن خلدون وما حوته مقدمته من أفكار في علوم شتى[2]، إلا أنني لم أطلع على دراسة عن الفكر البلاغي عنده، إلا إشارات يسيرة في بعض الدراسات التي تناولته لغويًا أو أدبيًا، مما اطلعت عليه[3].

وكان ذلك حافزًا لي أن أتناول ما ذكره ابن خلدون من قضايا البلاغة، وأدرس ما طرحه من أفكار حولها، فكان هذا البحث منتظمًا في تمهيد، وخمسة مباحث، وخاتمة، كالآتي:

التمهيد: تعريف بابن خلدون.

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ١/٥٤٢.

(٢) ينظر في جمع من الآثار التي تناولت ابن خلدون: موقع ابن خلدون للدراسات الإنسانية والاجتماعية، على الرابط: http://www.exhauss-ibnkhaldoun.com.tn

(٣) من هذه الدراسات: "الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون" للدكتور ميشال زكريا، و"الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون" للدكتور محمد عيد، و"ابن خلدون: ناقد التاريخ والأدب" للدكتور عثمان موافي، و"مفهوم الأدب في الخطاب الخلدوني" للدكتور غسان عبدالخالق.

المبحث الأول: مفهوم البلاغة، ووظيفتها.

المبحث الثاني: الملكة البلاغية.

المبحث الثالث: علم البلاغة والتأليف فيه.

المبحث الرابع: الحاجة إلى علم البلاغة.

المبحث الخامس: الخصائص الأسلوبية للفنون الأدبية.

وأنبه إلى أنه يحلو لبعض الدارسين، المتعصبين لبعض النظريات البلاغية والنقدية الحديثة، أن ينتزع أفكار العلماء المتقدمين من تراثها العربي، ويلبسها لبوسًا محدثًا، كلباس الألسنية أو الأسلوبية أو البنيوية أو غيرها، وكأن تراثنا يحرم عليه أن يأتي بمثل تلك الأفكار، وكأنها حكر على الأواخر من الذين انبهروا بالدراسات الغربية حتى أعمتهم عن تراثهم، وضنوا عليه أن يكون له سبق. وإذا وجد بعضهم هذا السبق جعلوه موافقًا للاحق!

ولذا حرصت على أن أتبع المنهج الوصفي لما قدمه ابن خلدون من أفكار تجاه هذه القضايا البلاغية، بعيدًا عن أي تصنيف له ضمن المناهج والاتجاهات البلاغية والنقدية الحديثة؛ فإن الفكر البلاغي عند ابن خلدون يمثل حلقة من حلقات سلسلة تراثنا البلاغي والنقدي، قبل أن ترد علينا هذه المناهج، التي فيها ما ينفع، وفيها ما يطرح، كما هو نتاج أي جهد بشري في أي عصر من العصور، سواء كان متقدمًا أو متأخرًا، وقد يأتي اللاحق بما لم يأت به السابق، وهذا شأن أكثر العلوم، تتطور وتتكامل مع مرور الزمن، وعباءة البلاغة العربية تتسع لكل ما هو جديد مفيد، كما اتسعت لكل ما هو تراثي مفيد، والحكمة ضالة المؤمن، أنّى وجدها فهو أحق بها.

أسأل الله أن يرينا الحق حقًا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، ولا يجعله ملتبسًا علينا فنضل، وهو سبحانه ولي التوفيق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

التمهيد:

تعريف بابن خلدون

هو ولي الدين، أبو زيد، عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خَلدون، وخلدون هذا لقب لخالد بن عثمان الذي دخل مع الفاتحين بلاد الأندلس، واستقر في أشبيلية، ثم انتقلت أسرته فيما بعد إلى بلاد المغرب، ويمتد نسبه إلى الصحابي وائل بن حُجْر ﷺ، من عرب حضرموت وملوكها.

ولد في تونس، في غرة رمضان سنة (٧٣٢هـ)، وربي في حجر والده (ت٧٤٩هـ) إلى أن أيفع.

ولم يزل منذ نشأ وناهز مكبًا على تحصيل العلم، حريصًا على اقتناء الفضائل، متنقلاً بين دروس العلم وحلقاته، كما ذكر عن نفسه[1].

حفظ القرآن العظيم، وقرأه بالقراءات السبع، وحفظ قصيدتي الشاطبي (ت٧٩٠هـ): اللامية في القراءات، والرائية في الرسم، وكتب الأشعار الستة، والحماسة للأعلم الشنتمري (ت٤٧٦هـ)، وشعر أبي تمام (ت٢٣١هـ)، وطائفة من شعر المتنبي (ت٣٥٤هـ)، ومن أشعار كتاب الأغاني، وغيرها من منظومات العلوم ومتونها.

ودرس على شيوخه علومًا وكتبًا جمة، وقد ذكر جملة من شيوخه وما أخذ عنهم من العلوم، فقال:

((قرأت القرآن العظيم على الأستاذ أبي عبد الله محمد بن بُرّال الأنصاري... وبعد أن استظهرت القرآن العظيم عن حفظي قرأته عليه بالقراءات السبع المشهورة... وعرضت عليه رحمه الله قصيدة الشاطبي "اللامية" في القراءات، و"الرائية" في الرسم... وعرضت عليه كتاب "التفسير لأحاديث الموطأ" لابن عبد البر... ودرست عليه كتبًا جمة

---

(١) التعريف بابن خلدون، لابن خلدون، بذيل تاريخه: ٧/ ٥٣٢.

مثل: كتاب "التسهيل" لابن مالك، و"مختصر ابن الخطيب" في الفقه، ولم أكملهما بالحفظ...

وفي خلال ذلك تعلمت صناعة العربية على والدي، وعلى أستاذي تونس، منهم: الشيخ أبو عبد الله محمد العربي الحَصايري، وكان إمامًا في النحو... ومنهم: أبو عبد الله محمد الشواش المزازي. ومنهم: أبو العباس أحمد بن القصّار، كان ممتعا في صناعة النحو... ومنهم: إمام العربية والأدب بتونس، أبو عبد الله محمد بن بحر، لازمت مجلسه، وأفدت عليه، وكان بحرًا زاخرًا في علوم اللسان...

ولازمت أيضًا مجلس إمام المحدثين بتونس، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن جابر بن سلطان القيسي الوادي آشي، صاحب الرحلتين، وسمعت عليه "كتاب مسلم بن الحجاج" إلا فوتًا يسيرًا من كتاب الصيد، وسمعت عليه كتاب "الموطأ" من أوله إلى آخره، وبعضًا من الأمهات الخمس، وناولني كتبًا كثيرة في العربية والفقه، وأجازني إجازة عامة، وأخبرني عن مشايخه...

وأخذت الفقه بتونس عن جماعة، منهم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجيّاني، وأبو القاسم محمد القصير، وقرأت عليه كتاب "التهذيب" لأبي سعيد البرادعي: مختصر المدونة، وكتاب المالكية، وتفقهت عليه.

وكنت في خلال ذلك أنتاب مجلس شيخنا الإمام قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن عبد السلام، مع أخي عمر، رحمة الله عليهما، وأفدت منه، وسمعت عليه أثناء ذلك كتاب "الموطأ" للإمام مالك... إلى غير هؤلاء من مشيخة تونس، وكلهم سمعت عليه، وكتب لي، وأجازني.

وكان قدم علينا في جملة السلطان أبي الحسن عندما ملك أفريقية سنة ثمان وأربعين جماعة من أهل العلم، كان يلزمهم شهود مجلسه، ويتجمل بمكانهم فيه، فمنهم: شيخ الفتيا بالمغرب وإمام مذهب مالك أبو عبد الله محمد بن سليمان السطّي، فكنت انتاب مجلسه، وأفدت عليه...

ومنهم: كاتب السلطان أبي الحسن وصاحب علامته التي توضع أسفل مكتوباته، إمام المحدثين أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي. لازمته، وأخذت عنه سماعًا وإجازة الأمهات الست، وكتاب "الموطأ"، و"السير" لابن اسحق، وكتاب ابن الصلاح في الحديث، وكتبًا كثيرة...

ومنهم: الشيخ أبو العباس أحمد الزواوي، إمام المقرئين بالمغرب. قرأت عليه القرآن العظيم بالجمع الكبير بين القراءات السبع من طريق أبى عمرو الداني وابن شريح، لم أكملها، وسمعت عليه عدة كتب، وأجازني بالإجازة العامة.

ومنهم شيخ العلوم العقلية أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي... لما قدم على تونس في جملة السلطان أبي الحسن لزمته، وأخذت عنه العلوم العقلية، والمنطق، وسائر الفنون الحكمية والتعليمية، وكان رحمه الله تعالى يشهد لي بالتبريز في ذلك))[1].

قال عنه ابن حجر (ت٨٥٢هـ): ((برع في العلوم، وتقدم في الفنون، وبهر في الأدب والكتابة... وصنف "التاريخ الكبير" في سبع مجلدات ضخمة، ظهرت فيه فضائله، وأبان فيه عن براعته...))[2].

وتولى تدريس عدد من العلوم منها: الحديث، في "موطأ مالك"، وغيره. والفقه، في كتب المالكية، كـ"مختصر ابن الحاجب"، و"مدونة سحنون"، و"نوادر ابن أبي زيد"، و"تبصرة أبي الحسن اللخمي"، وغيرها. وأصول الفقه، في "مختصر ابن الحاجب". والتاريخ، والحساب، والهندسة، وغيرها من العلوم.

وقد ولاه السلطان عام (٧٩١هـ) وظيفة "كرسي (شيخ) الحديث" بالمدرسة الصَّرْغُتمشية، وبدأ فيها بتدريس "الموطأ". ودرّس أيضًا بمصر في الجامع الأزهر، والمدرسة البيبرسية، والمدرسة القمحية.

---

(١) التعريف بابن خلدون، بذيل تاريخه: ٧/ ٥١١-٥١٤.

(٢) إنباء الغمر بأبناء العمر، لابن حجر: ٢/ ٣٣٩.

وانتفع به وتتلمذ عليه علماء، من أبرزهم: الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، وذكر أن ابن خلدون أجازه إجازة عامة[1]. ومنهم: محمد بن أبي بكر بن جماعة (ت٨١٩هـ)، والقاضي جمال الدين بن مقداد الأفقهسي الأقفاصي، الفقيه الأصولي المفسر (ت٨٢٣هـ)، والقاضي بدر الدين الدماميني، الفقيه النحوي (ت٨٢٧هـ)، والقاضي شمس الدين محمد بن أحمد البساطي، مشارك في كثير من العلوم (ت٨٤٢هـ)، والفقيه شمس الدين محمد بن عمار، المعروف بابن عمر، مشارك في كثير من العلوم (ت٨٤٤هـ)، والمؤرخ تقي الدين المقريزي (ت٨٤٥هـ)، والمسند الفقيه برهان الدين إبراهيم بن صدقة المقدسي (ت٨٥٢هـ).

وكتب مؤلفات عديدة، من أشهرها مما هو مطبوع: تاريخه "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر"، و"لباب المحصل" تلخيص لـ"محصل الرازي"، و"شفاء السائل لتهذيب المسائل" في التصوف، و"مزيل الملام عن حكام الأنام" رسالة للقضاة، وغيرها.

وكانت له وجاهة ومكانة عند بعض سلاطين الأندلس والمغرب، فتقلد وظائف كتابية لبعضهم في تونس وفاس، منذ عام (٧٥١هـ)، وفي هذه المدة لم يسلم من الوشايات، فسجن ما بين عامي (٧٥٨هـ–٧٦٠هـ) بتهمة التعاون مع الأعداء على سلطان فاس، ثم أفرج عنه بعد وفاة السلطان.

وتولى في عام (٧٦٦هـ) الحجابة لأمير بجاية، وهو منصب لا يعلوه إلا منصب الأمير، واختصه في الوقت نفسه بالخطابة والتدريس في جامع القصبة، أكبر مساجد الإمارة.

وبين عامي (٧٧٦هـ–٧٨٠هـ) تفرغ في قلعة ابن سلامة بوهران من بلاد الجزائر، وكتب فيها تاريخه الشهير "العبر".

ثم رجع إلى تونس، وبقي إلى عام (٧٨٤هـ)، حيث عزم على الحج، فخرج إلى مصر، واستقر بها، وجلس للتدريس في الجامع الأزهر.

---

(١) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس، لابن حجر: ٣/ ١٥٩.

وتقلد فيها قضاء المالكية عام (٧٨٦هـ). وبعد عام من توليه عُزل عنه بسعاية الخصوم عند السلطان.

ثم ولاه السلطان في العام نفسه وظيفة "شيخ بيت الخانقاه" مشرفًا على مساكن الزهاد والفقراء، والأوقاف والأربطة التابعة لهم.

ثم تقلد قضاء المالكية للمرة الثانية عام (٨٠١هـ)، ثم عزل في منتصف المحرم من عام (٨٠٢هـ).

ثم تقلد للمرة الثالثة في شعبان من عام (٨٠٣هـ). ثم عزل في رجب من عام (٨٠٤هـ).

وفي ذي الحجة من عام (٨٠٤هـ) رجع السلطان إلى توليته القضاء، ثم عزل في ربيع الأول من عام (٨٠٦هـ).

وفي شعبان من عام (٨٠٧هـ) عاد إلى القضاء، ولم يلبث فيه إلا نحو ثلاثة أشهر، فعزل في ذي القعدة.

ثم عاد إلى القضاء في السادس عشر من رمضان عام (٨٠٨هـ) ولم يلبث إلا أيامًا يسيرة حتى توفي في اليوم الخامس والعشرين، رحمه الله وعفا عنه وغفر له[1].

* * *

---

(١) ينظر في ترجمة ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا. لابن خلدون. مذيلاً بتاريخه: ٧/ ٥٠٣-٧٤٢. ودرر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة. للمقريزي: ٣٨٣-٤١٠. والمجمع المؤسس في المعجم المفهرس. لابن حجر: ١/ ١٥٧-١٦٠. وإنباء الغمر بأبناء العمر. لابن حجر: ٢/ ٣٣٩-٣٤٠. والمنهل الصافي. لابن تغري بردي: ٧/ ٢٠٥-٢٠٩. والضوء اللامع. للسخاوي: ٤/ ١٤٥-١٤٩.

المبحث الأول: فهوم البلاغة

أولاً: مفهوم البلاغة:

حظيت "البلاغة" باهتمام كبير في تاريخ العرب منذ العصر الجاهلي. وشهد هذا التاريخ محاولات كثيرة لوضع تعريف لها وتحديد لمعالمها. وتنبئنا المؤلفات البلاغية والأدبية المتقدمة والمتأخرة عن مواقف وأقوال كثيرة في هذا الشأن[1]، إلى أن استقر البلاغيون على تعريف القزويني (ت ٧٣٩هـ) لبلاغة الكلام بأنها: ((مطابقته لمقتض الحال مع فصاحته))[2]. وهو تعريف فيه دقة وشمول؛ يلخص ما قاله السابقون في تعريف "البلاغة". وتبعه عليه مَن بعده من البلاغيين من شراح التلخيص وغيرهم[3].

وجرى ابن خلدون في مفهوم "البلاغة" على ما استقر عليه البلاغيون، فهو يرى أن حقيقة البلاغة تكون في مطابقة الكلام لمقتض الحال. ولهذا فإن لكل مقام مقالاً ((فإن المقامات مختلفة، ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب أو إيجاز، أو حذف أو إثبات، أو تصريح أو إشارة أو كناية واستعارة))[4].

ويستشهد ابن خلدون على تنوع المقال بحسب مقتض الحال بقصة يذكرها عن عيسى بن عمر (ت ١٤٩هـ). قال ابن خلدون: ((واعتبر ذلك بما يُحكى عن عيسى بن عمر، وقد قال له بعض النحاة: إني أجد في كلام العرب تكراراً؛ في قولهم: زيد قائم، وإن زيداً قائم، وإن زيداً لقائم، والمعنى واحد. فقال له: إن معانيها مختلفة؛ فالأول لإفادة الخالي

---

(١) ينظر: البيان والتبيين، للجاحظ: ٨٨/١، ٩٢، ٩٦، ١١٣، ١٠٦/٤، وكتاب الصناعتين، للعسكري: ٨-٣٩، والعمدة، لابن رشيق: ٢٤١/١-٢٥٠. وينظر: معجم المصطلحات البلاغية، لمطلوب: ٤٠٢/١، والبلاغة والفصاحة، لفياض: ١٩-٦٠.

(٢) الإيضاح، للقزويني: ١٢٢/١.

(٣) ينظر: شروح التلخيص: ١٢٢/١، والبلاغة والفصاحة، لفياض: ٥٨-٥٩.

(٤) المرجع السابق: ٧٨٢/١.

الذهن من قيام زيد. والثاني لمن سمعه فتردد فيه. والثالث لمن عُرِف بالإصرار على إنكاره. فاختلفت الدلالة باختلاف الأحوال))[1].

وقد بحثت عن هذه القصة التي يحكيها ابن خلدون عن عيسى ابن عمر في كثير من كتب النحو والأدب والبلاغة والتراجم، ولم أجد لها ذكرًا. لكن يذكرها بعض البلاغيين من قَبل عن الكندي المتفلسف (ت٢٥٢هـ) وأبي العباس: المبرد (ت ٢٨٥هـ)، أو ثعلب (ت٢٩١هـ)[2].

وابن خلدون يعلي شأن البلاغة بهذا المفهوم، ويعدها ((أصل الكلام العربي وسجيته وروحه وطبيعته))[3]. ويرى أن الكلام إذا لم يشتمل على شيء من المطابقة لمقتضيات الأحوال ((فليس من جنس كلام العرب؛ فإن كلامهم واسع، ولكل مقام عندهم مقال يختص به، بعد كمال الإعراب والإبانة))[4]. وأكّد في موضع آخر أن من لم يكن كذلك ((فهو مقصر عن البلاغة، ويلتحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات العجم. وأجدر به أن لا يكون عربيًا؛ لأن العربي هو الذي يطابق بإفادته مقتضى الحال))[5].

---

(١) المرجع السابق: ٧٦٦/١.

(٢) روي عن ابن الأنباري (٣٢٨هـ) أن الكندي المتفلسف (٢٥٢هـ) ركب إلى أبي العباس، وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشوًا. فقال أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك. فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم. ثم يقولون: إن عبد الله قائم. ثم يقولون: إن عبد الله لقائم. فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ؛ فقولهم: عبد الله قائم إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبد الله قائم. جواب عن سؤال سائل، وقولهم: إن عبد الله لقائم. جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني. وينظر في هذه الحادثة: دلائل الإعجاز: ٣١٥. و(أبو العباس) كنية لعالمين متعاصرين، هما: المبرد (٢٨٥هـ)، وثعلب (٢٩١هـ). واختلف في تعيين صاحب الكنية في هذه القصة، وينظر في تحقيق ذلك بحث الدكتور هارون المهدي ميغا: قصة الفيلسوف الكندي وأبي العباس حول أضرب الخبر، بحث بمجلة العرب، ج١و٢، س٤٣، رجب وشعبان ١٤٢٨هـ.

(٣) تاريخ ابن خلدون: ٨٠٠/١.

(٤) المرجع السابق: ٧٦٠/١.

(٥) المرجع السابق: ٨٠٠/١.

وهو ينطلق في هذا من وظيفة البلاغة؛ لأن الكلام له وظيفتان من حيث إفادة المعنى:

الأول: ما يفيد "أصل المعنى"، وهو ((دلالة الألفاظ من المفرد والمركب))، وهذه وظيفة الإعراب.

والثاني: ما يفيد "كمال المعنى"، وهو ((دلالة زائدة على دلالة الألفاظ من المفرد والمركب، وإنما هي هيئات وأحوال الواقعات جعلت للدلالة عليها أحوال وهيئات في الألفاظ، كل بحسب ما يقتضيه مقامه))[1]. وهذه وظيفة البلاغة، التي بها يطابق الكلام مقتضى الحال؛ لأن المتكلم يقصد بكلامه أن يفيد سامعه ما في ضميره إفادة تامة، ويدل به عليه دلالة وثيقة، ولا يكون ذلك إلا بالمطابقة[2]. ولذا فسر ابن خلدون البلاغة في موضع بأنها ((مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه))[3]. وقال: ((اعلم أن الكلام الذي هو العبارة والخطاب، إنما سره وروحه في إفادة المعنى. وأما إذا كان مهملاً فهو كالموات الذي لا عبرة به. وكمال الإفادة هو البلاغة))[4].

وعلى هذا فإن التركيب البليغ عند ابن خلدون هو صدى لسياق المعاني في النفوس والأذهان، وتصوير لما في المقام من أحوال وهيئات.

وهو بذلك يوافق ما قرره عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) من قبل في حديثه عن "النظم"، من أن ترتيب الألفاظ في النطق يجري حسب ترتيب المعاني في النفس. وقد عقد فصلاً في الفروق بين الحروف المنظومة والكلم المنظومة، بيّن فيه ((أن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسمًا من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه... وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك؛ لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب

---

(١) المرجع السابق: ٧٦١/١.

(٢) ينظر: المرجع السابق: ٨٠٠/١.

(٣) ينظر: المرجع السابق: ٧٧٥/١.

(٤) المرجع السابق: ٧٩٩/١.

ترتيب المعاني في النفس... والفائدة في معرفة هذا الفرق أنك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها، وتلاقت معانيها، على الوجه الذي اقتضاه العقل))[1]. ثم يجري في تقرير هذا الرأي إلى أن يلخص في نهاية الفصل ما أراده بقوله: ((لا يتصور أن تعرف للفظ موضعًا من غير أن تعرف معناه. ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبًا ونظمًا، وأنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك. فإذا تم لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكرًا في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولاحقة بها. وأن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق))[2].

وعلى حسب قدرة المتكلمين في مطابقة الكلام لمقتض الحال تتفاوت طبقاتهم في البلاغة قوة أو ضعفًا، وقد أشار ابن خلدون إلى هذا قائلاً: ((وبمقدار ما يقرب من طبقة عدم الإفادة يبعد عن رتبة البلاغة إذ هما طرفان))[3]. وهو بذلك يوافق البلاغيين من قبل، فقد قال السكاكي (ت٦٢٦هـ): ((ارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه: مقتضى الحال))[4]، ومن قبلهما قال ابن رشيق (ت٤٥٦هـ) في سياق ما يحتاج إليه الشاعر: ((ولكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائنًا من كان، ليدخل إليه من بابه، ويداخله في ثيابه، فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذي به تفاوت الناس وبه تفاضلوا، وقد قيل: لكل مقام مقال))[5].

---

(١) دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٤٩-٥٠.

(٢) المرجع السابق: ٥٣-٥٤.

(٣) ينظر: تاريخ ابن خلدون: ٧٩٢/١.

(٤) مفتاح العلوم، للسكاكي: ١٦٨، وينظر: شروح التلخيص: ١٢٤/١.

(٥) العمدة، لابن رشيق: ١٩٩/١.

ويرجع ابن خلدون تفاوت طبقات الناس في البلاغة بحسب اكتسابهم للملكة البلاغية. قال: ((فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع. وهذا هو معنى البلاغة))[1].

والحديث عن الملكة البلاغية عند ابن خلدون يطول، ولذا عقدت له مبحثًا مستقلاً.

ثانيًا: علاقة الفصاحة بالبلاغة.

سبق في بداية المبحث أن ذكرت تعريف القزويني (ت ٧٣٩هـ) لبلاغة الكلام أنها: ((مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته)).

وقد نص القزويني في هذا التعريف على اشتراط الفصاحة للبلاغة. وقال الدسوقي (ت ١٢٣٠هـ): ((إنما اشترط المصنف هذا الشرط الأخير مع أنه لم يذكره غيره كصاحب المفتاح، لأن البلاغة عنده لا تتحقق إلا بتحقق الأمرين، وظاهره أن الفصاحة لا بد منها مطلقًا... وهو كذلك على التحقيق))[2].

وليس الأمر كما قال الدسوقي؛ فإن اشتراط الفصاحة للبلاغة موجود في كلام المتقدمين على القزويني، الذين يرون أن بين (الفصاحة) و(البلاغة) عمومًا وخصوصًا. وأن الكلام لا يكون بليغًا حتى يكون فصيحًا، وهو معنى قولهم: كل كلام بليغ فصيح[3]. وقال العلوي (ت ٧٤٩هـ): ((اعلم أنه لا خلاف بين أهل التحقيق من علماء البيان أن الكلام لا يوصف بكونه بليغًا إلا إذا حاز مع جزالة المعنى فصاحة الألفاظ. ولا يكون بليغًا إلا بمجموع الأمرين كليهما))[4].

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ٧٦٤/١.

(٢) حاشية الدسوقي على مختصر السعد: ١٢٢/١.

(٣) ينظر: كتاب الصناعتين، للعسكري: ٧، وسر الفصاحة، لابن سنان: ٥٩، والمثل السائر، لابن الأثير: ٩٤/١.

(٤) الطراز، للعلوي: ١٢٨/١.

وإذا كان الدسوقي أراد أنه لم ينص أحد في تعريفه على اشتراط الفصاحة بلفظها فليس الأمر كذلك، فقد نص على ذلك ابن وهب (ت ٣٣٥هـ) حيث قال في تعريف البلاغة: ((وحَدّها عندنا: القول المحيط بالمعنى المقصود، مع اختيار الكلام، وحسن النظام، وفصاحة اللسان))، قال: ((وزدنا (فصاحة اللسان) لأن الأعجمي واللحّان قد يبلغا مرادهما بقولهما، فلا يكونان موصوفين بالبلاغة))[١].

والفصاحة التي يتحدث عنها البلاغيون تكون بوضوح الكلام، وعذوبة لفظه، وسهولة نطقه، وبعده عن التعقيد، وخلوه من اللحن بمخالفة القياس الصرفي والنحوي[٢].

وابن خلدون لم يفرد حديثًا عن الفصاحة بهذا المصطلح، ولم ينص على اشتراطها في بيانه لمفهوم البلاغة، لكنه ذكر معاييرها التي يذكرها البلاغيون في حديثهم عن الفصاحة، وهي عنده معايير لبلاغة العرب، تتأثر البلاغة بها وجودًا أو عدمًا، وقد جاء حديثه عنها في بيان شروط عمل الشعر وإحكام صناعته، قال: ((ولا يستعمل فيه من الكلام إلا الأفصح من التراكيب، والخالص من الضرورات اللسانية فليهجرها؛ فإنها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة...

ويجتنب أيضًا المعقد من التراكيب جهده، و إنما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الفهم، وكذلك كثرة المعاني في البيت الواحد فإن فيه نوع تعقيد على الفهم...

وليجتنب الشاعر أيضًا الحوشي من الألفاظ، والمقعّر، وكذلك السوقي المبتذل بالتداول بالاستعمال؛ فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة، وكذلك المعاني المبتذلة بالشهرة؛ فإن الكلام ينزل بها عن البلاغة أيضًا، فيصير مبتذلاً، ويقرب من عدم الإفادة،

---

(١) البرهان في وجوه البيان، لابن وهب: ١٦٣.

(٢) ينظر في تعريف الفصاحة ومعاييرها: سر الفصاحة، لابن سنان: ٥٨ و٦٣، والمثل السائر، لابن الأثير: ١/ ٩٠-٩٤، وشروح التلخيص: ١/ ٨٠-١٢١، ومعجم المصطلحات البلاغية، لمطلوب: ٣/ ١١٠.

كقولهم: النار حارة و السماء فوقنا. وبمقدار ما يقرب من طبقة عدم الإفادة يبعد عن رتبة البلاغة إذ هما طرفان))[1].

وحينما تناول وصف البلاغة في اللسان العربي (المضري) ذكر أن العرب: ((لكل مقام عندهم مقال يختص به، بعد كمال الإعراب والإبانة))[2]. و(كمال الإعراب والإبانة) من الفصاحة التي يشترطها البلاغيون لتحقق بلاغة الكلام.

ويتبين من هذه الأقوال أن المعايير التي يجعلها البلاغيون للفصاحة يراها ابن خلدون لازمة لتحقق البلاغة في اللسان العربي، وبهذا لا يخرج ابن خلدون في مفهومه للبلاغة عن مفهوم البلاغيين حينما يشترطون تحقق المطابقة مع الفصاحة.

إلا أن هذه النتيجة يشكل عليها تلك الأقوال التي يرى فيها ابن خلدون صراحة أنه لا صلة لإعراب الكلام بالبلاغة، وأن شعر العامة في عهده الذي انحرف عن سنن العرب في إعرابهم يصح أن يوصف بالبلاغة إذا طابق مقتضى الحال، ولو لم يكن معربًا، وأن الشعراء يتفاوتون في طبقات البلاغة بحسب مراعاة المطابقة. لا بحسب الإعراب والإخلال به. ومما قاله وهو يتحدث عن أشعار العرب أهل الأمصار في عهده: ((أما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيعرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض. على ما كان عليه سلفهم المستعربون، ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه... ولهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة. وفيهم الفحول والمتأخرون.

والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصًا علم اللسان يستنكر صاحبها هذه الفنون التي لهم إذا سمعها، ويمج نظمهم إذا أنشد. ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها. وهذا إنما أُتي من فقدان الملكة في لغتهم، فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه و ذوقه ببلاغتها. إن كان سليمًا من الآفات

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ١/٧٩١-٧٩٢.

(٢) المرجع السابق: ١/٧٦٠.

في فطرته ونظره، وإلا فالإعراب لا مدخل له في البلاغة، إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه، سواء كان الرفع دالاً على الفاعل والنصب دالاً على المفعول أو بالعكس، وإنما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو في لغتهم هذه. فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة، فإذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحت الدلالة، وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة، ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك. وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه، ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر. ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب))[1].

وأكد هذا الرأي حينما ذكر شعر الجازية الهلالية التي كلفت بالشريف شكر بن أبي الفتوح (ت٤٥٣هـ) وكلف بها، بعد أن فرق أهلها بينهما، وارتحلوا بها عنه، قال ابن خلدون: ((فارقوه، فرجع إلى مكانه من مكة، وبين جوانحه من حبها داء دخيل، وإنها من بعد ذلك كلفت به مثل كلفه إلى أن ماتت من حبه، ويتناقلون من أخبارها في ذلك ما يعفي عن خبر قيس وكُثيّر، ويروون كثيرًا من أشعارها محكمة المباني متفقة الأطراف، وفيها المطبوع والمنتحل والمصنوع، لم يفقد فيها من البلاغة شيء، وإنما أخلوا فيها بالإعراب فقط، ولا مدخل له في البلاغة كما قررناه لك في الكتاب الأول من كتابنا هذا، إلا أن الخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون في روايتها، ويستنكفون عنها؛ لما فيها من خلل الإعراب، ويحسبون أن الإعراب هو أصل البلاغة، وليس كذلك))[2].

وهذه القاعدة (لا مدخل للإعراب في البلاغة) التي يقررها ابن خلدون في هذه النقول تبدو معارضة لما قرره في النقول السابقة من أن بلاغة العرب تأتي ((بعد كمال الإعراب والإبانة))، وأن الشعر ((لا يستعمل فيه من الكلام إلا الأفصح من التراكيب، والخالص من الضرورات اللسانية، فليهجرها؛ فإنها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة)).

---

(١) المرجع السابق: ١/٨٠٥-٨٠٦.

(٢) المرجع السابق: ٦/٢٥.

والذي يبدو لي أن ابن خلدون غير متعارض في قوليه، لاختلاف سياق الكلام بين الرأيين، ولكون المقدمات التي ينطلق منها تؤدي إلى تقرير الرأيين، وإن كان لم يتحرز من الإطلاق، ولم يحرر العبارة بدقة.

والذي ينطلق منه ابن خلدون أن لهجات العرب في عهده -وقد انحرفت عن لسان العرب المضري- تعد لغات مستقلة عن لغة العرب المضرية، كما استقلت اللغة المضرية عن اللغة الحميرية، ولكل لغة رسومها وكيفياتها في الدلالة على المعاني، وقد عقد فصلاً ((في أن لغة العرب لهذا العهد مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير))[1]. وقال: ((تغير عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته. تشهد بذلك الأنقال الموجودة لدينا خلافًا لمن يحمله القصور على أنها لغة واحدة، ويلتمس إجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها... ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها. كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر))[2].

وعقد فصلاً ((في أن لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها)) وقال: ((اعلم أن عرف التخاطب في الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة، ولا بلغة أهل الجيل، بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لعهدنا، وهي عن لغة مضر أبعد. فأما إنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر يشهد له ما فيها من التغاير الذي يعد عند صناعة أهل النحو لحنًا. وهي مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم. فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس معهما، وكل منهم متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده والإبانة عما في نفسه. و

---

(١) المرجع السابق: ٧٦٧/١-٧٦٨.

(٢) المرجع السابق: ٧٦٨/١.

هذا معنى اللسان واللغة. وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد))[1].

وإذا كانت لهجات العرب التي انحرفت عن اللسان المضري تعد ألسنة مستقلة عند ابن خلدون فإن ((الكل لسان أحكام في البلاغة تخصه)) كما قال[2]. ولهذا فلا يصح عنده أن تجرى أحكام النحو التي قننت للسان المضري على غيره من الألسنة العربية. على أنه يرى أن لغة العرب لعهده لم يتغير فيها إلا حركات الإعراب. قال: ((نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري. ولم يفقد منها إلا دلالة الحركات على تعين الفاعل من المفعول. فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير. وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد))[3].

ثم إنه بعد ذلك يقرر أن ((البيان والبلاغة في اللسان المضري أكثر وأعرق؛ لأن الألفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها. ويبقى ما تقتضيه الأحوال –ويسمى: بساط الحال– محتاجًا إلى ما يدل عليه. وكل معنى لا بد وأن تكتنفه أحوال تخصه. فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود؛ لأنها صفاته. وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بألفاظ تخصها بالوضع. وأما في اللسان العربي فإنما يدل عليها بأحوال وكيفيات في تراكيب الألفاظ وتأليفها. من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة إعراب. و قد يدل عليها بالحروف غير المستقلة. ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات كما قدمناه. فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل ألفاظًا وعبارة من جميع الألسن. وهذا معنى قوله ﷺ: "أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ. واخْتُصِرَ لِي الكَلَامُ اخْتِصارًا"[4]))[1]. وهذا التقرير يتفق مع ما سبق ذكره في الحديث عن مفهوم

---

(1) المرجع السابق: ٧٧٠/١.

(2) المرجع السابق: ٧٨٤/١.

(3) المرجع السابق: ٧٦٦/١. وينظر: ٧٦٧/١.

(4) الحديث بهذا اللفظ قال فيه الهيثمي في مجمع الزائد: ٤٣٦/١ : ((رواه أبو يعلى. وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي. ضعفه أحمد وجماعة)). وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة: ٣٩٢/٦،

البلاغة من كون ابن خلدون يعلي شأن هذا المفهوم. ويعد البلاغة به ((أصل الكلام العربي وسجيته وروحه وطبيعته)). ويرى أن الكلام إذا لم يشتمل على شيء من المطابقة لمقتضيات الأحوال ((فليس من جنس كلام العرب)).

* * *

=برقم (٢٨٦٤). والجملة الأولى من الحديث "أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ" وفي رواية "بُعِثْتُ" وفي أخرى: "أُعْطِيتُ" أخرجها البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد والسير. باب قول النبي ﷺ: نصرت بالرعب مسيرة شهر. برقم (٢٩٧٧). ومسلم في صحيحه: كتاب المساجد ومواضع الصلاة. برقم (٥٢٣).

(١) تاريخ ابن خلدون: ٧٦٦/١.

المبحث الثاني:

الملكة البلاغية

يعد ابن خلدون من أوائل من تحدث عن الملكة اللسانية، وفصل القول فيها، حتى عُدّ المؤسس الحقيقي لنظرية الملكة اللسانية، وليس المُحدَثون[1].

والحديث عن اكتساب الملكة البلاغية يتعلق بالحديث عن اكتساب اللغة عمومًا، وقد تناولها اللغويون بالتفصيل في دراسات علم اللغة، كما قامت دراسات تناولت نظرة ابن خلدون إلى "الملكة اللسانية"، ومقارنتها بالنظريات الحديثة[2]، وإنما يهمنا هنا ما خص به ابن خلدون "الملكة البلاغية" فيه بالحديث، وسأعرضه في العناصر الآتية.

أولاً: مفهوم الملكة البلاغية.

الملكة هي: الصفة الراسخة في النفس، بحيث لا تقبل الزوال بسهولة[3].

ويرى ابن خلدون أن الملكة تمر بثلاث مراحل حتى تكون كذلك، قال: ((الملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال، لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالاً، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة، أي: صفة راسخة))[4].

وعلى هذا فمعنى أن تكون البلاغة ملكة أن تتمكن في المرء حتى لا يحسن أن يتكلم إلا بها، ولا ينظر في الكلام إلا من خلالها.

---

(١) ابن خلدون وليس تشومسكي المؤسس الحقيقي لنظرية الملكة اللسانية، للدكتور سعود السبيعي: ٢٩٨.

(٢) ينظر: "الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون" للدكتور ميشال زكريا، و"الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون" للدكتور محمد عيد.

(٣) ينظر: التعريفات، للجرجاني: ٢٩٧، وتاج العروس، للزبيدي: ١٧٠/١٠ مادة "س ج ى"، وتاريخ ابن خلدون: ٢٥٨/٢.

(٤) تاريخ ابن خلدون: ٧٦٤/١–٧٦٥.

و(حصول ملكة البلاغة) هو معنى (الذوق) عند ابن خلدون[1]. وقد عقد في مقدمة تاريخه فصلاً (في تفسير الذوق في مصطلح أهل البيان. وتحقيق معناه)[2].

ويرى أن إطلاق (الذوق) على (ملكة البلاغة) استعارة؛ لأن (الذوق) موضوع لإدراك الطعوم. ((لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام، كما هو محل لإدراك الطعوم استعير لها اسمه. وأيضًا فهو وجداني اللسان كما أن الطعوم محسوسة له. فقيل له: ذوق))[3].

ثانيًا: فائدة الملكة البلاغية.

حصول الملكة البلاغية له فائدتان عند ابن خلدون:

الأولى: القدرة على التكلم بأساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم. بل لا يكاد من حصل الملكة ينحو في كلامه غير منحى البلاغة التي للعرب، فتكون له البلاغة جبلة وطبعًا. قال ابن خلدون: ((ملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ إلى جودة النظم، وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم. ولو رام صاحب هذه الملكة حيدًا عن هذه السبل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه، ولا وافقه عليه لسانه؛ لأنه لا يعتاده ولا تهديه إليه ملكته الراسخة عنده))[4].

وهذه فائدة تحقق وظيفة البلاغة التي بها يفيد المتكلم سامعه ما في ضميره إفادة تامة، ويدل به عليه دلالة وثيقة، فيحصل التأثير المرغوب فيه.

الثانية: البصر ببلاغة الكلام وصوابه، والقدرة على نقده وتمييز حسنه من رديئه. قال ابن خلدون في المتكلم الذي حصل له الذوق البلاغي: ((وإذا عُرض عليه الكلام حائدًا عن

---

(1) ينظر: المرجع السابق: ١/٧٧٥.

(2) المرجع السابق.

(3) المرجع السابق: ١/٧٧٦.

(4) المرجع السابق: ١/٧٧٥-٧٧٦.

أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه، ومَجَّه، وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم))[1].

وأذكر هنا للاستشهاد على هذه الفائدة القصة التي تروى عن الأصمعي (ت٢١٦هـ) قال: كنت أقرأ: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم)، وبجنبي أعرابي، فقال: كلام من هذا؟! فقلت: كلام الله، قال: أعد، فأعدت، فقال: ليس هذا كلام الله، فتنبهت، فقرأت: ﴿واللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، فقال: أصبت، هذا كلام الله، فقلت: أتقرأ القرآن؟ قال: لا، فقلت: فمن أين علمت أني أخطأت؟ فقال: يا هذا، عز فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع[2]. ويحكى عن الفرزدق (ت١١٠هـ) أنه سمع رجلاً يقرأ: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم)، فقال: لا ينبغي أن يكون هذا هكذا، قال: فقيل له: إنما هو ﴿واللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قال: هكذا ينبغي أن يكون[3].

ففي هذين الموقفين ما يدل على أن الذي تجري بلاغة العرب في عروقه يميز الأحوال ويدرك ما تقتضيه من الأساليب والأقوال، ويجري في ذلك على منوال قولهم: لكل مقام مقال.

ثالثًا: اكتساب الملكة البلاغية.

يقرر ابن خلدون أولاً أن حصول الملكة البلاغية واكتسابها أمر ممكن شأن سائر الملكات[4]، وينكر على الذين يظنون ((أن الصواب للعرب في لغتهم إعرابًا وبلاغة أمر طبيعي)) وقال: ((إن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل))[5].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) ينظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ٣٨٢.

(٣) ينظر: الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني: ٧ / ٧٣٠.

(٤) تاريخ ابن خلدون: ٧٧١/١.

(٥) المرجع السابق: ٧٧٥/١.

ويحدد وسائل اكتساب الملكة البلاغية في وسيلتين:

الأولى: كثرة الحفظ والاستماع للكلام البليغ الجاري على أساليب العرب.

ويشمل حفظ القرآن الكريم، والحديث الشريف، وكلام السلف، ومخاطبات فحول العرب والبلغاء من المولدين، في نثرهم وشعرهم.

الثانية: كثرة استعمال الكلام البليغ وتكراره، والتعبير على نحو ما حفظه منه.

قال ابن خلدون: ((اعلم أن الأذواق كلها في معرفة البلاغة إنما تحصل لمن خالط تلك اللغة، وكثر استعماله لها، ومخاطبته بين أجيالها، حتى يحصل ملكتها))[1]، و((على مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده، ثم إجادة الملكة من بعدهما))[2].

إلا أن من يروم تحصيل الملكة البلاغية فإنه ((يحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع، والتفهم الحسن لمنازع العرب وأساليبهم في التراكيب، ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الأحوال))[3]، ((فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة))[4].

ويؤكد ابن خلدون أهمية كثرة المحفوظ في تحصيل الملكة: ((حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم، فينسج هو عليه، ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم، وخالط عباراتهم في كلامهم، حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم))[5].

---

(١) المرجع السابق: ٨٣٩/١.

(٢) المرجع السابق: ٧٩٦/١.

(٣) المرجع السابق: ٧٧٢/١.

(٤) المرجع السابق: ٧٦٤/١.

(٥) المرجع السابق: ٧٧٤/١.

كما يؤكد أهمية جودة المحفوظ. ((فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقي الملكة الحاصلة؛ لأن الطبع إنما ينسج على منوالها. وتنمو قوى الملكة بتغذيتها... وعلى حسب ما نشأت الملكة عليه من جودة أو رداءة تكون تلك الملكة في نفسها. فملكة البلاغة العالية الطبقة في جنسها إنما تحصل بحفظ العالي في طبقته من الكلام))[1].

ولهذا السبب يرجع قصور أساليب الفقهاء وأهل العلوم في البلاغة؛ ((لما يسبق إلى محفوظهم ويمتلئ به من القوانين العلمية والعبارات الفقهية، الخارجة عن أسلوب البلاغة، والنازلة عن الطبقة؛ لأن العبارات عن القوانين والعلوم لا حظ لها في البلاغة، فإذا سبق ذلك المحفوظ إلى الفكر، وكثر، وتلونت به النفس، جاءت الملكة الناشئة عنه في غاية القصور، وانحرفت عباراته عن أساليب العرب في كلامهم))[2]. ولهذا السبب أيضًا قصرت البلاغة في ((شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار و غيرهم، ممن لم يمتلئ من حفظ النقي الحر من كلام العرب))[3]. ويستشهد على ذلك بشعره، قال: ((ذاكرت يومًا صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب، وزير الملوك بالأندلس من بني الأحمر، وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة، فقلت له: أجد استصعابًا عليّ في نظم الشعر متى رمته، مع بصري به، وحفظي للجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب، وإن كان محفوظي قليلاً. وإنما أتيت -والله أعلم بحقيقة الحال- من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلمية والقوانين التألفية؛ فإني حفظت قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في القراءات وفي الرسم، واستظهرتهما، وتدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه والأصول، وجمل الخونجي في المنطق، وبعض كتاب التسهيل، وكثيرًا من قوانين التعليم في المجالس، فامتلأ محفوظي من ذلك، وخدش وجه الملكة التي استعددت لها

---

(١) المرجع السابق: ١/٧٩٦-٧٩٧.

(٢) المرجع السابق: ١/٧٩٧.

(٣) المرجع السابق.

بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب، فعاق القريحة عن بلوغها. فنظر إلي ساعة معجبًا، ثم قال: لله أنت! وهل يقول هذا إلا مثلك؟!))[1].

وفي المقابل فإن جودة المحفوظ والمسموع وعلو طبقته في البلاغة كان سببًا في تفوق بلاغة الإسلاميين من العرب على الجاهليين؛ بسبب سماعهم للقرآن والحديث، وحفظهم لهما، واقتباسهم منهما، وتأثرهم ببلاغتهما، قال ابن خلدون بعد أن قرر أن حصول الملكة اللسانية بكثرة المحفوظ، وجودته بجودته: ((ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سر آخر، وهو إعطاء السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية، في منثورهم ومنظومهم. فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان ذي الرمة والأحوص وبشار، ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية وصدرًا من الدولة العباسية، في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك – أرفع طبقة في البلاغة بكثير من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد، ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاوراتهم. والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة.

والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث، اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثليهما، لكونها ولجت في قلوبهم، ونشأت على أساليبها نفوسهم، فنهضت طباعهم، وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية، ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها. فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقًا من أولئك، وأرصف مبنى وأعدل تثقيفًا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة. وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة.

---

(١) المرجع السابق: ٧٩٧/١-٧٩٨.

ولقد سألت يوماً شيخنا الشريف أبا القاسم قاضي غرناطة لعهدنا، وكان شيخ هذه الصناعة، أخذ بسبتة عن جماعة من مشيختها من تلاميذ الشلوبين، واستبحر في علم اللسان وجاء من وراء الغاية فيه، فسألته يومًا: ما بال العرب الإسلاميين أعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين، ولم يكن ليستنكر ذلك بذوقه، فسكت طويلاً ثم قال لي: والله ما أدري! فقلت له: أعرض عليك شيئًا ظهر لي في ذلك، ولعله السبب فيه، وذكرت له هذا الذي كتبت، فسكت معجبًا، ثم قال لي: يا فقيه هذا الكلام من حقه أن يكتب بالذهب))[1].

ومع ما قرره ابن خلدون هنا من أثر القرآن العظيم في تفوق الإسلاميين العرب في البلاغة إلا أنه ذكر في موضع آخر أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة، والاقتصار عليه دون غيره يقصر بصاحبه عن اكتساب الملكة، قال مقارنًا بين لغة أهل أفريقية والمغرب وأهل الأندلس: ((أما أهل أفريقية والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة، وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة؛ لما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه، والاحتذاء بها، وليس لهم ملكة في غير أساليبه، فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي، وحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام، وربما كان أهل أفريقية في ذلك أخف من أهل المغرب بما يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينها كما قلناه، فيقتدرون على شيء من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل، إلا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة... وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول العمر حصول ملكة، صاروا بها أعرف في اللسان العربي))[2].

---

(1) المرجع السابق: ١/٧٩٨-٧٩٩.

(2) المرجع السابق: ١/٧٤١-٧٤٢.

وهذا الكلام يظهر منه أنه يعارض ما قرره سابقًا من أثر القرآن في اكتساب الملكة البلاغية، ولا أجد مخرجًا لهذا التعارض، إلا أن يقال: إن ابن خلدون يرى في عبارته الثانية أن القرآن الكريم له لغته الخاصة به، ولن يستطيع أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن في لغته وبلاغته؛ لكونه معجزًا، فحصول الملكة اللسانية القرآنية متعذرة، ولا يكفي الاقتصار عليه لحصول الملكة في لسان العرب؛ لأن أسلوب القرآن ليس كاللسان العربي، فلا ينشأ عنه في الغالب ملكة؛ بل لا بد لحصول الملكة التامة في اللسان العربي من رواية شعر العرب وترسلهم ومدارسة العربية.

أما أن القرآن معجز لا يأتي أحد بمثله فهذا حق، وأما أنه لا ينشأ عنه ملكة في اللسان العربي أو أنه لا يؤثر في حصول الملكة ولو اقتصر عليه فهذا فيه نظر، ويعارض ما قرره ابن خلدون أولاً.

وما قرره أولاً حق، وقد قرره البلاغيون والكُتَّاب والأدباء، فحثوا على حفظ كلام الله ﷻ، ودوام النظر فيه، وتدبر معانيه، والتدرب على استعماله في غضون الكلام اقتباسًا واستدلالاً، ومن ذلك ما قاله نجم الدين ابن الأثير الحلبي (ت ٧٣٧هـ) للمنشئ والبليغ: ((وليس له وصول إلى بلوغ مقاصده من مخاطبة كل أحد بما يليق به، والتمكن في صناعته إلا إذا استعد لذلك بتحصيل أصول يرجع إليها.

فمنها: أن يحفظ كتاب الله تعالى، إذ له فائدتان في حفظه، إحدى الفائدتين: أن يدخل في زمرة من أثنى عليه رسول الله ﷺ بقوله: "خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرآنَ وَعَلَّمَهُ"[1]... والفائدة الثانية: أن يطلع على أسرار الكتاب العزيز بكثرة تلاوته، ويتدرب باستعماله في مطاوي كلامه، والاستشهاد به في الوقائع المناسبة لكل آية من آياته...))[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، برقم (٥٠٢٧).

(٢) جوهر الكنز، لنجم الدين ابن الأثير: ٢٩-٣٠، وينظر: حسن التوسل، لشهاب الدين الحلبي: ٧٢، والمثل السائر، لابن الأثير: ١/٦٠-٦١.

كما أكد أثر حفظ القرآن وتلاوته في اكتساب الملكة اللسانية المتخصصون في التربية وطرق تدريس العلوم الشرعية واللغة العربية وغيرهم. وأكدته البحوث والدراسات الميدانية التي أجريت لمعرفة مدى تأثير القرآن الكريم في اكتساب اللغة. وأظهرت نتائج إيجابية مهمة[1]. والله ﷻ يقول: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

رابعًا: هل كل أحد يكتسب الملكة البلاغية؟

يرى ابن خلدون أن الملكة البلاغية لا تحصل إلا للعربي، أو لأعجمي النسب لكنه نشأ بين العرب وتعلم منهم. أما الأعجمي الذي تمكن من لغة قومه وحصل ملكتها فالغالب أنه لا يحصل له الذوق في بلاغة العرب؛ وينطلق في ذلك من أن ((الملكة إذا سبقتها ملكة أخرى في المحل فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة))[2]. إلا أنه يستثني من ذلك ((أن تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم حين انتقل منها إلى العربية. كأصاغر أبناء العجم الذين يربون مع العرب قبل أن تستحكم عجمتهم. فتكون اللغة العربية كأنها السابقة لهم. ولا يكون عندهم تقصير في فهم المعاني من العربية))[3].

وبهذا يفسر ابن خلدون حصول الملكة لبعض الأعاجم من أهل اللغة وفرسان العربية كسيبويه (ت١٨٠هـ) وغيره. قال: ((فإن عرض لك ما تسمعه من أن سيبويه والفارسي والزمخشري وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجامًا مع حصول هذه الملكة لهم. فاعلم أن أولئك القوم الذين تسمع عنهم إنما كانوا عجمًا في نسبهم فقط. وأما المربى والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب. ومن تعلمها منهم، فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا شيء وراءها، وكأنهم في أول نشأتهم من العرب الذين نشأوا في أجيالهم، حتى أدركوا كنه اللغة، وصاروا من أهلها. فهم وإن

---

(١) ينظر: أثر تعلم القرآن الكريم في اكتساب الملكة اللسانية. للعليوي: ١٣.

(٢) تاريخ ابن خلدون: ٧٧٧/١.

(٣) المرجع السابق: ٧٥١/١.

كانوا عجمًا في النسب فليسوا بأعجام في اللغة والكلام؛ لأنهم أدركوا الملكة في عنفوانها واللغة في شبابها، ولم تذهب آثار الملكة ولا من أهل الأمصار، ثم عكفوا على الممارسة والمدارسة لكلام العرب حتى استولوا على غايته))[1].

وأشار ابن خلدون إلى أهمية اكتساب الملكة من الصغر، كما قال عن أهل الأندلس: ((أفادهم التفنن في التعليم، وكثرة رواية الشعر، والترسل، ومدارسة العربية من أول العمر حصول ملكة، صاروا بها أعرف في اللسان العربي))[2].

خامسًا: بين تحصيل الملكة البلاغية وتحصيل علم البلاغة.

يفرق ابن خلدون بين تحصيل الملكة البلاغية وتحصيل علم البلاغة، ويقرر أن تحصيل العلم بقواعده وقوانينه لا يلزم منه تحصيل الملكة، قال: ((والسبب في ذلك أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة. فهو علم بكيفية، لا نفس كيفية، فليست نفس الملكة، إنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علمًا، ولا يحكمها عملاً))، ويشبه ذلك بمن يعبر لك عن كيفية الخياطة، فإذا طولب بأن يعمل ذلك لم يحسنه[3]، فمن حصل قواعد البلاغة وقوانينها لم يحصل لزامًا ملكة البلاغة، كما أن الملكة البلاغية تحصل من دون تحصيل علومها؛ لأن الملكة أمر وجداني ترسخ في النفس من دون وعي، من خلال البيئة والمحاكاة والتكرار، بخلاف العلم فإنه يكتسب بوعي من المتعلم، قال ابن خلدون: ((لا تقولن إن معرفة قوانين البلاغة كافية لذلك؛ لأنا نقول: قوانين البلاغة إنما هي قواعد علمية قياسية، تفيد جواز استعمال التراكيب على هيئتها الخاصة بالقياس، وهو قياس علمي صحيح مطرد، كما هو قياس القوانين الإعرابية، وهذه الأساليب التي نحن نقررها ليست من القياس في شيء، إنما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب، لجريانها على اللسان، حتى

---

(1) المرجع السابق: ٧٧٧/١.

(2) المرجع السابق: ٧٤٢/١.

(3) المرجع السابق: ٧٧٢/١، وينظر: كيف تغدو فصيحًا عف اللسان؟، للطيان: د ٩.

تستحكم صورتها. فيستفيد بها العمل على مثالها. والاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر))[1].

ويبين ابن خلدون أن الملكة وإن كانت تفيد صاحبها البصر ببلاغة الكلام، ونقده، إلا أن هذا نقد انطباعي، قد يعجز صاحبه عن الاستدلال له إلا بتحصيل العلم. قال: ((إذا عرض عليه الكلام حائداً عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجه، وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم، وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك، كما تصنع أهل القوانين النحوية والبيانية؛ فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء. وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب، حتى يصير كواحد منهم))[2].

وهذا الرأي من ابن خلدون يؤكد أهمية الجمع بين ترسيخ الملكة، وتحصيل العلم، إلا أن الأهم في تعليم البلاغة أن يتجه به نحو الاهتمام بترسيخ الملكة، أكثر من الاهتمام بتحصيل العلم، وفي ذلك يقول ابن خلدون منكراً الاقتصار على تحصيل العلم: ((أصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل، وبعدت عن مناحي اللسان وملكته، وأفاد ذلك حملتها في الأمصار وآفاقها البعد عن الملكة في الكلية، وكأنهم لا ينظرون في كلام العرب، وما ذلك إلا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه، وغفلتهم عن المران في ذلك للمتعلم، فهو أحسن ما تفيده الملكة في اللسان))[3].

* * *

---

(1) تاريخ ابن خلدون: ١/٧٨٨.

(2) المرجع السابق: ١/٧٧٦.

(3) المرجع السابق: ١/٧٧٤.

المبحث الثالث:

علم البلاغة والتأليف فيه

أولاً: المقصود بعلم البلاغة.

عرف ابن خلدون (علم البلاغة) بأنه: الفن الذي يحصل به ((معرفة الشروط والأحكام، التي بها تطابق التراكيب اللفظية مقتضى الحال)). ((وتلك الشروط والأحكام للتراكيب في المطابقة اسقريت من لغة العرب، وصارت كالقوانين))[1]. ويرى أن ((قوانين البلاغة إنما هي قواعد علمية قياسية، تفيد جواز استعمال التراكيب على هيئتها الخاصة بالقياس. وهو قياس علمي صحيح مطرد. كما هو قياس القوانين الإعرابية))[2].

ثانيًا: علوم البلاغة.

تناول ابن خلدون تصنيف البلاغيين لعلم البلاغة إلى ثلاثة أصناف: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع.

وأشار إلى أن بعض البلاغيين يطلقون على الأصناف الثلاثة اسم (البيان)، وهو اسم للصنف الثاني. وقد أشار القزويني (ت ٧٣٩هـ) من قبل إلى هذا، ولم يبين السبب[3]، إلا أن ابن خلدون ذكر أن السبب في ذلك كون الأقدمين أول ما تكلموا في أساليب علم البيان[4].

ويكون هذا التعليل متوجهًا لو كانت علوم البلاغة مصنفة من قبل. وأقرب منه ما علل به ابن يعقوب المغربي (ت ١١٢٨هـ) بأن البيان هو: المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير. وجميع الفنون لها تعلق به[5].

---

(١) المرجع السابق: ٧٩٩/١.

(٢) المرجع السابق: ٧٨٨/١.

(٣) الإيضاح، للقزويني: ١٥١/١.

(٤) تاريخ ابن خلدون: ٧٦١/١.

(٥) مواهب الفتاح، لابن يعقوب: ١٥١/١.

وفي حديثه عن وظائف علوم البلاغة ذكر ابن خلدون أن علم المعاني يبحث في أحوال التركيب وهيئاته التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال. وبهذا العلم تحصل الإفادة لمقتضى الحال. ((ثم يتبع هذه الإفادة لمقتضى الحال التفنن في انتقال التركيب بين المعاني بأصناف الدلالات؛ لأن التركيب يدل بالوضع على معنى، ثم ينقل الذهن إلى لازمه أو ملزومه أو شبهه... ويحصل للفكر بذلك الانتقال لذة كما تحصل في الإفادة وأشد؛ لأن في جميعها ظفرًا بالمدلول من دليله. والظفر من أسباب اللذة)). وهذا العلم الذي ((يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه)) هو علم البيان. ويرى ابن خلدون أن علم البيان شقيق علم المعاني المفيد لمقتضى الحال؛ لأن قوانينه راجعة إلى معاني التراكيب ومدلولاتها. وقوانين علم المعاني راجعة إلى أحوال التراكيب أنفسها من حيث الدلالة. واللفظ والمعنى متلازمان متضايفان. وعلى هذا فإنه يحصل بهذين العلمين ما يقصد إليه المتكلم بأن يفيد سامعه ما في ضميره إفادة تامة. ويدل به عليه دلالة وثيقة[1].

وبناء على هذا التقرير فإن علمي المعاني والبيان عند ابن خلدون ((هما جزء البلاغة، وبهما كمال الإفادة))[2].

وأما علم البديع فهو تابع لهما وملحق بهما، فينظر فيه بعد كمال الإفادة. وهو يتناول ضروبًا من التحسين و التزيين، يحصل بها للكلام رونق ولذة في الأسماع وحلاوة وجمال. كلها زائدة على الإفادة[3].

وهذه النظرة إلى البديع هي ما قرره كثير من البلاغيين المتأخرين صراحة منذ الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)، حينما حدد للبديع مفهومًا يميزه عن علمي المعاني

---

(١) ينظر فيما سبق: تاريخ ابن خلدون: ١/ ٧٩٩-٨٠٠.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٨٠٠.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٨٠٠-٨٠١.

والبيان، فقال: ((هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة))[1].

وتعريف القزويني (ت ٧٣٩هـ) يفهم منه أن تحسين الكلام لا يكون إلا لهذه الوجوه، وأن تحسينها تحسين عرضي، لا تحسين ذاتي، لأن وصف البلاغة حصل للكلام بمراعاة أحوال اللفظ على ما يقتضيه الحال كما في علم المعاني، ومراعاة وضوح الدلالة على ما هو في علم البيان، وأما هذه المحسنات البديعية فتأتي بعد الحسن الذاتي لتزيد الكلام حسنًا وقبولاً، وقد قال القزويني (ت ٧٣٩هـ) بعد أن عرف بلاغة الكلام: ((وإذ قد عرفت معنى البلاغة في الكلام وأقسامها ومراتبها، فاعلم أنه يتبعها وجوه كثيرة غير راجعة إلى مطابقة مقتضى الحال ولا إلى الفصاحة، تورث الكلام حسنًا وقبولاً))[2]، قال التفتازاني (ت٧٩٢هـ) في شرح التلخيص: ((وفي قوله: يتبعها، إشارة إلى أن تحسين هذه الوجوه للكلام عرضي خارج عن حد البلاغة))[3].

وقد أخرج القزويني (ت ٧٣٩هـ) المحسنات البديعية عن حد البلاغة منذ أن عقد لكتابه (الإيضاح) مقدمة عنون لها بـ(الكشف عن معنى الفصاحة والبلاغة، وانحصار علم البلاغة في علم المعاني والبيان)[4]، وصرح التفتازاني (ت ٧٩٢هـ) من بعده بأن المحسنات البديعية خارج البلاغة[5].

وذكر ابن خلدون أن كثيرًا من البلاغيين يجعلها مندرجة في البلاغة على أنها غير داخلة في الإفادة[6].

---

(١) التلخيص، للقزويني: ٨٦، والإيضاح، له: ٤/ ٢٨٢.

(٢) الإيضاح، للقزويني: ١/ ١٤٠.

(٣) المختصر على التلخيص، للتفتازاني: ١/ ١٤١.

(٤) الإيضاح، للقزويني: ١/ ٦٥.

(٥) المختصر على التلخيص، للتفتازاني: ١/ ١٣٢.

(٦) تاريخ ابن خلدون: ١/ ٨٠٢.

وهذا فيه تناقض، فالبلاغيون حينما عرفوا بلاغة الكلام بأنها مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، فمعنى ذلك أن أساليب البلاغة كلها داخلة في هذا التعريف، ويراعى فيها مطابقة مقتضى الحال، سواء منها ما تعلق بالمعاني أو البيان أو البديع. وإلا كيف يُدخل في البلاغة ما ليس منها؟!

ولما عرف القزويني (ت ٧٣٩هـ) علم المعاني بأنه ((علم يعرف به أحوال اللفظ العربي، التي بها يطابق مقتضى الحال))[١] تعقبه بعض البلاغيين بأن هذا التعريف يقصر المطابقة على المعاني دون فنون البيان والبديع. والقزويني (ت ٧٣٩هـ) فسر مقتضى الحال بالاعتبار المناسب. ولا شك أن فنون البيان والبديع إذا اقتضاها الحال بالاعتبار المناسب فهي داخلة فيه، كما ذكر الخطيبي (ت ٧٤٥هـ)[٢]. وقال المراغي (ت١٣٧١هـ): ((إن الثمرة المستفادة من علم المعاني -وهو معرفة أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال- تستفاد أيضًا من علم البيان والبديع؛ لأنا لا نعبر باستعارة ولا كناية إلا إذا اقتضاها المقام، فنوازن بين عدة تعبيرات، ونرى أنسبها للحال بمراعاة حال السامع أو السامعين، فنعبر به))[٣].

ومع تلك النظرة إلى المحسنات البديعية فإن ابن خلدون ينبه إلى أنه يصار إليها عفوًا من غير تكلف لها، ولا استكثار منها، فكلاهما عيب يستهجن في الكلام. كما أن ((تكلفها ومعاناتها يصير إلى الغفلة عن التراكيب الأصلية للكلام، فتخل بالإفادة من أصلها، و تذهب بالبلاغة رأسًا، ولا يبقى في الكلام إلا تلك التحسينات))[٤].

وأنكر على الذين يتكلفون البديع، حتى إنهم يخلون بالإعراب والتصريف من أجله، ويعلل فعلهم بقصورهم عن إعطاء الكلام حقه في مراعاة مقتضى الحال، فيجبرونه

---

(١) تلخيص المفتاح، للقزويني: ١٠.

(٢) ينظر: مفتاح تلخيص المفتاح، للخطيبي: ٧٠، وعروس الأفراح، للسبكي: ١/١٥٩.

(٣) تاريخ علوم البلاغة، للمراغي: ١١٥-١١٧، وكلام عبد القاهر تصرف فيه، وهو في دلائل الإعجاز: ٧٢-٧٣. وينظر: مقتضى الحال في الأسلوب القرآني، للطلحاوي: ٦٥-٦٨.

(٤) تاريخ ابن خلدون: ١/٨٠٢.

بالتزيين بالبديع. قال: ((وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم، وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال، فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده في البلاغة وانفساح خطوته. وولعوا بهذا المسجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعية، ويغفلون عما سوى ذلك. وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر أنحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد، حتى إنهم ليخلون بالإعراب في الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم في تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها، فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس، ويدعون الإعراب، ويفسدون بنية الكلمة، عساها تصادف التجنيس))[1].

وقد سبقه إلى هذا التنبيه جمع من البلاغيين والنقاد. فعبدالقاهر الجرجاني (٤٧١هـ) يرى أن مدار الحسن والقبح في المحسنات إنما هو على المعاني، قال: ((وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع، فلا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعاني خاصة، من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب، أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب))[2]، وقال بعد أن ذكر أمثلة للجناس المعيب الخالي من الفائدة، وأمثلة للحسن المشتمل عليها: ((تبين لك أن ما يعطي التجنيس من الفضيلة، أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن، ولما وجد فيه معيب مستهجن))[3]. وحتى القزويني (ت ٧٣٩هـ) قال في شأن المحسنات اللفظية: ((وأصل الحسن في جميع ذلك -أعني القسم اللفظي- كما قال الشيخ عبد القاهر، هو أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني، فإن المعاني إذا أرسلت على

---

(١) المرجع السابق: ٧٨٢/١-٧٨٣.

(٢) أسرار البلاغة: ٢٠.

(٣) أسرار البلاغة: ٨.

سجيتها وتركت وما تريد طلبت لأنفسها الألفاظ، ولم تكتس إلا ما يليق بها، فإن كان خلاف ذلك كان كما قال أبو الطيب:

إذا لَمْ تُشاهِدْ غيرَ حُسنِ شِياتِها وأعضائِها فالحُسنُ عَنكَ مُغَيَّبُ[1]

وقد يقع في كلام بعض المتأخرين ما حمل صاحبَه فرطُ شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم في البديع، على أن ينسى أنه يتكلم ليفهم، ويقول ليبين، ويخيل إليه أنه إذا جمع عدة من أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء، وأن يوقع السامع طلبه في خبط عشواء))[2].

ومع أن هذا التنبيه من القزويني وابن خلدون يعد جوهريًا مهمًا في النظر إلى المحسنات البديعية وتناولها، إلا أن تعريف علم البديع والطريقة العقلية في تناول المحسنات تؤدي إلى غير ما ذكر هنا[3].

ثالثًا: التأليف في علم البلاغة.

تناول ابن خلدون نشأة علم البلاغة، وعرض لتطور التأليف فيه من خلال هذه الإشارات الموجزة:

١- هذا العلم حادث في الملة بعد علمي اللغة والنحو.

٢- بدأ التأليف فيه بإملاءات غير وافية، كما هو عند جعفر بن يحيى (ت١٧٨هـ)، والجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، وقدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ)، وأمثالهم. ويرى ابن خلدون أن الجاحظ كان كتابه سببًا في تنبه الناس لموضوع علم البلاغة، وإفراده عن سائر العلوم، وتأليف الكتب فيه، بعد تأليفه كتاب "البيان والتبيين" الذي جمع فيه مسائل بلاغية كثيرة.

---

(١) ديوان المتنبي بشرحه "العرف الطيب" لليازجي: ٢/ ٣٣٧، وقال الشارح: ((الشيات: الألوان... يقول: إذا لم تر من الخيل إلا ما يظهر لك من حسن ألوانها وأعضائها فقد غابت معرفة حسنها عنك. يعني أن حسنها فيما وراء ذلك من جريها وطباعها)).

(٢) الإيضاح، للقزويني: ٤/ ٦٧، وكلام عبد القاهر في أسرار البلاغة: ٩ و١٤.

(٣) ينظر: رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين، للعليوي: ٦٠٦-٦١٠.

٣- كانت مسائله متفرقة في كتب النحو، فاستقرأها عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، وجمع منها.

٤- ثم جاء السكاكي (ت٦٢٦هـ) فمحض زبدته، وهذب مسائله، ورتب أبوابه، في كتابه "المفتاح" الذي جعل هذا الفن من بعض أجزائه.

٥- ثم أخذ المتأخرون هذا الفن من كتاب السكاكي (ت٦٢٦هـ)، ولخصوه في ملخصات متداولة، كما فعله الطيبي (ت٧٤٣هـ) في كتاب (التبيان)، وابن مالك (ت٦٨٦هـ) في كتاب (المصباح)، وجلال الدين القزويني (ت ٧٣٩هـ) في كتاب (التلخيص)، والعناية بالأخير عند أهل المشرق في الشرح والتعليم أكثر من غيره[1].

هذه إشارات سريعة كما جاءت عند ابن خلدون في الحديث عن تطور علم البلاغة، وللتوسع في نشأة العلم يرجع إلى ما كتبه المحدثون فيها[2]، لكني أتوقف عند ما ذكره ابن خلدون من تأليف جعفر بن يحيى (١٧٨هـ) في البلاغة، فإن جعفراً معدود من ذوي الفصاحة والبلاغة، إلا أني لم أجد من ذكر له تأليفاً في البلاغة، وإن كان نُقل عنه إشارات بلاغية[3].

ولحظ ابن خلدون أن ((المشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة))، ويعلل ذلك بأمرين:

الأول: ((أنه -فن البلاغة- كمالي في العلوم اللسانية، والصنائع الكمالية توجد في وفور العمران، والمشرق أوفر عمراناً من المغرب)).

الثاني: ((لعناية العجم -وهم معظم أهل المشرق- بتفسير الزمخشري، وهو كله مبني على هذا الفن، وهو أصله))[4].

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ٧٦١/١-٧٦٢.

(٢) ينظر على سبيل المثال: البيان العربي، للدكتور بدوي طبانة، والبلاغة تطور وتاريخ، للدكتور شوقي ضيف.

(٣) ينظر: البيان والتبيين، للجاحظ: ١/ ١٠٥، ١٠٦، ١١١، ١١٥، والعمدة، لابن رشيق: ٢٤٢/١.

(٤) تاريخ ابن خلدون: ٧٦٢/١.

وأما المغاربة فكانت عنايتهم أكثر بعلم البديع خاصة ((وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية، وفرعوا له ألقابًا، وعددوا أبوابًا، و نوّعوا أنواعًا، وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب... و ممن ألف في البديع من أهل أفريقية: ابن رشيق، وكتاب "العمدة" له مشهور، وجرى كثير من أهل أفريقية والأندلس على منحاه)). ويرى ابن خلدون أن الذي حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ، وعلم البديع سهل المأخذ، وهم صعبت عليهم مآخذ المعاني والبيان؛ لدقة أنظارهما وغموض معانيهما، فتجافوا عنهما[1].

وهذا حكم أغلبي، وإلا فالمؤلفات البلاغية التي وصلتنا من علماء المغرب تناولت أساليب البيان والمعاني مع البديع، وإن سمي بعضها بـ"البديع". وقد ذكر القزويني (ت ٧٣٩هـ) أن بعضهم يسمي علوم البلاغة: علم البديع، وعلل ابن يعقوب المغربي (ت ١١٢٨هـ) ذلك بأن البديع هو الشيء الذي يستحسن؛ لظرافته وغرابته وعدم وجود مثاله من جنسه، وهذه العلوم كذلك[2]. زاد الدسوقي (ت ١٢٣٠هـ): ((أو لأنه يعرف بها أمور مبتدعة بالنسبة إلى تأدية أصل المراد الذي يعرفه الخاصة والعامة))[3].

ومصطلح "البديع" في التأليف البلاغي بدأ مبكرًا، ولم يكن منفكًا عن الدلالة اللغوية[4]، فكان يطلق على ما أحدثه الشعراء من فنون بلاغية وصور بيانية، ادعي أنهم استحدثوها.

وألف بعض النقاد كتبًا في إثبات سبق المتقدمين لهذه الأساليب والصور، وإن كانت كثرت عند المتأخرين، كما فعل ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) في كتابه (البديع)، وهو أول مؤلف يصل إلينا باسم (البديع)، تناول فيه جملة من فنون البلاغة المتنوعة التي لا يختص بها

---

(١) المرجع السابق.

(٢) ينظر: مواهب الفتاح، لابن يعقوب: ١/١٥١.

(٣) حاشية الدسوقي على شرح السعد: ١/١٥١.

(٤) ترد المادة (ب د ع) في اللغة دالة على معاني: الجدة، والحداثة، والاختراع لما لم يكن، والعَجَب، وبلوغ الغاية في الشيء. ينظر: لسان العرب، لابن منظور: ٨/٦.

(علم البديع). ثم توالت المؤلفات بعد ابن المعتز في فنون البلاغة، ومنها ما يحمل اسم (البديع). مما يعني أن هذا المصطلح يتناول فنون البلاغة جميعًا.

ومن المؤلفات المغربية التي حملت اسم "البديع" أو تعلقت به: "البديعية" لشرف الدين التيفاشي (ت٦٥١هـ). و"المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع" للقاسم السجلماسي (بعد ٧٠٤هـ). و"الروض المريع في صناعة البديع" لابن البناء العددي (ت٧٢١هـ). و"أنوار التجلي على ما تضمنته قصيدة الحلي" لأبي محمد الفاسي (ت ٧٨٩هـ). وهو شرح لبديعية صفي الدين الحلي (ت٧٥٠هـ).

وهذه المؤلفات ليست مختصة بـ"علم البديع". بل تناولت أساليب البلاغة على اختلاف علومها.

ومن المؤلفات المغربية التي اختصت بالبلاغة أو عنيت به: "العمدة" لابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ). و"التنبيهات على ما في التبيان من التمويهات" لابن عميرة (ت٦٥٨هـ). وكتابه ألفه ردًا مختصرًا على كتاب الزملكاني "التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن". و"منهاج البلغاء وسراج الأدباء" لحازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ). و"ضوء الصباح على ترجيز المصباح" لابن أبي زيد المراكشي (ت٨٠٧هـ).

وإنما ذكرت المؤلفات التي سبقت وفاة ابن خلدون عام (٨٠٨هـ).

ومع أن تلكم المؤلفات لها شأن وأثر في التأليف البلاغي في المغرب والمشرق، إلا أنها قليلة بالنسبة إلى التأليف البلاغي في المشرق. لكنها تشهد بعناية المغرب بالبلاغة وفنونها. إلا أن العناية أكثر –كما ذكر ابن خلدون– لفنون البديع. وهو رأي انتهى إليه الدكتور عبدالله المفلح بعد دراسته "البحث البلاغي في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن الهجريين". فذكر من نتائج الدراسة: ((لم يكن حرص المغاربة على علمي المعاني والبيان كحرصهم على علم البديع. فقد درسوا فنونًا كثيرة منه. وأعطوها اهتمامًا بالشرح والتحليل والتقسيم أكثر من غيرها))[1].

---

(١) البحث البلاغي في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن الهجريين. لعبدالله المفلح. رسالة "ماجستير" لم تنشر: ٣٢٣.

المبحث الرابع:

الحاجة إلى علم البلاغة

تناول ابن خلدون في مواضع متفرقة أهمية علم البلاغة وثمرته وصلته ببعض العلوم مما يبين حاجة أهلها إليه، ومن ذلك:

١- فهم الإعجاز القرآني.

تعد بلاغة القرآن من أعظم وجوه الإعجاز. ويكاد هذا الوجه يكون هو مناط التحدي في إعجاز القرآن الكريم؛ لجريانه في جميع القرآن سوره وآياته، بخلاف الوجوه الأخرى فإنها تظهر في بعضه دون بعض.

ولقد عني علماء الإعجاز بهذا الوجه أكثر من غيره، واهتموا به، فدونوا في مؤلفاتهم كثيرًا من الأساليب والملحوظات والأفكار البلاغية، حتى أصبح معظم الكتب المؤلفة في الإعجاز القرآني مصادر بلاغية، كرسالة الخطابي (ت ٣٨٨هـ) في إعجاز القرآن، و"النكت في إعجاز القرآن" للرماني (ت ٣٨٤هـ)، و"إعجاز القرآن" للباقلاني (ت٤٠٣هـ)، و"البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن" للزملكاني (ت٦٥١هـ)، وغيرها من الكتب.

ثم صار البلاغيون يؤلفون مؤلفاتهم البلاغية لتكون وسيلة لفهم الإعجاز القرآني، كما تدل عليه عناوين هذه المؤلفات: "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، و"نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" للفخر الرازي (ت٦٠٦هـ)، و"الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز" للعلوي (ت ٧٤٩هـ)، وغيرها من المؤلفات[1].

وابن خلدون في مقدمة تاريخه يقرر أن إعجاز القرآن في بلاغته، التي بلغت الغاية في مطابقة مقتضى الحال. ولكي يدرك المرء شيئًا من الإعجاز القرآني فهو محتاج إلى اكتساب البلاغة وتعلمها. ويكاد ابن خلدون يقصر ثمرة علم البلاغة على فهمه، قال: ((اعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن؛ لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكمال مع الكلام

---

(١) ينظر: التوجيه البلاغي لآيات العقيدة، للعليوي: ٢٢-٢٣.

فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها. وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه. وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته. فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه))[1].

وقد يظن ظان أن ابن خلدون يقول بالإعجاز بـ"الصرفة" في قوله: ((أما أهل أفريقية والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة. وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة؛ لما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله. فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه. والاحتذاء بها))[2].

و"الصرفة" التي جعلها بعض المعتزلة وجهًا لإعجاز القرآن تعني أن الخلق يقدرون على الإتيان بمثله إلا أن الله صرفهم عن ذلك. وهو قول باطل[3].

وابن خلدون صرح في قوله السابق أن الإعجاز في بلاغته، وليس في قوله اللاحق تصريح بأن الإعجاز بالصرفة. مما يدل على أن مقصود ابن خلدون بقوله: (مصروفون) أي أنهم يعجزون عن الإتيان بمثله. وهذا ما يفيده سياق كلامه. والله أعلم.

٢- تفسير القرآن الكريم.

يبين ابن خلدون سبب الحاجة إلى علم البلاغة في تفسير القرآن الكريم. قال: ((اعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم. فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه... ثم صارت علوم اللسان صناعية من الكلام في موضوعات اللغة وأحكام الإعراب والبلاغة في التراكيب، فوضعت الدواوين في ذلك بعد أن كانت ملكات للعرب، لا يرجع فيها إلى نقل ولا كتاب. فتنوسي ذلك وصارت تتلقى من كتب أهل اللسان. فاحتيج إلى ذلك في تفسير القرآن؛ لأنه بلسان العرب وعلى منهاج

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ٧٦٢/١.

(٢) المرجع السابق: ٧٤١/١.

(٣) ينظر في الصرفة، وبيان بطلانها: القول بالصرفة في إعجاز القرآن عرض ونقد، للدكتور عبدالرحمن الشهري.

بلاغتهم))[١]. وفي حديثه عن أصناف العلوم وترتيب النظر فيها قال: ((النظر في القرآن والحديث لا بد أن تتقدمه العلوم اللسانية؛ لأنه متوقف عليها))[٢].

ولهذه الثمرة والتي قبلها يرى ابن خلدون أن المفسرين هم ((أحوج ما يكون إلى هذا الفن))[٣].

وأشار إلى أن أكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه، حتى ألف الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) تفسيره "الكشاف" وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن بما يبدي البعض من إعجازه. وأنه انفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير[٤].

إلا أن هذا الفضل لم يخل منه من سبق الزمخشري في تفسير القرآن الكريم، كأبي جعفر الطبري (٣١٠هـ) في تفسيره: جامع البيان في تأويل آي القرآن.

ونبه ابن خلدون إلى أن الزمخشري ((من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة، حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة))[٥]. وحذر من النظر في كتابه ما لم يكن الناظر ممن ((أحكم عقائد السنة، وشارك في هذا الفن بعض المشاركة، حتى يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه، أو يعلم أنه بدعة، فيعرض عنها، ولا تضر في معتقده؛ فإنه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب للظفر بشيء من الإعجاز، مع السلامة من البدع و الأهواء))[٦].

٣- **استنباط الأحكام الشرعية.**

وهذا من حاجة الفقيه، وقد نبه ابن خلدون في أكثر من موضع إلى أهمية البلاغة للفقيه في استنباط الأحكام الشرعية من القرآن والحديث، فبعد أن عقد فصلاً (في

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ١/٥٥٣-٥٥٤.

(٢) المرجع السابق: ١/٥٥٠.

(٣) المرجع السابق: ١/٧٦٢.

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق: ١/٥٥٥-٥٥٦.

(٦) المرجع السابق: ١/٧٦٣.

علوم اللسان العربي) وذكر منها البيان (البلاغة) قال: ((ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة؛ إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها في الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغاتهم، فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة))[1]. وفي حديثه عن الفقه وأصوله ذكر الحاجة إلى علوم النحو والتصريف والبيان وقال: ((حين كان اللسان ملكة لأهله لم تكن هذه علوماً ولا قوانين، ولم يكن الفقه حينئذ يحتاج إليها؛ لأنها جبلة وملكة، فلما فسدت الملكة في لسان العرب قيدها الجهابذة المتجردون لذلك بنقل صحيح ومقاييس مستنبطة صحيحة، وصارت علوماً يحتاج إليها الفقيه في معرفة أحكام الله تعالى))[2].

٤- حاجة الكتّاب والموقِّعين.

في حديثه عن "ديوان الرسائل والكتابة" عرض ابن خلدون إلى حاجة الكتاب إلى البلاغة، وبين ابتداءً أن وظيفة الديوان في الملك غير ضرورية، ((وإنما أكد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد، فصار الكتاب يؤدي كنه الحاجة بما بلغ من العبارة اللسانية في الأكثر))[3].

كما تناول من أنواع الكتابة عند السلطان: التوقيع، وبين المقصود به قائلاً: ((هو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها، متلقاة من السلطان، بأوجز لفظ وأبلغه))[4]. ثم ذكر حاجة الموقع إلى البلاغة فقال: ((ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه، وقد كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد، ويرمي بالقصة إلى صاحبها، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها؛ للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها، حتى قيل: إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار، وهكذا كان شأن

---

(١) المرجع السابق: ١/٧٥٣.

(٢) المرجع السابق: ١/٧٥٧.

(٣) المرجع السابق: ١/٣٠٦.

(٤) المرجع السابق.

الدول. و اعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد من أن يتخير أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة، فإنه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم، من أمثال ذلك ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل، مع ما يضطر إليه في الترسيل، وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها))[١].

٥- **التأثير في المخاطَب.**

إذا كان المتكلم يقصد بخطابه ((أن يفيد سامعه ما في ضميره إفادة تامة، ويدل به عليه دلالة وثيقة)) كما قال[٢]. وإذا كان ((الكلام الذي هو العبارة والخطاب، إنما سره وروحه في إفادة المعنى، وأما إذا كان مهملاً فهو كالموات الذي لا عبرة به، وكمال الإفادة هو البلاغة))[٣] فإن المتكلم -أي متكلم- محتاج إلى اكتساب البلاغة وتعلمها؛ ليحقق بذلك البلاغة التي تثمر ((إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ))[٤]، فيكون خطابه أوقع وأقنع وأمتع، وبذلك يحصل كمال الإفادة التي يراها ابن خلدون سر البلاغة وروح الخطاب، وقد قال الباقلاني (ت٤٠٣هـ): ((إذا علا الكلام في نفسه كان له من الوقع في القلوب والتمكن في النفوس ما يذهل ويبهج، ويقلق ويؤنس، ويطمع ويؤيس، ويضحك ويبكي، ويحزن ويفرح، ويسكن ويزعج، ويشجي ويطرب، ويهز الأعطاف، ويستميل نحوه الأسماع، ويورث الأريحية والعزة، وقد يبعث على بذل المهج والأموال شجاعة وجودًا، ويرمي السامع من وراء رأيه مرمى بعيدًا، وله مسالك في النفوس لطيفة، ومداخل إلى القلوب دقيقة، وبحسب ما يترتب في نظمه، ويتنزل في موقعه، ويجري على سمت مطلعه ومقطعه، يكون عجيب تأثيراته وبديع مقتضياته))[٥].

---

(١) المرجع السابق: ٣٠٦/١-٣٠٧.

(٢) المرجع السابق: ٨٠٠/١.

(٣) المرجع السابق: ٧٩٩/١.

(٤) النكت في إعجاز القرآن، للرماني: ٧٥.

(٥) إعجاز القرآن، للباقلاني: ٤١٩.

المبحث الخامس:

الخصائص الأسلوبية للفنون الأدبية

من القضايا التي أثارها ابن خلدون: الخصائص الأسلوبية للفنون الأدبية، من شعر، ونثر، والتمايز والتداخل فيما بينها.

وهو يرى أن لكل فن أساليب يختص بها ويتميز دون غيره، قال بعد أن ذكر جملة من فنون الشعر والنثر: ((واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله، ولا تصلح للفن الآخر، ولا تستعمل فيه))[1]، وقال في موضع آخر: ((إن لكل فن من الكلام أساليب تختص به، وتوجد فيه على أنحاء مختلفة، فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول... ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال... أو باستبكاء الصحب على الطلل... أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين... ومثل تحية الطلول بالأمر لمخاطب غير معين بتحيتها... أو بالدعاء لها بالسقيا... أو سؤاله السقيا لها من البرق... أو مثل التفجع في الجزع باستدعاء البكاء... أو باستعظام الحادث... أو بالتسجيل على الأكوان بالمصيبة لفقده... أو بالإنكار على من لم يتفجع له من الجمادات... أو بتهنئة قريعه بالراحة من ثقل وطأته))[2]، وهذا استقصاء من ابن خلدون يدل على قدرة عالية على البحث والاستقراء.

ويرى أن الشعر مبني على الاستعارة والأوصاف، فإذا خلا منها فإنه في الغالب ليس بشعر. ويرى أن الكلام المرسل الذي لم يقيد بسجع ولا غيره يستعمل في الخطب والدعاء والمخاطبات السلطانية وترغيب الجمهور وترهيبهم. وأن النسيب يختص بالشعر، والحمد يكون في الخطب، والدعاء يكون في الخطب وفي المخاطبات (الرسائل)[3].

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ٧٨١/١.

(٢) المرجع السابق: ٧٨٦/١-٧٨٧.

(٣) ينظر: المرجع السابق: ٧٨١/١، ٧٨٢، ٧٨٩.

وينكر على من تتداخل عنده الفنون فيستعمل خصائص فن في فن آخر، منطلقًا من القاعدة البلاغية: مراعاة مقتضى الحال. قال: ((وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور، من كثرة الأسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الأغراض. وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه، ولم يفترقا إلا في الوزن. واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة، واستعملوها في المخاطبات السلطانية، وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه، وخلطوا الأساليب فيه، وهجروا المرسل وتناسوه، وخصوصًا أهل المشرق. وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الأسلوب الذي أشرنا إليه، وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطب والمخاطب. وهذا الفن المنثور المقفى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر فوجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه إذ أساليب الشعر تنافيها اللوذعية وخلط الجد بالهزل والإطناب في الأوصاف وضرب الأمثال وكثرة التشبيهات والاستعارات، حيث لا تدعو ضرورة إلى ذلك في الخطاب. والتزام التقفية أيضًا من اللوذعة والتزيين وجلال الملك والسلطان وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافي ذلك ويباينه))(1).

وعلى هذا فإن نوع الفن الأدبي يعد موجهًا للأديب في صياغة أدبه واختيار أساليبه، وهو بذلك حال من الأحوال التي يراعيها المتكلم، كما يراعيها الناقد في نقده.

وقد نقد بعض الباحثين عدم تعرض البلاغيين المتأخرين لمراعاة مقتضى الحال في فنون القول، فقال الدكتور فتحي فريد: ((من وجوه الضيق أيضًا في تفسير البلاغيين المتأخرين لموضوع البلاغة، وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، عدم اتساع ذلك التفسير واشتماله لوجوه القول المتنوعة من شعر وخطابة وحوار وكتابة وغيرها، مما أوحى بضيق البلاغة وعزلتها، وأوهم انحصارها في علومها الثلاثة، ولا سيما علم

---

(1) المرجع السابق: ٧٨١/١-٧٨٢.

المعاني الذي يبحث في وجوه المطابقة لمقتض الحال. ولما كانت البلاغة وثيقة التعلق بالأدب كما عرفت، والأدب متنوع الفنون، ولكل فن ما يناسبه من ألفاظ وأفكار وموضوعات، فكان ضروريًا أن يتضمن تفسير البلاغيين لموضوع البلاغة الأحوال التي تخص كل فن من فنون الأدب، وما يناسب تلك الأحوال))[1].

وهذه القضية أشار إليها البلاغيون والنقاد من قبل، فقد ذكر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) أن ابن المقفع (ت ١٤٢هـ) سئل عن البلاغة فقال: ((البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابًا، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها ما يكون سجعًا وخطبًا، ومنها ما يكون رسائل)) ثم أشار إلى ما تشترك فيه من خصائص بلاغية وما تختلف فيه، فقال: ((فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة. فأما الخطب بين السماطين وفي إصلاح ذات البين فالإكثار في غير خطل، والإطالة في غير إملال))[2].

وللجاحظ (ت ٢٥٥هـ) في كتابه "البيان والتبيين" اهتمام بفنون القول من شعر وخطابة ورسائل، وإشارات إلى خصائصها والتمايز بينها[3].

ونجد وضوحًا لهذه القضية في كتاب "البرهان في وجوه البيان" لابن وهب الكاتب (ت ٣٣٥هـ)، فقد عقد أبوابًا في فنون الكلام، تناول فيها أجناس الشعر والنثر، وما تشترك فيه، وما تختص به، ومما قال: ((اعلم أن سائر العبارة في كلام العرب إما أن يكون منظومًا، وإما أن يكون منثورًا، والمنظوم هو الشعر، والمنثور هو الكلام.

فالشعر ينقسم أقسامًا، منها: القصيد... ومنها: الرجز... ومنها: المسمَّط... ومنها: المزدوج...))[4]. ((وللشعراء فنون من الشعر كثيرة، تجمعها في الأصل أصناف أربعة:

---

(١) المدخل إلى دراسة البلاغة، لفتحي فريد: ١١١. وينظر: رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين، للعليوي: ١٥٠.

(٢) البيان والتبيين، للجاحظ: ١/١١٦.

(٣) المرجع السابق: ٤/١٠٧-١٠٩.

(٤) البرهان في وجوه البيان، لابن وهب: ١٦٠-١٦١.

المديح، والهجاء، والحكمة، واللهو. ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون...))[1]. ((وأما المنثور فليس يخلو من أن يكون خطابة، أو ترسلاً، أو احتجاجًا، أو حديثًا. ولكل واحد من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه... وقد ذكرنا المعاني التي يصير بها الشعر حسنًا وبالجودة موصوفًا، والمعاني التي يصير بها قبيحًا مرذولاً... فكل ما ذكرناه هناك من أوصاف جيد الشعر فاستعمله في الخطابة والترسل. وكل ما قلناه من معايبه فتجنبه هاهنا. ثم إنه يخص الخطابة والترسل أشياء، نحن نذكرها...))[2].

ونقل أبو حيان التوحيدي (ت نحو ٤٠٠هـ) عن شيخه أبي سليمان محمد بن طاهر السجستاني المنطقي (ت نحو ٣٨٠هـ) تفريقه في البلاغة بين فنون الأدب وأنواع الكلام، قال: ((البلاغة ضروب: فمنها بلاغة الشعر، ومنها بلاغة الخطابة، ومنها بلاغة النثر، ومنها بلاغة المثل، ومنها بلاغة العقل، ومنها بلاغة البديهة، ومنها بلاغة التأويل)). ثم بيّن ما تختص به كل بلاغة منها[3].

وأبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) ألف كتابه "الصناعتين"، وجعله ((مشتملاً على جميع ما يُحتاج إليه في صنعة الكلام: نثره ونظمه، ويستعمل في محلوله ومعقوده))[4]. ويدلك عنوانه وهدفه على إرادة التمييز بين النظم والنثر. وفي الباب الثالث منه تحدث عن (معرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ) وتناول في فصلين ما يختص به النظم، وما تختص به أنواع النثر من الخطب، والرسائل على اختلاف أنواعها. وجعل الفصل الأول (في كيفية نظم الكلام، والقول في فضيلة الشعر، وما ينبغي استعماله في تأليفه). والفصل الثاني (فيما يحتاج الكاتب إلى ارتسامه وامتثاله في مكاتباته).

---

(١) المرجع السابق: ١٧٠.

(٢) المرجع السابق: ١٩١-١٩٢.

(٣) الإمتاع والمؤانسة، للتوحيدي: ٢/ ١٤٠-١٤٣.

(٤) كتاب الصناعتين، للعسكري: ١.

وابن أبي الإصبع (ت٦٥٤هـ) يؤلف كتابه "تحرير التحبير"، الذي جمع فيه محاسن الكلام وفنون البديع التي ذكرها من سبقه من العلماء، وزاد عليها. وذكر أن منها ما يخص الشعر، ومنها ما يخص النثر، ومنها ما يعمهما وكتاب الله ﷻ[١].

وضياء الدين ابن الأثير (ت٦٣٧هـ) يؤلف كتابه "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" وهو ككتاب "الصناعتين" في عنوانه، يدلك على تمييز أدب الكاتب عن أدب الشاعر. وقد ختم كتابه في (الفرق بين الكتابة والشعر)[٢]، كما أشار إلى الفرق بين المكاتبات والمقامات، دفعه إلى ذلك حديثه عن اختلاف الأدباء في الإجادة في أغراض الشعر وأنواع النثر، وأن الحريري كان صاحب مقامات ولم يكن صاحب مكاتبات[٣].

وقد اختصت بعض مؤلفات الأقدمين بالحديث عن الشعر وخصائصه ونقده، وأخرى بالحديث عن الكتابة وخصائصها وآدابها. ففي الشعر من المؤلفات: "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي (ت٢٣١هـ)، و"الشعر والشعراء" لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، و"عيار الشعر" لابن طباطبا (ت٣٢٢هـ)، و"نقد الشعر" لقدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ)، و"العمدة في محاسن الشعر وآدابه" لابن رشيق (ت٤٥٦هـ). وفي الكتابة من المؤلفات: "أدب الكاتب" لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، و"أدب الكتّاب" للصولي (ت ٣٣٥هـ)، و"مواد البيان" لعلي بن خلف الكاتب (ق٥)، و"قانون ديوان الرسائل" لعلي بن منجب الصيرفي (ت٥٤٢هـ)، و"إحكام صنعة الكلام" للكلاعي (ق٦)، على أن كثيرًا مما في هذه المؤلفات لا يتحدث عن الخصائص الأسلوبية، لكنه يتناولها.

وسؤال التمايز بين الأجناس الأدبية مطروح في التراث العربي، وقد ذكر ابن الأثير أنه وقف على كلام لأبي إسحق الصابي في الفرق بين الكتابة والشعر، قال: ((وهو جواب لسائل سأله))[٤]. والمرزوقي (ت٤٢١هـ) في مقدمة شرحه لحماسة أبي تمام، قال: ((ثم

---

(١) تحرير التحبير، لابن أبي الإصبع: ٩٥.

(٢) المثل السائر، لابن الأثير: ٤/٥.

(٣) المرجع السابق: ١/٣٨-٣٩.

(٤) المرجع السابق: ٤/٥.

سألتني عن شرائط الاختيار فيه [يعني: الشعر]. وعما يتميز به النظم عن النثر... ولماذا كان أكثر المترسلين لا يفلقون في قرض الشعر؟ وأكثر الشعراء لا يبرعون في إنشاء الكتب؟... ونظام البلاغة يتساوى في أكثره المنظوم والمنثور))[1].

وتتنوع معايير التمييز بين أجناس الأدب في التراث العربي، بين الأساليب البلاغية، والصياغة اللغوية، وبنية النص، والطول والقصر، والوظائف، والأغراض، والموضوعات، والأدوات والآلات التي يحتاج إليها كل من الشاعر والكاتب.

ولو استقرأنا حديث البلاغيين والنقاد المتقدمين في خصائص "الأجناس الأدبية" لطال بنا المقام، وهو حديث يحتاج إلى عناية وتتبع وتصنيف.

وإن كان المحدثون لهم عناية بهذه القضية -الأنواع الأدبية- والخصائص البلاغية والأسلوبية والبنائية التي يتميز بها كل نوع، وما يتعلق بهذه القضية من تساؤلات حول نشأة الأنواع وأزليتها وثباتها وتحولها ووحدتها وتداخلها وأسباب تنوعها وكيفية دراستها، وغير ذلك، خاصة مع تنوع الأجناس الأدبية والأساليب الإبداعية وسرعة تطورها وتحولها، في زمن أصبحت الحرية والتغيير والثورة لغة ثقافية سائدة، وقد تأثر الدارسون العرب في ذلك بالنقد الغربي الذي عني بهذه القضية منذ زمن ما بين مؤيد وناقد، حتى صار ما يعرف بنظرية الأنواع الأدبية (الفنون الأدبية، الأجناس الأدبية، تجنيس الأدب)[2].

* * *

---

(1) شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي: ٣/١، ٥.

(2) ينظر من الدراسات التي تناولت تجنيس الأدب: "الأدب وفنونه" لمحمد مندور، و"النقد الأدبي الحديث" لمحمد غنيمي هلال، و"الأدب وفنونه" لعز الدين إسماعيل، و"مقدمة في نظرية الأدب" لعبد المنعم تليمة، و"نظرية الأنواع الأدبية في النقد العربي" لموسى محمد خير الشيخ، و"مقدمات في نظرية الأنواع الأدبية" لرشيد يحياوي، ومن الكتب المترجمة: "ما الجنس الأدبي؟" لجان ماري شيفر، ترجمة: د. غسان السيد، و"نظرية الأنواع الأدبية" لفانسان، ترجمة: عبدالرزاق الأصفر، و"نظرية الأنواع الأدبية" لفينيست، ترجمة: د. حسن عون.

الخاتمة:

تناول البحث القضايا البلاغية التي تناولها ابن خلدون في مقدمته، وقد تناول من القضايا: مفهوم البلاغة، وعلاقة الفصاحة بها، ووظيفتها، والملكة البلاغية: فائدتها، واكتسابها، وعلم البلاغة والتأليف فيه، والحاجة إلى علم البلاغة، والخصائص الأسلوبية للفنون الأدبية.

وقد جرى ابن خلدون في مفهومها على ما استقر عليه البلاغيون، من أن حقيقة البلاغة تكون في مطابقة الكلام لمقتضى الحال. ويعلي ابن خلدون شأن البلاغة بهذا المفهوم، ويعدها أصل الكلام العربي وسجيته وروحه وطبيعته.

ويعد من أوائل من تحدث عن الملكة اللسانية، وفصل القول فيها، حتى عُدّ المؤسس الحقيقي لنظرية الملكة اللسانية، وليس المُحْدَثون.

ويرى أن حصول الملكة البلاغية له فائدتان: الأولى: القدرة على التكلم بأساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم؛ للتأثير في المخاطب. والثانية: البصر ببلاغة الكلام وصوابه، والقدرة على نقده وتمييز حسنه من رديئه.

ويقرر أن حصول الملكة البلاغية واكتسابها أمر ممكن شأن سائر الملكات.

ويحدد وسائل اكتساب الملكة البلاغية في وسيلتين: الأولى: كثرة الحفظ والاستماع للكلام البليغ الجاري على أساليب العرب. والثانية: كثرة استعمال الكلام البليغ وتكراره، والتعبير على نحو ما حفظه منه.

ويرى أن الملكة البلاغية لا تحصل إلا للعربي، أو لأعجمي النسب، لكنه نشأ بين العرب وتعلم منهم، أما الأعجمي الذي تمكن من لغة قومه وحصل ملكتها فالغالب أنه لا يحصل له الذوق في بلاغة العرب.

وأشار إلى أهمية اكتساب الملكة من الصغر.

ويفرق بين تحصيل الملكة البلاغية وتحصيل علم البلاغة، ويقرر أن تحصيل العلم بقواعده وقوانينه لا يلزم منه تحصيل الملكة، كما أن الملكة البلاغية تحصل من دون

تحصيل علومها. لكنه يبين أن الملكة وإن كانت تفيد صاحبها البصر ببلاغة الكلام، ونقده، إلا أن هذا نقد انطباعي، قد يعجز صاحبه عن الاستدلال له إلا بتحصيل العلم.

وتناول ابن خلدون علوم البلاغة، والتأليف فيها، وليس في كثير مما ذكره بجديد، بل كرر ما ذكره بعض من سبقه من البلاغيين. فهو يرى أن علمي المعاني والبيان هما جزء البلاغة، وبهما كمال الإفادة، وأما علم البديع فهو تابع لهما وملحق بهما، فينظر فيه بعد كمال الإفادة. لكنه ينبه إلى أنه يصار إلى المحسنات البديعية عفوًا من غير تكلف لها، ولا استكثار منها، فكلاهما عيب يستهجن في الكلام. وأنكر على الذين يتكلفون البديع، حتى إنهم يخلون بالإعراب والتصريف من أجله.

ولحظ أن المشارقة على فن البلاغة أقوم من المغاربة، وأما المغاربة فكانت عنايتهم أكثر بفنون البديع خاصة.

وتناول أهمية علم البلاغة وثمرته وصلته ببعض العلوم مما يبين حاجة أهلها إليه، ومن ذلك: فهم الإعجاز القرآني، وتفسير القرآن الكريم، واستنباط الأحكام الشرعية، وحاجة الكتّاب والموقِّعين، والتأثير في المخاطَب.

وفي هذا السياق نبه إلى أن بعض المفسرين كالزمخشري يستثمر أساليب البلاغة في الانتصار لمذهبه الاعتزالي.

ومن القضايا التي أثارها ابن خلدون: الخصائص الأسلوبية للفنون الأدبية، من شعر، ونثر، والتمايز والتداخل فيما بينها، وهو يرى أن لكل فن أساليب يختص بها ويتميز دون غيره، وهو بذلك يمثل امتدادًا لطرح هذه القضية في التراث البلاغي والنقدي.

هذا عرض موجز لجملة القضايا التي عرض لها ابن خلدون في مقدمته وتناولها البحث، وبعض هذه القضايا تحتاج إلى مزيد من العناية والدراسة، كقضية الخصائص البلاغية والأسلوبية لأنواع الكلام وفنون الأدب في التراث البلاغي والنقدي.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

ثبت المراجع:

١- ابن خلدون وليس تشومسكي المؤسس الحقيقي لنظرية الملكة اللسانية، للدكتور سعود السبيعي، بحث في مجلة جامعة أم القرى، السنة الثامنة، العدد العاشر، ١٤١٥هـ.

٢- أثر تعلم القرآن الكريم في اكتساب الملكة اللسانية، ليوسف العليوي، بحث ضمن السجل العلمي للملتقى الثالث للجمعيات الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم، إصدار الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمنطقة الرياض، ١٤٢٨هـ.

٣- أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، دار المدني، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٤- إعجاز القرآن، للباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، د.ت.

٥- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق: د.قصي الحسين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٦- الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، د.ت.

٧- إنباء الغمر بأبناء العمر، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. حسن حبشي، نشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٤١٩هـ.

٨- الإيضاح، للقزويني، ضمن شروح التلخيص، دار السرور، بيروت، د.ت.

٩- البحث البلاغي في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن الهجريين، لعبدالله المفلح، رسالة "ماجستير" غير منشورة، قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٧هـ.

١٠- البرهان في وجوه البيان، لابن وهب الكاتب، تحقيق: د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٨٧هـ.

١١- البلاغة والفصاحة، للدكتور محمد جابر فياض، دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

١٢- البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ.

١٣- تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، المطبعة الخيرية، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٠٦هـ.

١٤- تاريخ ابن خلدون "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، لعبد الرحمن بن خلدون، ضبط: خليل شحادة، مراجعة: د. سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٤٢١هـ.

١٥- تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، للمراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٦٩هـ.

١٦- تحرير التحبير، لابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: د. حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، الجمهورية العربية المتحدة، د.ت.

١٧- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغربًا، لابن خلدون، مذيلاً بتاريخه= تاريخ ابن خلدون.

١٨- التعريفات، للجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

١٩- تلخيص المفتاح، للخطيب القزويني، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٢٠- التوجيه البلاغي لآيات العقيدة، ليوسف العليوي، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

٢١- جوهر الكنز، لنجم الدين ابن الأثير، تحقيق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت.

٢٢- حاشية الدسوقي على مختصر السعد، ضمن شروح التلخيص، دار السرور، بيروت، د.ت.

٢٣- حسن التوسل إلى صناعة الترسل، لشهاب الدين الحلبي، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠م.

٢٤- درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، للمقريزي، تحقيق: محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٢٥- دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.

٢٦- ديوان المتنبي بشرحه "العرف الطيب"، شرح: ناصيف اليازجي، دار صادر، بيروت، د.ت.

٢٧- رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين، للدكتور يوسف العليوي، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.

٢٨- زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج بن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.

٢٩- سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي، تحقيق: علي فودة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

٣٠- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.

٣١- شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي، تحقيق: أحمد أمين وعبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٣٢- صحيح البخاري، للإمام البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.

٣٣- صحيح مسلم، للإمام مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، تركيا، الطبعة الأولى، ١٣٧٤هـ.

٣٤- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٣٥- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة العلوي، مطبعة المقتطف، مصر، ١٣٣٢هـ.

٣٦- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين السبكي، ضمن شروح التلخيص، دار السرور، بيروت، د.ت.

٣٧- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ.

٣٨- كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، مطبعة محمود بك في الأستانة، الطبعة الأولى، ١٣٢٠هـ.

٣٩- كيف تغدو فصيحًا عف اللسان؟، للدكتور محمد حسن الطيان، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٤٠- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، د.ت.

٤١- المثل السائر، لضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٤٢- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي، تحقيق: عبد الله الدرويش، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ.

٤٣- المجمع المؤسس في المعجم المفهرس. لابن حجر. تحقيق: د. يوسف المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
٤٤- المختصر على تلخيص المفتاح. لسعد الدين التفتازاني. ضمن شروح التلخيص. دار السرور. بيروت. د.ت.
٤٥- المدخل إلى دراسة البلاغة. للدكتور فتحي فريد. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة. ١٩٨٧م.
٤٦- معجم المصطلحات البلاغية. للدكتور أحمد مطلوب. مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٣هـ.
٤٧- مفتاح العلوم. لسراج الدين السكاكي، تحقيق: نعيم زرزور. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
٤٨- مفتاح تلخيص المفتاح. لشمس الدين الخطيبي الخلخالي. تحقيق: د. هاشم محمد محمود، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
٤٩- مقتض الحال في الأسلوب القرآني. للطلحاوي محمد عمر. رسالة "ماجستير" غير منشورة، قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٧هـ.
٥٠- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي. لابن تغري بردي. تحقيق: د. محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.
٥١- مواهب الفتاح. لابن يعقوب المغربي، ضمن شروح التلخيص. دار السرور. بيروت، د.ت.
٥٢- النكت في إعجاز القرآن. للرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. تحقيق: محمد خلف الله ومحمد سلام. دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، د.ت.

* * *

الإشارة الصوتية في النص
مدخل إلى المفهوم والأدوات والقيمة

د.منير تيسير شطناوي
الجامعة الهاشمية – الزرقاء - الأردن

الإشارة الصوتية في النص: مدخل إلى المفهوم والأدوات والقيمة

د. منير تيسير شطناوي
الجامعة الهاشمية – الزرقاء – الأردن

ملخص البحث:

إنّ اختلاف مستويات الفكر الجماعي وما يعتوره من تأثيرات وقيم نفسية وتصورات فلسفية ومعتقدات اجتماعية، أدى إلى تشكل منظومة فكرية في عقل الجماعة تفاعلت فيها العمليات الذهنية بالحركات النطقية، لتنتج أصواتاً وفق تشكلات سياقية وارتباطات منتظمة، شكلت ماهية ما يعرف باللغة. والعلاقة بين أصوات الكلمة ومعناها اعتباطية. ولكن البحث عن معنى الصوت في النص ممكن إذا تحققت فيه "الإشارة الصوتية" التي يمكن تعريفها بأنها: "الظاهرة الصوتية الناتجة عن إيقاع الصوت أو وقعه، الدالة على قيمة متساوقة مع الاتجاه العام فيه." استناداً إلى عاملين مهمين: أحدهما، تحقق القيمة الوجودية للصوت من خلال توظيفه في نص لغوي، والآخر، أن يكون الصوت في النص ظاهرة من خلال استحقاقه للغلبة: "غلبة إيقاع"، أو "غلبة وقع" أو كلتيهما وأن تتسقا مع الاتجاه العام فيه.

مقدمة:

المتأمل في طبيعة الدّرس الصوتي يجده في مجمله درساً لا يتعدى حدود وصف المخارج النطقية والصفات الصوتية للأصوات اللغوية، بالإضافة إلى ما تسجله هذه المصنفات من تفسيرات للظواهر الصوتية كالمماثلة والمخالفة. وما تقدمه من تحليلات للظواهر اللهجية مستعينة تارة بالدرس اللغوي المقارن، كما هو الحال في الدرس الصوتي الحديث، وتارة بأثر الأصوات على بعضها في سياقاتها المختلفة كما في المصنفات اللغوية، وعلل القراءات وحججها في تراث العربية.

وربما تعدى الحال إلى تناول الأصوات فوق الفونيمية، واختص هذا التناول بالنبر والتنغيم والمقاطع. هذه أبرز ملامح الدرس الصوتي قديماً وحديثاً. ولم تكن هذه الملامح مقصِّرةً في خدمة البحث اللغوي، بل وصل الحد عند بعض الأصواتيين إلى عدّ معرفة مخارج الأصوات وصفاتها كفاية الدرس الصوتي.

ولكن هل يقف الدرس الصوتي حقيقة عند هذا البعد؟هل كفاية الأصوات لا تتجاوز مخارجها وصفاتها وأثر بعضها ببعض مماثلة ومخالفة؟ ألا يمكن تجاوز هذا الحد بالبحث عن قيمة ذات علاقات دلالية تفضي إليها السياقات الصوتية في الأساليب اللغوية؟ أليست الغاية من دراسة الأصوات وظواهرها هو الفهم والتمييز بين المنطوقات؟ وهل تعددت الظاهرة الصوتية في أساليب العربية؟ وكيف كان هذا التعدد إن وجد؟ وهل يمكن أن نلمس آثار تعددها في الأسلوب الواحد من أساليب اللغة؟

إذا كان الحال كذلك، فإنّ الدراسات الصوتية لا تقف على عتبة إحسان الأصوات مخرجاً وصفة، بل تتعدى ذلك إلى تعزيز الفهم بما نلحظه من أسلوبية صوتية تضفي قيماً دلالية وأخرى جمالية.

والفرضية التي ننطلق منها للوصول إلى ما في النص من قيمة صوتية هي أنّ الصوت اللغوي ظاهرةٌ لغوية، والأسلوب اللغوي طريقة تعبيرية بكل مكوناتها، وإذا كان الكل يسير في اتجاه، فإنّ أجزاءه بالضرورة تدفع نحو ذلك الاتجاه عينه.

وانطلاقا من هذه الحقيقة، فإنَّ هذه الدراسة تسعى إلى بيان أداء الكيفية الصوتية في سياق الأسلوب اللغوي من خلال البحث عن إشارة الصوت في ثنايا النص، وإبراز مدى مساهمة هذه الإشارة في الكشف عن مقاصده ودلالته.

دلالة الصوت في اللغة :

شغل علماء اللغة أنفسهم قديماً وحديثاً بمسألة ظلت عالقة إلى يومنا هذا تتصل بدلالة الصوت في اللغة، فهل يحمل الصوت في ذاته دلالة؟ هل للأصوات معنى في النص؟ وما هو هذا المعنى؟ وكيف نجده؟

ليس القصد من هذه الدراسة بحث الدال كلفظ والمدلول كمفهوم في اللغة، وإنما انصرف الجهد إلى تقديم وجهة نظر تتصل بالصوت في النص بوصفة إشارة؛ للوقوف على القيم الدلالية للإشارة الصوتية التي يمكن استشرافها.

وإذا كان من علماء اللغة المتقدمين - كابن جني - من حاول إثبات التعالق بين الصوت في الكلمة ومعناها[1]، فإن هذه المحاولة في نظر بعض الباحثين اليوم أشبه ما تكون بشعوذة لغوية - بزعم بعضهم - لا دليل عليها سوى الحدس، وما يتوالد من انطباعات في النفس، تحاول اختلاق تعالق وهمي بين الصوت في الكلمة ومعناها.[2]

يقول محمود نحلة[3]:

---

١ - انظر "الخصائص" ابن جني (ت٣٩٢هـ)باب "إمساس الألفاظ أشباه المعاني"، تحقيق محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دار الشؤون الثقافية العامة ط٤ / ١٩٩٠ ج٢/١٦٥ وحذا حذو ابن جني السيوطي(٩١١هـ) الذي قرر أنَّ "أهل اللغة والعربية كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني." انظر: المزهر في علوم اللغة وأنوعها، السيوطي، ضبطه وصححه فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٩٩٨/١ ج٤٠/١

٢ - يبدو وصف شعوذة فيما يراه بعض المعاصرين من قول ابن جني في مادة "بحث": فالباء فيها لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض، والحاء فيها تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض، والثاء للنفث..." انظر الخصائص، ابن جني، ج ١٦٥/٢

٣ - دراسات قرآنية في جزء عمَّ، محمود أحمد نحلة دار العلوم العربية، بيروت ط١٩٨٩/١ ص١٥٢ وعرض الدكتور محمود نحلة طرفاً من هذه المسألة من كتاب العقاد "أشتات مجتمعات في اللغة والأدب".

"وقد شغلت هذه القضية القديمة (المناسبة بين الألفاظ والمعاني) أذهان بعض المثقفين في العصر الحديث. وتحاوروا فيها، فكانوا بين متحمس لها، وساخر منها."

ويرى إبراهيم أنيس ما قاله ابن جني لا يعدو أن يكون تخيلات وتأملات. يقول[1]:

"وهكذا نرى أن ابن جني كان ممن يؤمنون إيماناً قوياً بوجود الرابطة العقلية المنطقية بين الأصوات والمدلولات أو ما يسميه بعض المحدثين بالرمزية الصوتية، بل لقد غالى ابن جني في هذا ومعه الثعالبي صاحب فقه اللغة، إذ جعل مجرد الاشتراك في أصلين فقط من الأصول الثلاثية دليلاً على الاشتراك في معنى عام لبعض الكلمات، فيقرر أن المعنى العام للتفرقة يكون بين صوتي الفاء والراء، والمعنى العام للقطع يكون بالقاف والطاء، إلى غير ذلك من تخيلات وتأملات تشبه أحلام اليقظة عند رجل اشتدّ ولعه باللغة لعربية فتصور فيها ما ليس فيها، وأضفى عليها من مظاهر السحر ما لا يصح في الأذهان ولا تتصف به لغة من لغات البشر".

وعلى الرّغم من قسوة هذا الحكم على من يقول بالتعالق أو المناسبة بين الصوت في الكلمة ومعناها، فإن الدّرس اللغوي اليوم يؤمن بأن هذه العلاقة "اعتباطية" لا شيء غير الاعتباط.[2]

---

١ – من أسرار اللغة. إبراهيم أنيس. مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ط٢ / ١٩٧٢م. ص١٢٦

٢ – هذا رأي سوسير رائد اللسانيات الحديثة. انظر: فصول في علم اللغة العام. فرديناند دي سوسير، ترجمه من الفرنسية إلى الإنجليزية واد باسكين، ترجمه إلى العربية، أحمد نعيم كراعين، دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية / ١٩٨٢ ومصطلح "اعتباطية" من المصطلحات المتداولة في علم الدلالة، وقد جعله (جون ليونز) خصيصة من أربع خصائص تميزت بها اللغة الإنسانية. انظر: اللغة وعلم اللغة، ترجمة وتعليق مصطفى التوني، دار النهضة العربية. القاهرة / ١٩٨٧ ص ٢٥ ويوصف بهذا المصطلح العلاقة بين المدلول(التصور الذهني)، والدال (الصورة السمعية) يقول فوزي الشايب: "وهذان العنصران (الدال والمدلول) ملتحمان بحيث إن كل واحد منهما يستدعي الآخر بالضرورة. والعلاقة بينهما اعتباطية، كما قرر ذلك أرسطو من قبل، ومعنى كونها اعتباطية أنه ليس هناك رابط طبيعي يربط الدال بالمدلول، فليس معنى اعتباطية أنّ اختيار الدال متروك كلية لإرادة المتكلم ورغبته. وإصرار سوسير على الطبيعة الاعتباطية للإشارة قاده إلى فك الارتباط الطبيعي الذي تفترض البداهة وجوده

ولعل الحجة التي يتخذها منكرو هذه العلاقة، تتمثل في أن المفهوم واحد عند كل الناس في كل اللغات. ولو كان ثمّة تعالق بين الصوت في الكلمة ومعناها، لما اختلفت هذه الكلمة في لفظها بين اللغات، ولاتفقت جميع اللغات في ترداد ألفاظ المسميات.

ومما يحتج به أيضاً في هذا السياق أنّ الصوت ذاته يتكرر في لفظة أخرى ولا يدل على ما تدل عليه الكلمة السابقة، بل قد تكون الكلمتان متضادتين، فكيف تحمل دلالة الصوت في الكلمة الأولى على وجه، وتحمل دلالة الصوت ذاته في الكلمة الثانية على غيرها حيناً أو على نقيضها حيناً؟!

تبدو هاتان الحجتان منطقيتين وصحيحتين، ولكن المسألة تحتاج إلى مراجعة ما يحتج به وما يقدم من أدلة ليكون الحكم موضوعياً ومفضياً إلى حقيقة علمية غير ذات حدس أو طبع.

إنّ القول بالاعتباط سليم من المآخذ التي أخذها المنكرون بعلاقة الصوت في الكلمة مع معناها، بل إنّ القول بالاعتباط أضحى وجهة النظر البديلة للمنكرين؛ لأنّ من يرفض البحث عن علاقة دلالية بين الصوت في الكلمة ومعناها، عليه أن يقدم بديلاً يفسر به اختيار هذا الصوت في هذه الكلمة، فجاء القول بالعلاقة الاعتباطية؛ ليدحض فكرة من يؤمن بالتعالق، وليقدم تفسيراً تحلّ به المسألة، ولو اعتباطاً، وظل القول بالتعالق بين الصوت في الكلمة ومعناها، أضعف من التفسير بالاعتباط، لما سجل عليه من مآخذ سبقت الإشارة إليها.

لا جرم أنّ بحث مثل هذه المسألة ذو بعد واسع، فهي مسألة لا تختص بالعربية وحدها، بل هي مما يمكن أن يتمحور في البحث اللساني العام (Linguistics)، ولكن محور اهتمامنا في هذه الدراسة هو العربية، ولذلك ستكون الأمثلة والشواهد من رحم هذه اللغة.

=بين الدال والمدلول." انظر: محاضرات في اللسانيات، فوزي الشايب، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٩م، ص ٤٤٢

تبدو مناقشة حجتي من أنكر التعالق بين الصوت في الكلمة ومعناها جديرة بالاهتمام. فإذا استعرضنا الحجة الأولى التي ترى أنّ الصوت لو كان ذا دلالة على معنى المفهوم، لوجب اتحاد أصوات اللفظ في كل اللغات؛ لأنّ المفهوم واحد. "فالشمس والقمر" مفهومان يطلعان على كل الناس. بيد أنه يعبر عنهما في كل لغة بطريقة مغايرة. ولذلك خلص من ينكر فكرة التعالق بين الصوت في الكلمة ومعناها إلى أنه لا صلة منطقية تجمع بين الطرفين، ولو كان ثمّة تعالق، لوجب أن تكون لفظة التعبير عن كليهما واحدة.

إنّ هذا الطرح يبدو للوهلة الأولى مقنعاً، ولكنه من وجهة نظر الباحث لا يعد دليلاً يحتج به على القائلين بالتعالق، وذلك لأنّ اللغة في حقيقة أمرها ظاهرة إنسانية اجتماعية منوطة بالفكر الإنساني، وإذا كان من المسلم به أنّ الفكر في الجماعات الإنسانية متفاوت ومختلف، فإنه بالضرورة يقود إلى اختلاف في بنية وتراكيب وأساليب اللغة بين هذه الجماعات.

وربما يقودنا هذا العرض إلى البحث عن مفهوم اللغة أصلاً، للوصول إلى حقيقة تباين اللغات، لا لاستعراض ما في مفهوم اللغة من خلاف، وما بينها وبين الكلام من تباين.

فإذا كان ابن جني يعرّف اللغة بأنها "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[1]، فإنّ اختلاف اللغات يعني بالضرورة اختلاف هذه الأصوات، أو اختلاف نظم هذه الأصوات بعضها ببعض، مما يشي بأن التباين بين لغة وأخرى في حقيقته تباين صوتي، سواء أكان هذا التباين الصوتي في ماهية الأصوات أو نظام تشكلها.

وعليه فإنّ ارتباط الجانب الذهني بالجانب الأدائي، لغة أو كلاماً، إنما هو في حقيقته مركب من غير عنصر، وتتم اللغة بمعادلة تفاعلية بين العمليات الذهنية والحركات النطقية. وهذا التفاعل بين العمليات الذهنية والحركات العضوية، في العملية النطقية هو

---

١ – الخصائص، ابن جني، ج١/ ٣٤

الذي يميز كل أمة، فيختص كل مجتمع بلغة تميزه عن غيره، بمعنى أن كيفية تمام هذا التفاعل هي ما يمتلكه المجتمع فيسمه بأداء ويسم غيره بأداء آخر.

والذي يميز الناس عامة هو مقدرتهم على إجراء هذا التفاعل وليس كيفية هذا التفاعل. فالمقدرة على إجرائه سمة عامة، أما كيفية إجرائه فلكل أمة طريقتها التي تقوم على منظومة من القيم النفسية والاجتماعية والفكرية تشكل في المحصّلة ما يسمّى: لغتها.

ولمّا كانت هذه القيم في التفكير الإنساني متباينةً، كان لكل أمة فكرها وتصوراتها، وبالتالي اصطلاح أصوات تعبر عن هذه التصورات، ثم اقتراح منظومة هذه الأصوات في تشكلها وتعلقها ومن ثمّ تشكيل لغتها.

وليس من نافلة القول أنّ القدرة التي حظي بها الإنسان على إجراء التفاعل المنظم والمضبوط بين عملياته الذهنية وحركاته النطقية، لينتج اللغة التي يعرف بها، ترتقي لتصبح ملكة لديه. وقد تحدث ابن خلدون (٨٠٨هـ)عن هذه الملكة اللغوية بقوله[١]:

"اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده. وتلك العبارة فعل لساني، ناشئة عن القصد لإفادة الكلام، فلا بدّ أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان، هو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم"

وبناء على ما سبق، فإن اختلاف مستويات الفكر الجماعي، وما يعتوره من تأثيرات وقيم نفسية وتصورات فلسفية ومعتقدات اجتماعية، أدى إلى تشكل منظومة فكرية في عقل هذه الجماعة تفاعلت فيها العمليات الذهنية بالحركات النطقية، لتنتج أصواتاً وفق تشكلات سياقية وارتباطات منتظمة، شكلت ماهية ما يعرف باللغة، وبذلك نفسه تعددت اللغات وتباينت.

---

١ – مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط٣، ج٣، ص ١٢٦٤، وانظر المصدر نفسه ج٣/١٢٧٨

وليس أدل على هذه الفرضية ما نلحظه اليوم في اللغة عند صياغة مصطلح ما لمفهوم معين، فإن لمح الصفة غالباً ما يفضي إلى إطلاق المصطلح. بل تتعدد مصطلحات المفهوم الواحد في اللغة الواحدة لاختلاف الملمح الوصفي. وليس الملمح الوصفي في حقيقة أمره إلا الجانب الفكري الذهني الذي يتفاعل مع الحركات النطقية لأداء اللغة.

ويبدو الأمر قريباً من تباين اللغات في ظاهرة التذكير والتأنيث. فالمؤنث في لغة قد يكون مذكراً في لغة أخرى، والعكس صحيح، لاسيما المجازي. فكيف رأت اللغة تذكيراً أو تأنيث مما لا جنس له؟ ولا يمكن تعليل ذلك إلا وفق التفكير الإنساني داخل المجتمع والمؤثرات النفسية والاجتماعية والفلسفية ومجموعة التصورات والقيم التي تحكم هذا المجتمع منذ زمن بعيد.[1]

أما الحجة الثانية التي ترى أن الصوت إذا دلَّ على قيمة معينة، فكيف يدل على غيرها والصوت هو هو لم يتغير؟

إنَّ هذه الفرضية ليست مسلّمة، فالكلمة تدل على معنى ومعنى آخر. وقد تتعدد معاني الكلمة الواحدة، بل إنَّ اللفظة الواحدة قد تكون ذات دلالتين متناقضين، وهي ما يعرف بألفاظ الأضداد. ومعنى ذلك أنَّ ما يحدد الدلالة هو السياق، سواء أكان ذلك في المستوى الصرفي أم في المستوى الصوتي، فكما تحيا الكلمات في سياق النص، كذلك تحيا الأصوات في سياق الكلمة.

وقريب من هذا ما لحظه ابن جني من "ازدحام الدال والتاء والطاء والراء واللام والنون إذا مازجتهنَّ الفاء على التقديم والتأخير فأكثر أحوالها ومجموع معناها، أنّها

١- يقول بروكلمان: "في اللغات البدائية ليس هناك نوعان من الجنس، كما في اللغات السامية، ولا ثلاثة أنواع كما في اللغات الهندوأوروبية، بل فيها غالباً أنواع كثيرة، يفرق بعضها عن بعض نحوياً، وتتوزع فيها كل أشياء العالم المحسوس، ويرجع هذا التوزيع في الأساس إلى تأملات لاهوتية، أو بتعبير أحسن تأملات خرافية، على قدر ما يبدو للرجل البدائي أن العالم كله من الأحياء." انظر: فقه اللغات السامية، كارل بروكلمان، ترجمة رمضان عبد التواب، جامعة الرياض /١٩٧٧ ص د ٩ وانظر، التطور النحوي للغة العربية، برجشتراسر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، أخرجه وصحّحه وعلّق عليه: رمضان عبد التواب، ط٤ /٢٠٠٣ ص ١١٢

للوهن والضعف ونحوهما." [1] فسياق اجتماع هذه الأصوات يوحي بما لحظه ابن جني من قصد.

وإذا كنّا نعتقد بأنّ معنى الكلمة مفردة لا يُحدد من غير سياق نص، ينبغي أن نعتقد أيضاً أنّ معنى الصوت مفرداً لا يُحدد من غير سياق كلمة. يقول محمد بوعمامة معلقاً على رأي ابن جني في هذه المسألة وما يشاكلها[2]:

"كما نجد أن نظرة ابن جني هذه قد سبقت نظرة اللغوي الإنجليزي الشهير فيرث (Firth) الذي تحدث عمّا أسماه الوظيفة الفوناستيتيكية (Phonaesthetic Function) ويعني بذلك تلك العلاقة القائمة بين الكلمات التي تبدأ بحرفين، مثل ST :أو SN أو SL وذلك في مثل : (كومة،ركام،مقدار،معين:Stack). (عصا، عود، قضيب :Stick). (أصل الشجرة الباقي بعد قطع جذعها.:Stub). (ينحل، يهزل... :Slim). (لوز، يضيق... :Slit)... قلت: يذهب فيرث إلى أن الكلمات التي تبدأ بحرفي ST أو SN أو SL تنتمي كل مجموعة منها إلى معنى عام."

وهي نظرة نجدها كذلك عند أحمد بن فارس في "معجم مقاييس اللغة" في نظرية الأصول اللغوية فقد اهتدى إلى أنّ ثمّة معنى أساساً وأصلاً واحداً أو أكثر تشترك فيه معاني المادة اللغوية الواحدة وصيغها لاسيما في الثنائي والثلاثي من ألفاظ اللغة[3].

---

١ – انظر الخصائص. ابن جني ٥٧/١–٥٥٨ وقد فصّل ابن جني هذا التناسب في كتابه تحت "باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني" ج١٤٧/٢–١٥٤ وباب "إمساس الألفاظ أشباه المعاني" ج١٥٤/٢–١٧٠ وقد قال في مقدمة الأول: "هذا غور من العربية لا ينتصف منه ولا يكاد يحاط به وأكثر كلام العرب عليه وإن كان غفلا مسهواً عنه." انظر الخصائص ج١٤٨/٢ وانظر: ابن فارس(د٣٩٥هـ): معجم مقاييس اللغة. تحقيق عبد السلام هارون. دار الجليل بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩١م ٤٣٨/٤–٤٤١

٢ – انظر (الصوت والدلالة دراسة في ضوء التراث وعلم اللغة الحديث) الدكتور محمد بوعمامة. مجلة التراث العربي–مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب–دمشق العدد ٨٥

٣ – انظر: معجم مقاييس اللغة. أحمد بن فارس ،تحقيق عبد السلام هارون. دار الفكر للطباعة والنشر ١٩٧٩م. وانظر: "النظرية الثنائية في أصول ألفاظ العربية عند ابن فارس. محمود الحديد. مجلة دراسات. الجامعة الأردنية. ملحق المجلد ٢٨. كانون أول /٢٠٠١ وانظر: الخصائص. ابن جني. ج١٦٨/٢ فقد ذكر

ولقائل أن يقول ليس للكلمة معنى إلا إذا وظّفت في سياق النصّ. بل ربمّا يصل الأمر إلى إنكار ما يسمى بالجذر. فيقال: إن أصل استخرج مثلاً، هو الخاء والراء والجيم وليس خرج، انطلاقاً من أنه لا وجود مستقل للكلمة، فأقل ما يوجد وجوداً فعلياً هو الجملة، وما القول بوجود الأصل إلا من قبيل الافتراض. فنحن نفكر بجمل، لا بكلمات ولا بأصوات.

إنّ هذه الفكرة أصيلة، وتكاد تمثل الواقع اللغوي في اللغات، ومن وجهة نظر الباحث، فإن المسألة المفترضة في هذه الفكرة تمزج بين المعنى والدلالة. فالكلمة والصوت لا يحملان دلالة. وليس من شك أنّ الذي يقرر الدلالة هو السياق، علماً أن وجود الكلمة والصوت وجود افتراضي، لأن أقل ما يوجد مستقلاً - كما سبق - هو الجملة.

ويبقى السؤال ذو الأهمية القصوى وهو كيف يمكن إثبات أو اكتشاف معنى الصوت؟

إنّ الإجابة عن هذا تقتضي النظر إلى مستويات اللغة في صرح اللغة كلها، ثم البدء من أعلى هذه المستويات إلى أدناها. والقصد بذلك أن نبدأ بالمستوى الدلالي ثم ننتقل إلى المستوى النحوي ثم إلى المستوى الصرفي لنصل إلى المستوى الصوتي، وتقتضي العملية المعرفية أن تلتقي معطيات هذه المستويات جميعها ملتقى واحداً هو ما أراد المتكلم أن يصل إليه في نصّه.

قلنا إنّ البحث عن معنى الصوت في النص يتجه من النص نحو الصوت. بمعنى أننا نتجه تنازلياً في تتبع هذا المبحث. ومنطلق البحث عن معنى الصوت في النصّ هو إطلاق حكم الكل على أجزائه. فإذا كانت الفكرة النصيّة تحمل بعداً ذا قيمة معينة، فإنّ كل وحدة من وحدات النص تدفع باتجاه هذه القيمة، أو يتجلّى هذا البعد في وحدات كل مستوى لغوي يمكن تحليله في النص. فليست الوحدات الصرفية إلا لبنات منتخبة تدفع نحو الفكرة النصيّة. والحال ذاته ينقاس على الوحدات الصوتية أيضاً، إذ تدفع هذه

=ابن جني أن اجتماع الدال والتاء والطاء والراء واللام والنون إذا مازجتهنّ الفاء فأكثر أحوالهن كما يرى ابن جني أنها للوهن والضعف ونحوهما.

الوحدات في كافة المستويات نحو الاتجاه العام في النص من غير أن يخالف أو ينقض بعضها بعضاً.

يقول صبحي الصالح[1]:

"أما الذي نريد الآن بيانه، فهو ما لاحظه علماؤنا من مناسبة حروف العربية لمعانيها، ...إذ لم يعنهم من كل حرف أنّه صوت، وإنما عناهم من صوت هذا الحرف أنّه معبر عن غرض، وأنّ الكلمة العربية مركبة من هذه المادة الصوتية التي يمكن حلّ أجزائها إلى مجموعة من الأحرف الدوال المعبرة، فكلّ حرف منها يستقل ببيان معنى خاص ما دام يستقل بإحداث صوت معين، وكل حرف له ظل وإشعاع، إذ كان لكل حرف صدى وإيقاع."

وأراني مدعواً للوقوف عند وجهات نظر بعض المحدثين التي عنت بهذه الظاهرة قبل بيان نظام المناسبة الصوتية بين اللفظ ومدلوله.

ربما كانت محاولة زكي الأرسوزي من باكورة محاولات المحدثين التي رأت ضرورة تفعيل المناسبة الصوتية والبحث عنها. يقول الأرسوزي[2]:

---

١ – دراسات في فقه اللغة، صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط ٢٠٠٥/١٧ ص ١٤٢ وضرب ابن جني مجموعة من الأمثلة والشواهد من كتابه "الخصائص" للتفريق بين مدلول الكلمات استنادا إلى صوت يتناسب مع مدلولها كسعد وصعد وسدّ وصدّ وخضم وقضم وقتر وقطر وقدر..والنضح والنضخ..وقد نقل د. الصالح هذه الأمثلة وعلّق عليها انظر دراسات في فقه اللغة ص ١٤٤ ومن ذلك أيضاً قوله في المحتسب: القبض بالضاد معجمة باليد كلها، وبالصاد غير معجمة بأطراف الأصابع. وذلك أن الضاد لتفشيها واستطالة مخرجها جعلت عبارة عن الأكثر، والصاد لصفائها وانحصار مخرجها وضيق محلها جعلت عبارة عن الأقل." انظر: المحتسب، ابن جني، تحقيق علي النجدي ناصف والدكتور عبد الحليم النجار والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي، القاهرة ١٣٦٨هـ ٢/د د وانظر:: المزهر في علوم اللغة، السيوطي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم وآخرين دار التراث بالقاهرة الطبعة الثالثة بلا تاريخ ١/د٢– د د

٢ – دور اللسان في بناء الإنسان عند زكي الأرسوزي، خليل حلمي، دار السؤال للطباعة والنشر بدمشق، ط ١٩٨١/٢ص ٨٧

"إن اللسان العربي اشتقاقي البنيان ترجع كافة كلماته إلى صور صوتية مرئية مقايسة مباشرة عن الطبيعة الخارجية تقليداً للأصوات الحاصلة فيها أو عن الطبيعة الإنسانية بياناً لمشاعرها".

وضرب الأرسوزي على ذلك مثلاً ما يقتبس من الحروف "غ". "س". "ب". فحرف العين "هو أبلغ من كافة الحروف الأخرى، فبحسب مخرجه وما يلقى من صدى في النفس عند خروجه يعبر عن معنى تنطوي عليه تقريباً كافة الكلمات التي تبتدئ به ألا وهو الغيبوبة والغموض. منها: "غبّ. الغب" وهو الغامض من الأرض، وغبر: مضى، وغبش الليل: أظلم وأغبط النبات تدانى وغطى الأرض وغبن . الغبانة: ضعف الرأي والنسيان."[1]

ويرى الأرسوزي أنّ "الطبيعة الداخلية مصدر للكلام. ثمّ تأتي مرحلة النشأة والنماء في الكلام بالإلحاق والنحت والتحوير والتداعي.

وبذلك فإنّ الأرسوزي من أصحاب نظرية الطبيعة في نشأة اللغة من خلال المناهج المذكورة (الإلحاق والنحت والتحوير والتداعي) وأما الآلية فتظهر باستخدام السمع والبصر لتكييف الصوت المحدث في الفم وفق الصورة المرئية في الوجود الخارجي أو المدركة في الوجدان الداخلي."[2] ولا يقف الحدّ عند الأرسوزي عند الصوامت من حروف العربية، بل يتعدى ذلك إلى الحركات أيضاً، يقول[3]:

"في الكلمة العربية تحتفظ الحركة بمدادها الأصيل، فتعبر بذلك عن معناها البدائي، فالفتحة الحاصلة بحسب مخرجها عن ركون اللسان عند صدور الصوت، تعبر عن السكون أو الاندراج في المكان. والكسرة الحاصلة عن صدور الصوت بكسر الشفتين ورجعتهما تعبر عن أيضاً عن النسبة أو دعوة الحالة إلى الذات. وكذلك الضمّة الحاصلة عن تدافع الصوت عند خروجه تعبر عن الفعالية المتواصلة والدائمة. ....وجميع الحروف والحركات في اللسان العربي ترجع إلى العلاقة بين الصوت وبين طريقة حدوثه في الفم."

---

١ – دور اللسان في بناء الإنسان عند زكي الأرسوزي. خليل حلمي. ص ١١٣

٢ –المرجع نفسه ص ١٢٢

٣ – المرجع نفسه ص ١١١

ويرى الباحث أنّ ما ذهب إليه الأرسوزي رهين الطبع والحدس. وهو محط اختلاف حتى بين من يعتقدون بالمناسبة الصوتية، وهو من قبيل ما ذهب إليه ابن جني والسيوطي. ومن وجهة نظرنا فإنّ ترك الظاهرة رهينة الحدس والطبع توقع في إشكال وخلاف. ولذلك يجدر وضع ضوابط خاصة تجعل الظاهرة في نطاق علمي موضوعي. وهذا ما نحاوله ونسعى إلى تحقيقه.

ولا تبتعد محاولة حسن عباس في كتابه "خصائص الحروف العربية" عن محاولة الأرسوزي، ولذلك فإنّ المآخذ السابقة تصدق على محاولة عباس أيضاً. فقد استوحى دلالات خاصة لكل صوت من أصوات العربية، ونسب إلى الصوت دلالات تتناسب مع خصائصه الفونولوجية معتمداً في الوقت ذاته على الملكة الفنية الذوقية وهو ما يحضر من وجهة نظره . لنفر من هواة اللغة دون سواهم . يقول[1]:

"استنباط معاني اللفظة العربية من صدى أصوات أحرفها في النفس يتطلب منا نحن بالمقابل مستوى مماثلاً في الرقي ولاسيما في الملكة الفنية (الذوقية)، وطول معاناة مع أصوات الحروف ومعانيها. وقلّما يتوافر ذلك لغير نفرٍ من هواة اللغة العربية ...ممن يتحلون برهافة الأحاسيس، وشفافية المشاعر... فخاصية الشدّة في صوت (الدال) مثلاً، وخاصّية التحرك والترجيع والتكرار في صوت (الراء)، وخاصّية الانبثاق والنفاذ والصميمية في صوت (النون)، وخاصيّة الاهتزاز والاضطراب والتشويه في صوت (الهاء). وخاصية الصلابة والصقّل والصفاء في صوت (الصاد)..."

ولم يكتف حسن عباس بإعلان هذه الإيحاءات من العلاقات بين الصوت ودلالته، بل أخذ على علماء اللغة أنهم لم يقفوا عند رصد هذه الإيحاءات الحسّيّة الشعورية. يقول[2]:

---

١ – خصائص الحروف العربية . حسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٨ ص ٢٨

٢ –المرجع نفسه ص ٣٥

"على الرغم من أن علماء اللغة الذين قالوا إنّ لغتنا مأخوذة مباشرة عن الطبيعة، وأصّلوا على ذلك أنّ معنى اللفظة مستفاض عن صورتها الصوتية. فإن أحدا منهم لم يربط يين أصوات الحروف وبين الحواس الخمس والمشاعر الإنسانية."

إن الطرح الذي ذهب إليه عباس فيه من الغلو ما يجعل الفكرة بمجملها رهينة الانطباع الذاتي والتصور الشخصي كما سلف القول، بالإضافة إلى الوقوع في تناقضات مختلفة فإذا كان يرى الشدّة في صوت الدال، فكيف يمكن إثباتها في كلمة "هدوء" أو "هدى"مثلاً؟! وقس على ذلك من الأمثلة ما يسهل معه دحض هذه الانطباعات، فلأذواق مختلفة والانطباعات متفاوتة.

وعليه فإنّ الاكتفاء بالطبع والوقوف على الذائقة والاستشعار الذاتي، لا يمكن الاتكاء عليه في الحديث عن الدلالة الصوتية وفق رؤية علمية موضوعية.

وليس القصد من نقد ما قاله الأرسوزي وحسن عباس إنكار الدلالة الصوتية بوصفها ظاهرة لغوية تحميل قيمة دلالية، وإنما كان الخلاف في إطلاق هذه الدلالة وتعميمها.

ومن الباحثين من حصر الدلالة الصوتية في حالين، أحدهما: تغير المعنى بتغير الصوت كما في (سفير وصفير وزفير) أي تغير فونيمي، وهذا التمييز بين المنطوقات لا خلاف فيه، إذ يبنى على تغير الفونيم تغير المعنى. والآخر، محاكاة أصوات الطبيعة وهذا مما لا خلاف فيه أيضاً. ولعل هذه المحاكاة ليست حكراً على العربية وحدها. يقول صالح عبد القادر في دراسته "الدلالة الصوتية في اللغة العربية". يقول[1]:

"فالدلالة الصوتية نوعان: مطّردة وهي المستفادة من الأصوات اللغوية الصادرة من جهاز النطق وما يتركب من هذه الأصوات من ألفاظ ثمّ ما يكون لهذه الألفاظ من معانٍ مكتسبة أو طبيعية...وما يمكن ملاحظة الصلة بينها وبين دلالتها مثل تلك التي تكون حكاية لأصوات الطبيعة...كما أنّ في اللغة العربية صيغاً وأوزاناً يكون لها دور في إظهار

---

١ – الدلالة الصوتية في اللغة العربية، صالح سليم عبد القادر، منشورات جامعة سبها/١٩٨٨م ص ٣٧–٣٨

المعنى كأوزان الأفعال والمصادر والمشتقات وجموع التكسير ...وهذا النوع من الدلالة يمكن أن نطلق عليه دلالة صوتية غير مطردة أو خاصة."

إنَّ حصر الدلالة الصوتية في هذين النوعين ليس المقصد من هذه الدراسة، وإنما أردنا استكناه دلالة الصوت لا من حيث هو فونيم تغير فتغير معنى الكلمة، ولا من حيث استكناه التعالق بين الصوت اللغوي وأصوات الطبيعة التي يحاكيها. وإنما انصرف الجهد إلى البحث عن قيمة الصوت اللغوي باعتباره إشارة، وهو ما سنعرضه في مفهوم الإشارة الصوتية وضوابطها.

الإشارة الصوتية: المصطلح والمفهوم.

ربما كان اقتراح مصطلح "الإشارة الصوتية" من قبيل الوقوف موقفاً وسطاً في حمى الجدل الدائر بين منكري تعالق الأصوات بالدلالة ومؤيديها.

وقبل الشروع في الحديث عن كيفية موافقة الفكرة النصيّة الوحدات الصوتية، يجدر بنا الوقوف على مصطلحات خاصة تتصل بمتن الدراسة. وأهم هذه المصطلحات: "الاتجاه العام" في النَّص، والإشارة الصوتية؛ من أجل تبيان دلالتها وتحديد مفهومها.

أما الاتجاه العام للنص فنراه: "الغاية القصدية التي يهدف إليها النص بكل مكوناته اللغوية باختلاف وسائل التعبير وتعدد طرق الأداء، وهو بؤرة النص ومقصده، ومداره وغايته."

فكل نصّ يقدم فكرة، تتعالق فيها الجمل والعبارات لتأصيل هذه الفكرة، فهي بذلك الغرض الذي أراد المبدع أن يقدمه في نصّه، أو القصد الذي غرض إليه وأكّد عليه.

أما "الإشارة الصوتية" فهي: "ملمح الظاهرة الصوتية الناتجة عن إيقاع الصوت أو وقعه الدالة على قيمة متساوقة مع الاتجاه العام فيه."

ومما سبق يجمل التفريق بين الصوت والإشارة الصوتية. فليس كل صوت إشارة صوتية، في حين تعدّ كل إشارة صوتية ملمح ظاهرة صوتية[1].

أما متى يكون الصوت ظاهرة؟ وكيف يصبح للصوت إشارة؟ فإنّ الإجابة عن ذلك تقتضي أن يتحقق الوجود الحقيقي لا الافتراضي للصوت، أي أن يكون موظفاً في نص لغوي. فكما يحكم على أنه لا معنى للكلمة إلا إذا وظفت في نصّ، وأن السياق هو الماء الذي تحيا به الكلمات، كذلك الحال فيما يخص الأصوات، فالسياق النصي هو الماء ذاته الذي تحيا به الأصوات تركيباً ودلالة. وللبحث عن معنى الصوت في أسلوب من الأساليب ينبغي أن يكون هذا الصوت ظاهرة في نصه، والمقصود بالظاهرة أي أن يغلب الصوت غلبة إيقاع، أو غلبة وقع في ذاك الأسلوب.

أما غلبة الصوت الإيقاعية، فهي "ترداد الصوت في النص ترداداً تكرارياً يفضي إلى تحقيق نسق ازدواجي يمكّن من تلمّس قيم الاتجاه العام فيه".

و"الازدواج" في المبحث الإيقاعي يعد أساساً من أسس البنية الإيقاعية في النصوص اللغوية، ويقصد به[2]: "توازن جملتين متتاليتين توازناً من حيث الحركات والسكنات... بغض النظر عن الوزن الصرفي".

١- وجد الباحث مصطلحات مستخدمة في التعبير عن الظاهرة: كالدلالة الصوتية، والرمزية الصوتية، والمناسبة الصوتية بين اللفظ ومعناه... ولكن آثرنا استخدام مصطلح "الإشارة"؛ لأنّ لفظة إشارة تحمل قيمة دلالية. قال تعالى: "فأشارت إليه، قالوا كيف نكلّم من كان في النهد صبيا". ففهموا من إشارتها: أن كلّموه. فقالوا: كيف نكلّم طفلا ما زال في المهد؟
وليس بالضرورة أن يحمل الصوت هذه القيمة، فكل إشارة صوت، وليس كل صوت إشارة. وبحثنا هذا لا يهتم بما للأصوات من قيمة دلالية إلا إذا وصل الصوت إلى مرتقى الإشارة الصوتية. والحقيقة أنني بحثت عن هذا المصطلح فلم أجد ـ في حدود بحثي ـ من استخدمه بالمفهوم ذاته. أما العدول عن الرمزية الصوتية، فإنّ "الرمز" يحمل بالضرورة قيمة دلالية بين الرمز والمرمز إليه، وليس بالضرورة أن يحقق الصوت ذلك دائماً، وإنما هو محكوم بضوابط محددة. لا ترى في الصوت دلالة إلا إذا وصل إلى حدّ اقترحنا تسميته "بالإشارة". أما مصطلح الدلالة الصوتية فإنّ فيه اتساعا، وقد يفهم منه أنّ الصوت دال بكل حالاته.

٢- الإيقاع الصوتي في شعر شوقي الغنائي، منير سلطان، منشاة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٠م ص ١١٩ بتصرف.

فتكرار فاصلة في نسق يحقق إيقاعاً وجرساً موسيقياً مميزاً لما بينها من تجانس وتتابع أو تقارب. فالفاصلة والقافية إحدى مقومات تحقيق الإيقاع في أي نصّ، لاسيما النص الشعري. يقول ممدوح عبد الرحمن[1]:

"الإيقاع يعد عنصراً من عناصر التجربة التي ينقلها الشاعر إلى المتلقي، لكنه في الحقيقة ليس عنصراً منفصلاً عن العناصر الأخرى، بل هو متغلغل في مكونات البيت الشعري جميعاً، تجده في الحركات والصوامت والمقاطع بل وفي أجزاء الوزن، كما يمكن أن يتشكل في النبر."

إنّ التنوع والفصل، أحد مقومات الإيقاع في النص؛ لأنّ الإيقاع في أبسط مفاهيمه كما يحكيه أبو حيان التوحيدي: "فعل يكيل زمان الصوت بفواصل متناسبة متشابهة متعادلة."[2] ويقول القرطاجني في تصوير الإيقاع الصوتي[3]:

"لشدة حاجة العرب إلى تحسين كلامها، اختص كلامها بأشياء لا توجد في غيره من ألسن الأمم. فمن ذلك تماثل المقاطع في الأسجاع والقوافي،؛ لأن في ذلك مناسبة زائدة، ومن ذلك اختلاف مجاري الأواخر....ونياطتهم حرف الترنم بنهايات الصنف الكثير في الكلام، لأنّ في ذلك تحسيناً للكلم بجريان الصوت في نهاياتها..."

فلا موسيقى من غير إيقاع، بل بتعبير أبسط هي الإيقاع عينه. وإن لم تكن الموسيقى في الإيقاع لم تغنَ بالوزن والقافية، يقول أحد الدارسين[4]:

"الموسيقى الخفية هي أشد تغلغلاً في النفس الإنسانية، وأصدق تعبيراً عن مشاعر الشاعر وأحاسيسه وهي أهم كثيراً من الموسيقى التي تظهر في الوزن والقافية."

---

1 – المؤثرات الإيقاعية في الشعر العربي، ممدوح عبد الرحمن، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية / ١٩٩٤ ص١٢

٢– المقابسات، أبو حيان التوحيدي، تحقيق حسن السندوبي دار المعارف، سوسة، تونس ١٩٩١ ص ٢٠٢

٣– منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن خوجه، تونس / ١٩٦٦ ص ١٢٢، ١٢٣

٤– الإيقاع في الشعر العربي، أبو السعود سلامة أبو السعود، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠٠٢م ص١٠٣

فلبعض أصوات العربية ميزة على غيره، ولذلك يغلب استخدامه؛ لما له من إيقاع مميز، كصوت النون (التنوين) مثلاً. ولذلك نجده في أغلب فواصل القرآن الكريم. يقول أحمد كشك[1]:

"يحدد الغويون العرب التنوين بأنه عبارة عن نون ساكنة زائدة تلحق آخر الاسم لفظاً لا كتابة...وهذا العنصر الصوتي يمثل ثراء لغوياً تبين اللغة من خلاله. فعلى مستوى الإيقاع لا شكّ أنّه يمثل رنّة تحدث قوة إسماع حاملة تردداً زمنياً طويلاً؛ لأنّ موقعاً يحول الوحدة "فاعلاتن" إلى "تن تتن تن" ...لمدرك تماماً القيمة الإيقاعية التي يقوم بها التنوين باعتباره عنصراً موسيقياً إيقاعياً. لقد فطن عروضيو العرب إليه وإلى قيمته فاستخدموه ضابطاً قافوياً فيما يسمّى تنوين الترنم والتنوين الغالي. ولأجله جوّزوا صرف الممنوع من الصرف في الشعر لما في قبوله من مسايرة لغاية الإيقاع المطلوب."

وأما غلبة الصوت الوقعية، فهي "وقع جرس الصوت وأثره الذي يحقق قيم الاتجاه العام فيه. وليس مرهوناً بتكرار ذي نسق ازدواجي وركيزتها جرس الصوت في اللفظ وتميزه بنغم: كنبره أو تضعيفه أو مدّه..." فإذا نظرنا ـ مثلاً ـ إلى أسلوب النداء وتنوعاته في العربية وجدنا الغلبة الوقعية فيه ماثلة في النداء على الندبة، وهي: "إعلان المتفجّع اسم من فقده بموت أو غيبة كأنّه يناديه نحو "وازيداه". والقصد الإعلام بعظمة المصاب"[2]

فالندبة "نداء المتفجع عليه أو المتوجع منه نحو: (وازيداه، واظهراه...)"[3] إذ تشكل أداة الندبة (وا) مع لاحقة المندوب (اه) سياقاً صوتياً ذا إيقاع تبرز فيه الإشارة الصوتية في التدليل على متفجع عليه أو متوجع منه.

---

١ – من وظائف الصوت اللغوي، أحمد كشك، دار غريب، القاهرة/ ٢٠٠٧ ص١٧

٢ – الفاخر في شرح جمل عبد القاهر، محمد بن أبي الفتح البعلي (ت ٧٠٩هـ)، تح ممدوح محمد خسارة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ج٢/ ٣٢٨د

٣ –المصدر نفسه ج٢/ ٣١٢د

وكذلك النداء على الاستغاثة. "والاستغاثة: نداء من يخلّص من شدّة أو يعين على مشقّة."[1] نحو: "(يا لَلّهِ لِلمسلمين)، بفتحها في الأول وكسرها في الثاني فرقاً بين المدعو والمدعو إليه"."[2] بما يحققه حرف النداء وأداة الاستغاثة في المستغاث به والمستغاث له من إيقاع تكراري يشكل سياقاً صوتياً ذا إشارة صوتية فيها قيمة الاستغاثة.

ومثله نداء البعيد بأداة النداء "أيا" تناسباً مع بعده في مد الصوت، ونداء القريب بأداة النداء "أي" تناسباً مع قربه...مع مراعاة ما في العدول الأسلوبي من قيم يمكن أن تجري فيها أداة مكان أخرى.

وتبدو هذه القيمة أيضاً في الإشارة الصوتية التي نلحظها في أسلوب المنادى المرّخم. "فالترخيم في اللغة: التليين، والصوت الرّخيم هو السّجيُّ الطيّب النغمة...وبهذا المعنى سمي الترخيم في النداء؛ لأنَّ الاسم إذا حذف آخره نقص الصوت به وضعُف."[3]

وكأنَّ الحذف إنقاص يستدعي التحبب لما فيه من صغر، وربما كانت الأشياء مصغرة أحب إليهم منها كبيرة، ولذلك كان من معاني التصغير في اللغة التحبب.

على أية حال، فإنَّ الترخيم قيمة وقعية ذات إشارة صوتية تغلب على المنادى لإفادة معنى التحبب والتقرب. ولذلك لا يرخم المبهم؛ "لأنَّ إبهامه يقربه من النكرة والنكرة لا ترخم"[4]

والإشارة الصوتية ببساطة تُعنى بالتقاط غلبة الصوت الإيقاعية أو غلبته الوقعية أو كلتيهما وتسوقهما بما ينسجم مع الاتجاه العام في النص.

وتبدو القيمتان: الوقعية والإيقاعية في قول ابن جني في مستهل باب "إمساس الألفاظ أشباه المعاني"[5]:

---

١ – المصدر نفسه ج٢/٣٦د

٢ – المصدر نفسه ج٢/٣٥د

٣ – الفاخر في شرح جمل عبد القاهر، محمد بن أبي الفتح البعلي ج٢/٤٠د

٤ – المصدر نفسه ج٢/٤٠د

٥ – الخصائص، ابن جني ج٢/١٥٤د

"اعلم أنّ هذا موضع شريف لطيف، وقد نبّه عليه الخليل وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته. قال الخليل: كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدّا فقالوا: صرّ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا: صَرْصَرَ. وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفَعَلان: إنها تأتي للاضطراب والحركة، نحو النّقزان والغليان والغثيان. فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال. ووجدت أنا (يقصد ابن جني نفسه) من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حذياه، ومنهاج ما مثّلاه، وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعّفة تأتي للتكرير نحو الزعزعة والقلقلة والصلصلة والقعقعة والجرجرة .."

فإذا تأملنا في غلبة الصوت الإيقاعية عرفنا سرّ تفريقهم بين صوت الجندب (صرّ) والبازي (صرصر)، وإذا تأملنا غلبة الصوت الوقعية عرفنا معنى التكرير في مصادر الرباعي المضعّف.

ولا يجوز اقتراح أي معنى لأي صوت ما لم يحقق هذين الشرطين، فليس من الصحّة بمكان أن يسأل أحدهم ما معنى السين في كلمة "حسن"، أو معنى السين في كلمة "سوء"، لأنه ببساطة لم يحقق هذين الشرطين (الغلبة الإيقاعية أو الغلبة الوقعية).

ولكن يصح السؤال ما قيمة صوت السين في سورة الناس؛ لأن هذا السؤال يسأل عن معنى صوت في نصّ أولاً، وهذا الصوت غالب غلبة إيقاعية و يشكل ظاهرة في النصّ. ففي سورة الناس فكرة يمثل اتجاهها العام الاستعاذة بالله من الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس، وهي وسوسة خانسة لا جهر فيها، والمتأمل في العناصر الفنونولوجية لصوت السين في العربية يجدها ملائمة ومتسقة في تحقق فكرة الاتجاه العام في السورة الكريمة، فالسين صوت مهموس احتكاكي مرقق، ولذلك تجده في أغلب الألفاظ المعجمية التي تبرز فيها هذه القيمة، نحو: السرّ، الوسوسة، الهمس، الخنس...يقول محمود نحلة[1]:

---

١ – دراسات قرآنية في جزء عمّ، محمود أحمد نحلة، ص١٦٠

"تتخذ اللغة القرآنية أحياناً من الصوت المتكرر وسيلة بلاغية لتصوير الموقف وتجسيمه، ولإيحاء بما يدل عليه معتمدة في ذلك على ما تتميز به بعض الألفاظ من خصائص صوتية، وما تشيعه بجرسها الصوتي من نغم يسهم في إبراز المعنى المراد...فحرف السين الذي تكرر في هذه السورة صوت صامت مهموس لثوي احتكاكي، لا يستطيع الإنسان أن ينطق به وهو مفتوح الفم، بل إنه ليحدث في نطق كثيرين له أن تلتقي الأسنان السفلى بالأسنان العليا، وقد اختير هذا الصوت بصفة خاصة، لإبراز هذه الوسوسة التي يخافت بها أهل الجرائم والمكائد، وما يلقيه الشيطان في روع الإنسان ليزين له بذلك ارتكاب المعاصي، وهو أدل بجرسه الصوتي الاحتكاكي الهامس على تصوير حالة الهمس الخفي وقد أعانته على ذلك بعض الأصوات الأخرى التي تقاربت معه مخرجاً منها حرف الصاد المطبق الذي يشترك في كل خصائصه الصوتية مع صوت السين ويزيد عليه الإطباق، وهو يعطي جرساً أعلى وسط هذه السينات المتتالية..."

وكذلك في إدغام هاء السكت من "ماليه" في هاء الفعل "هلك" في قراءة من قرأ "ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه" حيث قرأها (ماليهّلك)[1]، إذ يبدو إيحاء إيقاع إدغام الهاءين نفثة حرّة تنبىء حسرة النفس وضياعها، وتكشف عن التأوه والألم الذي اكتوى به المجرم يوم رأى ماله لم ينفعه، وجاهه لم يرفعه، فإطالة النطق في إدغام الهاءين (المدّ) يعد وقعاً مميزاً لنطق الصوت، وهو بذلك إشارة صوتية تنبئ عن قيمة معنوية، وهذا لا يتناقض مع قراءة من قرأ بهاء السكت، بل هاء السكت نفسها صوت

---

١ – يقول البناء (ت ١١١٧هـ) "واختلف أيضاً في إدغام هاء (ماليه) في هاء (هلك) فمنهم من اخذ بإظهارها لكونها هاء سكت أيضاً، وقد قال مكي في التبصرة له: يلزم من ألقى الحركة في "كتابي إني" أن يدغم "ماليه هلك""، لأنه أجراها مجرى الصلي حين ألقى الحركة عليها، وقدر ثبوتها في الوصل...قال أبو شامة: وأما إن وصل فلا يمكن غير الإدغام أو التحريك." انظر: اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر، المسمّى "منتهى المسرات في علوم القراءات" أحمد بن محمد البناء، (ت ١١١٧هـ) تح شعبان محمد إسماعيل، عالم الكتب، بيروت، ومكتبة الكليات، القاهرة، ج٢/٩٩ د د ط١٩٨٧/١

ذو غلبة وقعية ضابطها جرسها الموسيقي الذي يعد إشارة على انقطاع النفس بزفرة تنبئ عن ذلك الخوف الشديد مما أحس به الكافر يوم القيامة.

ويبقى السؤال: إذا وقعنا على نصّ ما تحقق فيه إشارة صوتية من خلال غلبة صوتية إيقاعية أو وقعية فكيف نبحث عن معنى هذا الصوت في هذا النّص؟

الإجابة عن هذا التساؤل تملي علينا أن نتبع جملة من الخطوات للوصول إلى الغاية، وهذه الخطوات هي:

أولاً. استكناه الإيحاءات الإيقاعية للقيمة الصوتية بمقصد النص واتجاهاته الدلالية، وذلك من خلال الأبعاد النفسية التي يوحيها إيقاع الصوت بما ينسجم مع دلالة النص، كما رأينا في إدغام هاء السكت بهاء هلك. واستشراف لما للفونيمات فوق التركيبية من قيم إيقاعية يمكن توظيفها في سياق دلالة الاتجاه العام للنص. يقول ممدوح عبد الرحمن[1]:

"...يمكن تحديد الكلمات عن طريق التمييز بين العناصر الصوتية الآتية والتي تكوّن الملامح الصوتية المميزة للكلمة وهذه العناصر هي: الفونيم، المقطع، النبر، التنغيم، الفواصل."

ثانياً. البحث عن صفات هذا الصوت، والصفات الصوتية للأصوات اللغوية التي يمكن تصورها من خلال ما قدمه علماء الأصوات نحو: الجهر والهمس، والتفخيم والترقيق، والشدّة والرخاوة، التكرار، الصفير، الاستعلاء والاستفال، الخفية، الغنة، التفشي، الاستطالة، والانحراف، الجرس و الهتف... وتوظيف هذه الصفات بما يقصده النص. يقول محمود نحلة[2]:

"لا تقتصر البلاغة القرآنية على تكرار الصوت المفرد للاستعانة بجرسه في تصوير موقف ما تصويراً فنياً. ولكنها تتعدى ذلك إلى تكرار أصوات متتابعة قد ينتظم تتابعها

---

١ – المؤثرات الإيقاعية في الشعر العربي، ممدوح عبد الرحمن ص١٨

٢ – دراسات قرآنية في جزء عمّ، محمود أحمد نحلة، ص١٦٤

وقد يختلف اختلافاً يسيراً. وهي في النهاية تأتي بما لها من صفات صوتية خاصة للتعبير عن معنى معين، وإبراز جوانبه المختلفة، وتصويره بجرس ألفاظه تصويراً موحياً مؤثراً ..."

ثالثاً. تصنيف الصوت المعني، وأقصد بالصوت المعني ذلك الصوت الذي حقق الشروط السالفة الذكر - استناداً على صفاته ومخرجه إلى قيمة ذات بعد دلالي، ليكون متفقاً بالضرورة مع الكلمات المختارة في النص من جهة، وما انتظمت فيه تراكيب النص من جهة أخرى، وما أفضى إليه النص من دلالة من جهة ثالثة. يقول الرافعي[1]:

"جرم أن المعنى الواحد يعبّر عنه بألفاظ لا يجزي واحد منها في موضعه عن الآخر، لأنّ لكل لفظ صوتا بما أشبه موقعه من الكلام ومن طبيعة المعنى الذي هو فيه، والذي تساق فيه الجملة."

فاللفظ ذو وقع جرسي يشي بمقاصد النص من خلال إيقاعه، يقول سيد قطب[2]: "تجد الإعجاز في اختيار الألفاظ لمواضعها ونهوض هذه الألفاظ برسم الصور على اختلافها".

ولإيضاح هذه الآراء نعود إلى صوت السين في سياق الحديث عن خصائصه الفونولوجية وتقاطعها مع الاتجاه العام في النص في قول البحتري[3]:

صنتُ نفسي عمّا يدنس نفسي		وترفعت عن جدا كل جبسِ
وتماسكت حيث زعزعني الدهر		التماساً منه لتعسي ونكسي

لا يبدو مطلع سينية البحتري واختيار السين قافية لقصيدته اعتباطاً. فالقصيدة مشهورة في ديوانه، والقصيدة تحكي قصة من قصص العبر في الحياة، وتقف على مشهد من مشاهد مواجهة المصير المحتوم، لمّا وقف الشاعر على أطلال إيوان كسرى وقد تهدمت أركانه وتصدعت حيطانه، وتبعثرت حجارته، وانطوى ذكره، ومحي

---

١ - إعجاز القرآن، مصطفى صادق الرافعي . دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان / ١٩٩٠م ص٢٢٦

٢ - التصوير الفني في القرآن، سيد قطب. دار المعارف، القاهرة /ط١٠ ص٧٨ - ٧٩

٣ - ديوان البحتري، البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي. تح عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت / ٢٠٠٠م قافية السين

رسمه...وغدا مرعى تعيث فيه الأغنام بعد أن كان معقد صنع القرار، ومحل إدارة شؤون العالم القديم...

وقف البحتري يتأمل هذه الرسوم الدارسة، والأطلال البالية ليرى في ثناياه فتك الدهر بالإنسان، وكيف تطوى الحضارات، وتنهار الممالك ..رأى الموت المصير المحتوم لكل حي، والفناء نهاية كل شيء.

إن استحضار الاتجاه العام للنص من القيمة بمكان حتى تتساوق الظاهرة الصوتية في القصيدة مع اتجاهها لتجذب الظاهرة بالاتجاه نفسه. وانطلاقاً من هذا الاستحضار العام للاتجاه تبدو الإشارة الصوتية من خلال ما نلحظه من ظاهرة صوتية برزت فيها القيمة الإيقاعية والوقعية لصوت السين في مطلع القصيدة، والسين صوت تتظافر عناصره الفونولوجية لتتقاطع مع الاتجاه العام في النص، الذي يحكي قصة من قصص التأمل وإفادة الموعظة والعبرة.

إنه حديث النفس للنفس، لأن العبرة لا تكون إلا من وحي النفس إلى ذاتها، لتكون النفس مخاطِبة ومخاطَبة في الوقت ذاته، فلم يكلم البحتري أحدٌ ليستدلَّ على عظم هذه البلوى التي يراها، فكان الشاعر مخبراً عن نفسه بنفسه في حواريته:

لا تَرُزْني مُزاولاً لاختباري عندَ هذي البلوى فتنكرَ مسّي

وما حديث النفس والحديث عن نكسها ونحسها إلا ضرب من ضروب حديث السّر والسرار، فالمتحدث هو الشاعر والمتحدث عنه هو الشاعر أيضاً، فأسّر الشاعر إلى نفسه حديثا، رأى نحسه ونكسه فيما يراه أمامه. وصوت السين بخصائصه الفونولوجية صوت مهموس مرقق احتكاكي، وإيقاعاته الصوتية صوت صفيري أسناني يبرز إشارة صوتية تتجلى من خلالها همسات الشاعر إلى نفسه بما أسرته نفسه إليه من عبرة وموعظة في مشهد من مشاهد انقلاب الأحوال، وتبدل الزمان، وتغير المكان.

وإذا كانت الإشارة الصوتية في البيت الأول والثاني للأصوات الصفيرية متقاطعة مع اتجاه القصيدة العام، فكيف إذا جعل الصوت "السين" روياً للقصيدة كلّها.

إنها إشارة إلى ما اختلج صدر الشاعر من صراع نفسي، كاد ينهار من رؤيته لمشهد الديوان وقد تصدرت الرعاء أفناءه، بعد أن كان الملأ والحرس والوزراء سكانه، فتماسك بعد أن زعزعه الدهر محاولا إذلاله والنيل منه، ولا يخفى ما في قوله "زعزعني" من إشارة صوتية تتكشف من خلال اختيار الزاي صوتاً مجهورا تتذبذب معه الأوتار الصوتية، واختيار العين صوتاً مجهوراً يستدعي نشاطا نطقيا كبيرا، إذ ينتج بتضييق جداري الحلق الأمامي والخلفي وهو صوت تشتد معه عضلات الجدارين ليوصف من وجهة نظر صوتية بأنه صوت "متوتر"، ولتقاطع هذا الجهر والتوتر مع شدة هذه الزعزعة. فإذا ما تكرر الزاي وتكرر العين كما هو حاصل في الفعل "زعزع" فإنّ الشاعر بهذا التضعيف يبرز عظم المصيبة التي ألمت به، ولست أغالي إذ قلت لعل التضعيف الناتج عن مماثلة فاء الفعل للامه، وعين الفعل للامه الثانية يقابل التوكيد اللفظي في كلمات العربية، ولكنه توكيد لفظي صوتي لا صرفي أو نحوي.[1]

وصفوة القول أنّ الصوت في النص إذا تحققت له القيمة الإشارية من خلال اكتسابه قيمة إيقاعية أو وقعية أصبح إشارة صوتية، يمكن الاستدلال لها بما يتساوق مع الاتجاه العام في النص، ويكون الاستدلال للإشارة الصوتية من خلال إيحاء الإيقاعات الصوتية وربطها بالاتجاه النفسي في دلالة النص وليس من خلال انطباعات خاصة غير مستندة إلى ركيزة إشارية، وكذلك بتوظيف خصائص الصوت من مخرج نطقي وعناصر فونولوجية تدفع باتجاه مقصد النص وغايته أيضاً.

* * *

١ – يقصر النحاة التوكيد اللفظي على مستوى الأداة والكلمة والجملة، ولكننا نجتهد لجعل الفعل المضاعف بتكرير الفاء والعين من هذا القبيل أيضاً، نحو الفعل: صرصر، دندن، زقزق...

المصادر والمراجع:

١. اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر، المسمّى "منتهى المسرات في علوم القراءات" أحمد بن محمد البناء، (ت ١١١٧هـ) تح شعبان محمد إسماعيل، عالم الكتب، بيروت، ومكتبة الكليات، القاهرة، ط١/١٩٨٧

٢. إعجاز القرآن، مصطفى صادق الرافعي . دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان /١٩٩٠م

٣. الإيقاع الصوتي في شعر شوقي الغنائي، منير سلطان، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٠م

٤. الإيقاع في الشعر العربي، أبو السعود سلامة أبو السعود، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠٠٢م

٥. التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار المعارف، القاهرة /ط١٠

٦. التطور النحوي للغة العربية، برجشتراسر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، أخرجه وصحّحه وعلّق عليه: رمضان عبد التواب، ط٤ /٢٠٠٣

٧. الخصائص ، ابن جني (ت٣٩٢هـ) تحقيق محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دار الشؤون الثقافية العامة ط٤ / ١٩٩٠

٨. خصائص الحروف العربية ، حسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٨

٩. دراسات في فقه اللغة، صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط١٧/ ٢٠٠٥

١٠. دراسات قرآنية في جزء عمّ، محمود أحمد نحلة دار العلوم العربية، بيروت ط١/ ١٩٨٩

١١. الدلالة الصوتية في اللغة العربية، صالح سليم عبد القادر، منشورات جامعة سبها/١٩٨٨

١٢. دور اللسان في بناء الإنسان عند زكي الأرسوزي، خليل حلمي، دار السؤال للطباعة والنشر بدمشق، ط٢/١٩٨١

١٣. ديوان البحتري، البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي، تح عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت /٢٠٠٠م

١٤. الفاخر في شرح جمل عبد القاهر، محمد بن أبي الفتح البعلي (ت ٧٠٩هـ)، تح ممدوح محمد خسارة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

١٥. فصول في علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير، ترجمه من الفرنسية إلى الإنجليزية واد باسكين، ترجمه إلى العربية، أحمد نعيم كراعين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية/١٩٨٢

١٦. فقه اللغات السامية، كارل بروكلمان، ترجمة رمضان عبد التواب، جامعة الرياض /١٩٧٧

١٧. اللغة وعلم اللغة، ترجمة وتعليق مصطفى التوني، دار النهضة العربية، القاهرة /١٩٨٧

١٨. المؤثرات الإيقاعية في الشعر العربي، ممدوح عبد الرحمن، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية/١٩٩٤

١٩. محاضرات في اللسانيات، فوزي الشايب، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٩

٢٠. المحتسب، ابن جني، تحقيق علي النجدي ناصف والدكتور عبد الحليم النجار والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي، القاهرة ١٣٦٨هـ ٢

٢١. المزهر في علوم اللغة وأنوعها، السيوطي، ضبطه وصححه فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٩٩٨

٢٢. المزهر في علوم اللغة، السيوطي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم وآخرين دار التراث بالقاهرة الطبعة الثالثة بلا تاريخ

٢٣. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس(٣٩٥هـ)تحقيق عبد السلام هارون، دار الجليل بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩١م

٢٤. المقابسات، أبو حيان التوحيدي، تحقيق حسن السندوبي دار المعارف، سوسة، تونس ١٩٩١

٢٥. مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط٣

٢٦. من أسرار اللغة، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ط٢/ ١٩٧٢م.

٢٧. من وظائف الصوت اللغوي، أحمد كشك، دار غريب، القاهرة/٢٠٠٧

٢٨. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن خواجه، تونس/ ١٩٦٦

الدوريات:

١. الصوت والدلالة دراسة في ضوء التراث وعلم اللغة الحديث. الدكتور محمد بوعمامة. مجلة التراث العربي–مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب–دمشق العدد ٨٥

٢. النظرية الثلاثية في أصول ألفاظ العربية عند ابن فارس. محمود الحديد. مجلة دراسات. الجامعة الأردنية. ملحق المجلد ٢٨. كانون أول /٢٠٠١

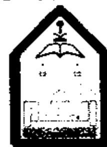
* * *

VOLUME 23
MARCH - 2012

JOURNAL OF ARABIC STUDIES

KINGDOM OF SAUDI ARABIA

KINGDOM OF SAUDI ARABIA
MINISTRY OF HIGHER EDUCATION
AL-IMAM MUHAMMAD IBN SAUD
ISLAMIC UNIVERSITY



www.imamu.edu.sa
e-mail: journal@imamu.edu.sa

عمادة البحث العلمي
Deanship of Academic Research